سلسلة الحضارة الصينية

تجسيد تاريخ طويل

استكشاف الحضارة الصينية

الدمج الأمثل بين الكونغ فو والتربية الطاوية

الفنون القتالية الووشو الصينية

رؤساء التحرير: باي وي وداي هيبينغ

تأليف: لي ين دونغ



BEIJING PUBLISHING GROUP



تتناول هذه السلسلة مواضيع متنوعة؛ كالشخصيات الصينية، والمسرح، والموسيقى، والرسم، وتنسيق الحدائق، والعمارة، والغناء الشعبي، والطب، والحِرَف التقليدية، والفنون القتالية، والعادات، والتقويم الشمسي، فضلاً عن الملاحم والأساطير، والحليّ والمجوهرات، والأدوات البرونزية، وفنّ الخطّ والأدب الصيني. لذا، لا بدّ تُثري معارف القارئ المهتم بتاريخ الصين العريق.

وفي هذه السلسلة، سيبحر القارئ مستطلعاً صوراً مدهشة تتراكب بشكل متقن في كتب تصل به إلى قلب الحضارة الصينية وهو في مكانه؛ حتى بالنسبة لأولئك الذين لم يعتادوا القراءة في هذه المواضيع. مما يجعل منها كتباً مناسبة لكل من الكبار في السن والشباب على حد سواء. فالقراءة متعة بحد ذاتها، وهي تُطوِّر القدرات والمعارف لكل من يختار الإبحار في عالمها الرحب.

صدر من هذه السلسلة:

- أثواب فخمة مزينة – الملبوسات والإكسسوارات الصينية
- تقليد الطبيعة – الحدائق الصينية
- الحجر الأنيق – تحف الجاد الصينية
- الوسائل الطبيعية – الطب الصيني التقليدي
- الدمج الأمثل بين الكونغ فو والتربية الطاوية – الفنون القتالية الووشو الصينية
- أسرار فينولوجية في الأغنية الشعبية – الفصول الشمسية الصينية
- السحر الأزلي – العمارة الصينية
- التشابه والتغاير – فن الرسم الصيني
- ازدهار أمة بفضل العلوم – العلوم والتكنولوجيا في الصين
- ألحان من الروح – الموسيقى الصينية
- الترفيه مع الفن الغنائي والسردي الشفهي – الكيو يي الصينية
- الاحتفالات والشعائر والآداب الشرقية – الأدوات البرونزية الصينية
- تعبير عن الروح – الخط الصيني
- عالم صغير – الأحرف الصينية
- أهمية المشاعر – الأدب الصيني
- طفولة حضارة – الأساطير والخرافات الصينية
- كلٌ متكامل بين العالمين العقلي والمادي – الفنون والحرف الصينية التقليدية
- عائق التاريخ الطويل – الأوبرا التقليدية الصينية


ISBN 978-614-01-2012-9



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com



سلسلة الحضارة الصينية

تجسيد تاريخ طويل
استكشاف الحضارة الصينية



الدمج الأمثل بين الكونغ فو والتربية الطاوية

رؤساء التحرير: باي وي وداي هيبينغ
إعداد: لي ين دونغ



B&R BOOK PROGRAM

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

Super Combination of Kung Fu and Taoist Cultivation Chinese Wushu

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

الطبعة الأولى

1438 هـ - 2017 م

ردمك 978-614-01-2007-5



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

مقدمة عامة

لسلسلة استكشاف الحضارة الصينية

في عالمٍ يزداد وقعُ الحياة فيه تسارعاً، وتصبح الثقافات المختلفة أكثر اتصالاً ببعضها بعضاً، نجد الكثير من الكتب التي تقدّم للثقافات والحضارات المتنوعة. ولا شكّ في أنّ أيّ جهد مبذول في إطار التشجيع على القراءة والتعريف بالثقافات والحضارات مطلوبٌ وهامٌّ.

وفي يومنا هذا، صار من الممكن العثور على الكثير من الكتب التي تتناول الثقافات والحضارات الشعبية. غير أنّه لا يُخفى على أحد أنّ نشر الثقافة على أيدي علماء مختصين أمر مهم؛ كي يستطيع عامة الناس الانتفاع من خلاصة ثقافات الشعوب. وهذا تحديداً ما أقدم عليه نخبة من العلماء المتخصصين الذين تركوا بصماتهم في مختلف ميادين المعرفة؛ بنشرهم سلسلة كتب استكشاف الحضارة الصينية. وقد حرصوا في عملهم هذا على أن تكون الأفكار واضحة، والكتب سهلة الفهم؛ بعكس الأسلوب الأكاديمي التقليدي في مقاربة التاريخ. وتتناول هذه السلسلة مواضيع متنوعة؛ كالشخصيات الصينية، والمسرح، والموسيقى، والرسم، وتنسيق الحدائق، والعمارة، والغناء الشعبي، والطب، والحِرَف التقليدية، والفنون القتالية، والعادات، والتقويم الشمسي، فضلاً عن الملاحم والأساطير، والحليّ والمجوهرات، والأدوات البرونزية، وفنّ الخطّ والأدب الصيني. لذا، لا بدّ تُثري معارف القارئ المهتم بتاريخ الصين العريق.

وفي هذه السلسلة، سيبحر القارئ مستطلعاً صوراً مدهشة تتراكب بشكل متقن في كتب تصل به إلى قلب الحضارة الصينية وهو في مكانه؛ حتى بالنسبة لأولئك الذين لم يعتادوا القراءة في هذه المواضيع. مما يجعل منها كتباً مناسبة لكل من الكبار في السن والشباب على حد سواء. فالقراءة متعة بحد ذاتها، وهي تُطوِّر القدرات والمعارف لكل من يختار الإبحار في عالمها الرحب.

الحضارة بشكل عام هي المنبع الروحي لكل أمة، وهي القوة التي تدفع الشعوب إلى المزيد من التقدم والإبداع. والحضارة الصينية على وجه الخصوص هي الوحيدة بين الحضارات الإنسانية التي يمكنها أن تفخر بتطور مستمر وغير منقطع امتد خمسة آلاف سنة. وخلال هذا التاريخ الطويل، بكل ما رافقه من عمليات تحوّل وتقلّب، أظهر الصينيون ما يتميزون به من مثابرة وجدّ، فضلاً عن التفاؤل واللطف المعروفَين عنهم. فهذا الشعب يحترم الطبيعة، ويحب العيش بتناغم معها، كما أنه شديد التسامح والتقبل للحضارات الأخرى التي ما فتئ يمتص تأثيرها ويدرسها قبل أن يستوعبها، محوِّلاً إياها إلى جزء من حضارته وثقافته. وقد لعبت حكمة الأمة الصينية وإبداعها في الماضي دوراً لا غنىً عنه في تقدم الحضارة الإنسانية كما نعرفها اليوم، وهي حتى يومنا هذا لا تزال تبرهن عن قدرتها على التجدد وترسيخ قيمها التي تتمثل في المحبة والكرم والسعي إلى تحقيق السلام والسعادة لأبناء البشر؛ وكلّها صفات تمثّل تقاليد الأمة الصينية خير تمثيل.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ما هي التقاليد؟ التقاليد هي الثقافة الموروثة والمتطورة عبر الأجيال. ولا تزال الحضارة الصينية- بعد آلاف السنين- مستمرّةً في مسيرتها التطورية على أيدي الأجيال الجديدة، ولا يزال الشعب الصيني ذو الحضارة المجيدة يبني إرثه الغني ليصنع تاريخاً جديداً مبنياً على أخلاقياته الرفيعة والعريقة دون توقف أو انقطاع.

مقدمة

القلم، والسيف، والتربية الأخلاقية

تُعتبر الووشو الصينية، أو الكونغ فو الصينية التي كانت تُعرف سابقاً باسم الجوشو (الفنون القتالية الصينية)، أو وو يي (إتقان الووشو)، فناً من فنون الدفاع عن النفس والقتال التي طوّرها الصينيون منذ أقدم الأزمنة، والتي استمرت حتى يومنا هذا. يمكننا القول كذلك إن الووشو - وهي خلاصة وسائل الدفاع التطبيقية التي اعتمدها الصينيون القدماء، كما أنها التجسيد الشمولي للفلسفة الصينية التقليدية - قد لعبت الدور الأبرز خلال التاريخ الصيني، وتحولت إلى نظامٍ ثقافيٍّ وحضاريٍّ رائع. يمكننا القول بهذا المعنى إن الووشو تجسيد مصغّر للحضارة الصينية.

كانت الووشو تاريخياً مهارةً تُستخدم في أوقات الحرب. ولكن الدور العسكري للووشو الصينية تقلّص مع مرور الزمن وبصورة تدريجية، وتحولت في وقتٍ لاحق لتصبح وسيلةً تحظى بالشعبية، وتهدف إلى الحفاظ على اللياقة البدنية، وتطوير جذورنا الطبيعية. لكن الووشو تلاشت من حياتنا اليومية، وأصبحت تذكاراً مستمراً وغامضاً بطريقة ما للأمة الصينية، ومصدر إلهام للروائيين؛ هذا إذا استثنينا أولئك الذين يمارسون الووشو بحسب رغبات آبائهم، أو بمحض الصدفة.

مرّ تطور الووشو بمراحل متعددة، وهي التي انبثقت من حاجة أجدادنا القدماء الملحّة لوسائل تحفظ بقاءهم، وهي وسائل تتميّز بأنها دفاعية بطبيعتها. لكن، مع تعمّق التمايز الاجتماعي في مجالات العمل، وظهور الملكية الخاصة، والمجتمع المرتكز على نظامٍ طبقي، تمكنت فنون الووشو الأصلية من إرساء أساسٍ عملي لاستخدام الأسلحة، كما تمكنت من تطوير مهارات قتالية وبرامج تدريبية لأغراضٍ عسكرية. تمكّنت الووشو التقليدية والووشو العسكرية كذلك من التأثير في بعضهما بعضاً، ومن الاندماج والتطور والتفاعل؛ من دون أن تشكّل الواحدة عائقاً أمام الأخرى. لكن، كان من الصعب التفريق بينهما في سياق تطورهما المشترك.

وقد أدى هذا الأمر مع التوسّع في حجم الحروب، والتغيّر الذي حدث في تقنياتها، إلى بداية التباعد بين الووشو العسكرية الشمولية، وتلك التي تهدف إلى الدفاع عن النفس. يُضاف إلى ذلك أن الاستخدام الواسع للأسلحة النارية جعل الووشو العسكرية أقلّ أهمية في تاريخ الأعمال الحربية. لكن مع التحوّل الاجتماعي الذي شهدته الصين، والثورة الصناعية التي حدثت بعد ذلك، ومجتمع القواعد الذي تبَع حرب الأفيون، فقدَت الووشو الشعبية التقليدية الصلة التي تربطها مع جذورها التي أمّنت لها الاستمرار والهيمنة في السابق. لكن، وبالرغم من كل ذلك، ومع الحاجة المتزايدة التي شعر بها المجتمع الصيني الحديث إلى التمارين المتعلقة بالصحة، تحوّلت الووشو إلى رياضة أكثر من كونها مهارةً قتالية. وقد أدّت هذه الاحتياجات المتغيّرة إلى تطوّرٍ غنيٍّ ومتنوّع يشهد على قدرة التكيّف العظيمة التي يتمتّع بها فنّ الووشو.

أنتج الجدل حول الرياضة الصينية التقليدية والرياضة الغربية، والذي حدث خلال عشرينيات وثلاثينيات القرن التاسع عشر، تغيّراً تاريخياً في الووشو ذاتها. يُضاف إلى ذلك أن الووشو قد انضمت حتى هذا اليوم إلى صفوف الرياضة الصينية الحديثة بمظهرٍ جديدٍ تماماً، وذلك بتأثير التطور العلمي الذي شهدته الرياضة الغربية. لكن هذا التطور المتعلق بالرياضة الذي شهدته الووشو كان نهجاً يدل على تكيّف الثقافة الصينية التقليدية تدريجياً مع تأثيرات الثقافة الغربية. يُضاف إلى ذلك أن هذه العملية لا تزال مستمرة حتى الآن. ويعني ذلك أن تطور الووشو شهد نهجاً تطورياً، وتقلباتٍ عديدة؛ وهو الأمر ذاته الذي حدث مع الحضارة الصينية على نطاقٍ أوسع. يمكننا هنا طرح السؤال التالي: هل بقيت للووشو أي قيمة، أو أهمية بالنسبة إلى المجتمع الحديث، وذلك بوصفها مهارة عسكرية قتالية، أو وسيلة مواجهة وجهاً لوجه، وهي التي تمّ استبدالها منذ وقتٍ طويل بالقوة التكنولوجية التي تتمتع بها الأسلحة الحديثة؟

الإجابة الواضحة عن هذا السؤال هي «نعم!». وبإمكاننا العثور على تلك الإجابة في المفهوم الثقافي الواسع الذي تمتلكه الووشو. ويعني ذلك أن ثقافة

الووشو هي في صميم قِيَمها. تطورت الووشو من تقنية قتالية أصيلة إلى مدارس، أو فِرَقٍ مختلفة تعتمد أساليب الملاكمة التي تعكس جوهر الفلسفة الصينية الصافي، وتجسّد مفاهيم معيّنة مثل الكونفوشيوسية، والطاوية، والبوذية، والاستراتيجية العسكرية الصينية. يضاف إلى ذلك أن الووشو تعتمد جوهر مفاهيم مثل الين - يانغ، والتاي تشي، والعناصر الخمسة، وغير ذلك من مفاهيم تجسّد بعض مظاهر الثقافة الصينية التقليدية؛ مثل «وحدة السماء والبشرية»، و«وحدة النظرية والممارسة»، كما أنها مرتبطة بشدة مع الطب الصيني التقليدي والفنون الصينية التقليدية. لكن، ليس من المبالغة في شيء القول إن الووشو تُعتبر التجسيد الأمثل للثقافة الصينية التقليدية.

يُضاف إلى كل ذلك أن الووشو نجحت - عن طريق الاتصال والتبادل المستمرين - في إعادة الحياة إلى هيكليتها الثقافية الخاصة بها على ثلاثة مستويات؛ وعلى الأخص مهارات الووشو التي تجسّد ثقافتها وسلوكياتها، وتقاليدها، ومبادئها وعقليتها الروحانية. تتألف مهارات الووشو - التي تترافق مع ثقافتها ومبادئها - من الحركات الجسدية والمهارات القتالية، ومن المبادئ والقواعد التطبيقية الكامنة في تلك الحركات. يُضاف إلى كل ذلك أن التربية الأخلاقية لسلوكيات الووشو تُكتسب من خلال ممارستها المتعلقة بالتواصل مع الآخرين والتفاعل معهم، والتي تجد في الأخلاقيات القتالية أفضل تعبيرٍ عنها. أما التراث الروحاني لعقلية الووشو فيتعلق بالقيَم، وبالمفاهيم الجمالية، وطرائق التفكير التي اتّبعها الشعب الصيني على مدى فترة زمنية طويلة عن طريق ممارسة الووشو، وتكوين الوعي الاجتماعي.

تفتخر الووشو بوظيفتها التربوية التي تميّزها، وهي التي تتجسّد بشكلٍ خاص في بثّ الأخلاقيات القتالية. وتتضمن المبادئ الأساسية التي تدعو إليها الإخلاص، والإستقامة، والثقة، والإصرار، والحزم، والشجاعة، والصدق. كما تُضاف إلى ذلك بعض القواعد السلوكية مثل عمل الخير، واتساع الأفق في التفكير، والتسامح، واللطف، والاعتدال؛ وتُعتبر كلها ذات أهمية تثقيفية حيوية للصين الحديثة. أما أعظم مثال على ذلك فنجده في المثل القائل: «يُستخدم القلم من أجل اختبار ذكاء

المرء، بينما يُستخدم السيف لقياس فضيلته».

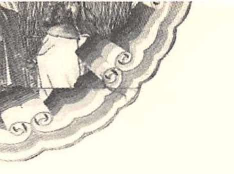
يُمكن للممارسة المستمرة والصارمة للووشو أن تساعد على تنمية روح المثابرة، وقوة الإرادة، وشخصية ممارسي الووشو. يبدأ المرء بممارسة الووشو لحماية منزله، أما إذا مرّت عشيرة المرء - أو دولته - في أوقات شدة، فإن دافع حماية الموطن يتطور ليصبح روحاً قوميةً تحفّز على الدفاع عن الكرامة، ومصلحة الأمة. وقد ظهر عدد كبير من الأبطال الأشداء عبر التاريخ، وهم الذين ضحّوا بأنفسهم من أجل البلاد، وما لبثوا أن بدأوا نضالاً ملحمياً من أجل وحدة الوطن وتطويره. يتضح من كل ذلك أن ثقافة الووشو قد تطورت لتصبح تقليداً رفيعاً من محبة البلاد، والشعب، والإيمان، والتمسّك بالمبادئ الأخلاقية، بالإضافة إلى الوعي الذاتي والتقليدي بالمشاعر الوطنية.

يُعتبر التأثير المتبادل ما بين مهارات الطاو والووشو مظهراً هاماً آخر من مظاهر تطور الووشو. وهذا التأثير هو الذي تمكّن من ردم تلك الفجوة الصغيرة التي تفصل الووشو عن الطاوية، وقد حصل ذلك عن طريق دمج الحركات الجسدية الخارجية مع تهذيب القلب والروح. يعني ذلك أن المهارة القتالية الشرسة التي تكونت في البدء تحوّلت إلى ممارسة ثقافية وروحية شاملة. في النهاية، يمكننا القول إن مهارات المواجهة والقتل تحوّلت تدريجياً من إنزال الأذى بالخصم إلى مستوىً أعلى من التهذيب الطاوي. وكانت نتيجة ذلك أن الطاوية والووشو قدّمتا أفضل ما فيهما بعد مرحلة الاختلاط والاتحاد. يمكننا وصف الفنون القتالية الصينية بأنها خليط من الووشو والتربية الطاوية.

لكن، بسبب التأثير القوي الذي تمارسه الثقافات الأجنبية على الصين الحديثة، فإن الثقافة الصينية التقليدية - التي تمثّلها الووشو - أصبحت راية الروح القومية ومجالها. يُضاف إلى ذلك أن الووشو تدعو إلى النزاهة، والاستقامة، والانضباط الذاتي، والالتزام الاجتماعي، والمحبة، وحماية البلاد، والاجتهاد، والشجاعة. وتُعتبر الووشو ذات أهمية كبيرة في تطوير الشخصية المستقلة والروح القومية، وتكوين مجتمعٍ متناغم. وفي هذا المجال، يمكننا التأكيد على أن الووشو سوف تستمر في

لعب دورٍ فريدٍ وقوي في عملية تكوين المجتمع المتناغم، وفي تعزيز تلاحم الأمة الصينية وتجديدها في تقدّمها نحو المستقبل.

تمنيت منذ وقتٍ طويل تحضير شرحٍ وافٍ وممنهج عن الووشو، وذلك من زاوية المكوّنات الأساسية للأبعاد العديدة الكامنة في ثقافة هذه الرياضة. لكن، ما إن بدأت في هذا العمل حتى اكتشفتُ الصعوبة الشديدة التي بدا لي أنها تفوق قدراتي وتصوّري. لكن، بما أن الووشو متجذرة بعمق في حقولٍ عديدة، فإن مشاكل عديدة وجديدة ظهرت أمامي في سياق تصنيف الأبعاد الأكاديمية. ونتيجة لذلك، أريد القول إنه توجد عدة نواقص في هذا الكتاب بسبب المهل الزمنية لإتمامه، وبسبب قدراتي الشخصية المحدودة، والتي أعتذر عنها بالمناسبة، كما أنني أرحّب بأي اقتراحاتٍ، أو تعليقاتٍ تهدف إلى تحسين هذا العمل.



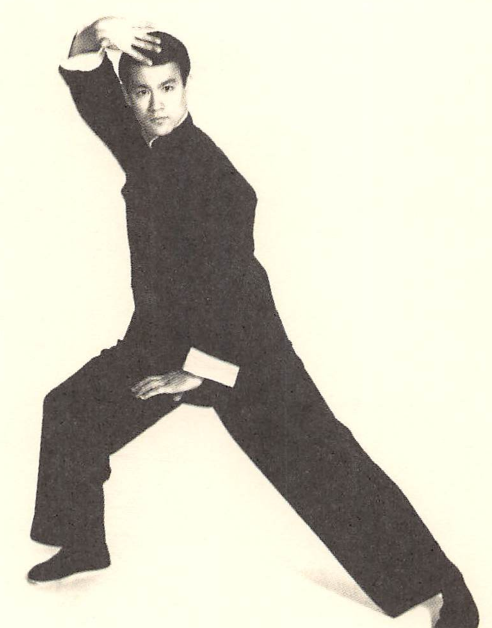




المحتويات













الفنون القتالية
الووشو الصينية

الفصل الأول

تاريخ الووشو

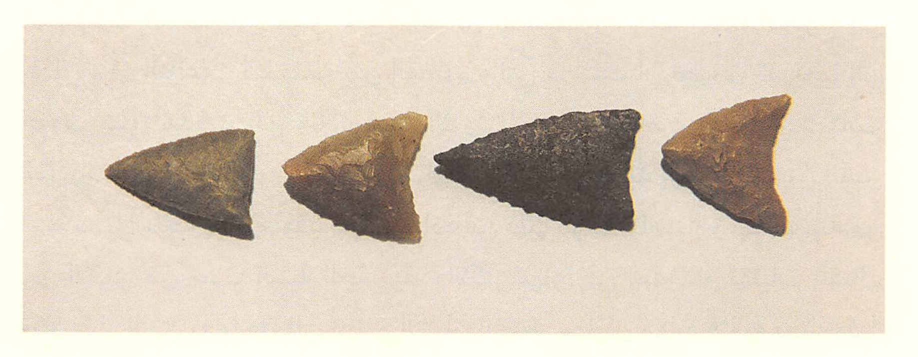
التطور من أجل البقاء

انطلقت بدايات الووشو في الصين قبل وقتٍ طويلٍ من التاريخ المدوّن، لكن التقنيات القتالية تم اكتشافها أو إنشاؤها خلال حقبة الصراع المستمر على الغذاء، والتي استغرقت وقتاً طويلاً؛ وذلك لتكون دفاعاً ذاتياً ضد أشخاصٍ أو حيوانات. نشأت الووشو أيضاً بدافعٍ من التحضير للحروب والمواجهات التي كثيراً ما كانت تحدث بين مختلف القبائل في البلاد. إذ كان الصيد في المجتمعات البدائية إحدى الوسائل الهامة للإنتاج ولتأمين المعيشة. وقد اعتاد الرجال البدائيون على الإمساك بالحيوانات البرية وقتْلها بأيديهم العارية، وذلك في ما عدا استخدام بعض الأسلحة البسيطة.

لكن، قبل ستة آلاف عام أو سبعة، ومع تطوّر قوى الإنتاج، وتحوّل طرائق ممارسة الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية، بدأت الحضارة الزراعية البدائية بالظهور في المناطق الصالحة للزراعة والمناسِبة مناخياً. كما بدأت في هذه الأثناء القبائل التي تسكن بالقرب من النهر الأصفر بالدخول إلى الحقبة الوسطى من العصر الحجري الحديث، وظهرت أدوات مثل الفؤوس، والسكاكين، والمعاول، والرؤوس الحجرية للسهام (الصورة 1-1)، والتي كانت تُصنَع وتُستخدَم على نطاقٍ واسع.

الصورة 1-1 رؤوس السهام الحجرية

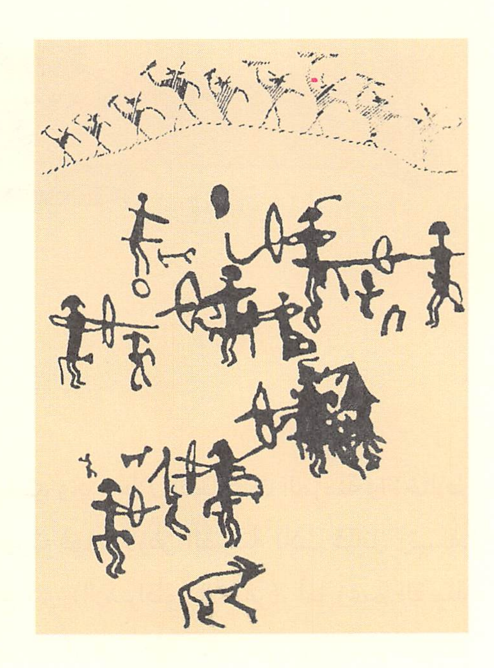
تشير كلمة رأس السهم الحجري (زو، أو دي) الذي كان مستخدماً خلال حكم سلالة هان إلى رأس السهم الحاد. لكنّ الصينيين القدماء اعتمدوا في أواخر العصر الحجري القديم على الأسلحة المقذوفة. أما أقدم رؤوس السهام الحجرية فيعود تاريخها إلى ما يزيد عن 28,000 سنة. وقد ظهرت رؤوس السهام الحجرية، ورؤوس السهام المصنوعة من العظام، وتلك المصنوعة من المحار في العصر الحجري الحديث. وكانت أشكال رؤوس السهام متنوعة؛ إذ أخذ بعضها شكل شفرة مزدوجة، فيما أخذ بعضها الآخر شكلاً ثلاثي الزوايا، بينما أخذت الرؤوس الباقية شكلاً رباعي الزوايا، إلا أن قسماً منها كان بشكل ورقة، أو بشكل عصا دائرية.





لم يقتصر استخدام تلك الأدوات على صيد الأسماك أو الطيور، لكنها كانت في الوقت ذاته أسلحةً للأغراض الدفاعية. اكتُشفت في هذا السياق سجلاتٍ تاريخية عديدة تتعلق بالنزاع حول الشركاء، ووسائل الإنتاج، وزعامة القبيلة، وكذلك مجالات النفوذ والأراضي. أورد كتاب حمل عنوان الروايات التاريخية حول فن الحرب، الذي ألّفه وي تشي ويعود إلى فترة حكم سلالة كينغ ما يلي: «تنافس الناس في ما بينهم على وسائل الإنتاج والمعيشة، وهو الأمر الذي أدى إلى ظهور الووشو». لكنّ كتاب حوليات الربيع والخريف للرئيس (الماستر) لو أورد ما يلي: «حارب الناس بعضهم بعضاً قبل تشي يو بالأخشاب والعصي في كل الأوقات، وفي كل الأمكنة...» بينما نجد أن سجلات تايباي يين جينغ تورد أن الخشب كان مستخدماً كسلاح في فترة حكم فو شي، لكنه استُبدل بالأسلحة الحجرية في زمن فترة شينونج. لكن، ليس من الصعب أن نستشفّ من تلك السجلات أن معظم النزاعات التي كانت تنشب بين الأفراد اشتملت على معارك بين أشخاص على نطاق صغير، وأنها أدّت بعد ذلك إلى أول ظهورٍ للأسلحة القتالية بأشكالٍ بدائية.

لكنّ تطوير القوى الإنتاجية الذي حدث في ما بعد أدّى إلى انقسام اجتماعي شديد التشعّب في قطاع العمل، وإلى إنتاجية زائدة، كما أن التقدم البطيء للتكنولوجيا أدّى إلى تمكين الناس من إنتاج أكثر مما يحتاجون إليه لمعيشتهم، وترافق ذلك مع ظهور تركيزٍ أكبر للثروة والسلطة نتيجة للاستغلال. لكن، بعد أن توزع الناس ضمن مجتمعٍ مستندٍ على الطبقية، أخذت الحرب طبيعةً قمعية للطبقات نوعاً ما. كانت معظم الحرب تشنّ غالباً بهدف النهب، ومصادرة الأراضي والعمال والموارد. لكن، مع التوسع السكاني الذي شهدته القبائل، ومراكمة الممتلكات الخاصة في أيدي شيوخ القبائل المتسلطين، عمد أولئك الشيوخ إلى إذكاء نيران النزاعات المسلحة بين القبائل، والتي ما لبثت أن تطورت تدريجياً إلى حروبٍ بينها هدفت إلى زيادة نهب الثروات بصورة مستمرة (الصورة 1-2). كانت المهارات القتالية الفردية مفتاح الانتصار أو الهزيمة بالنسبة إلى المتنازعين الذين استخدموا أسلحةً بدائية. وقد جرت العادة في ذلك الوقت باختيار زعيم القبيلة من بين الأقوى من حيث البنية الجسدية، والأكثر مهارة في استخدام تقنيات القتال. وكان كبار السن يعمدون إلى تعليم الشبان الأصغر سناً كل مهارة قتاليةٍ يمتلكونها؛



الصورة 1-2 الرسم على الصخور في جبال ينشان

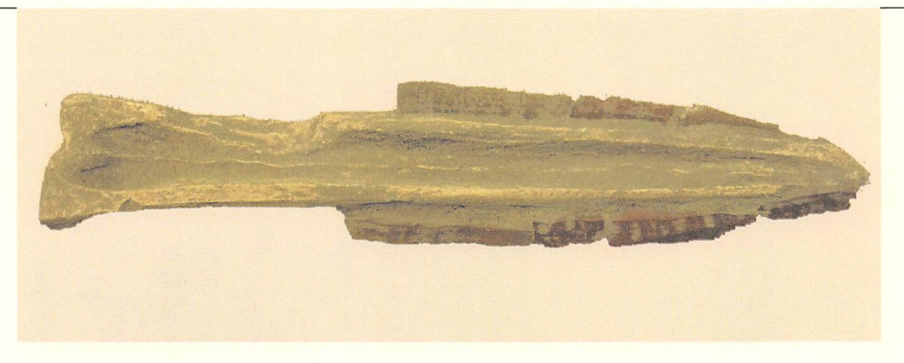
كانت هذه حملة رسم ناشطة على الصخور، وكانت تهدف إلى رسم معركة بواسطة الفؤوس والخناجر والأسهم، وهي معركة جرت بين قبائل في العصور القديمة. تُعتبر اللوحة تمثيلاً واضحاً لجهتَي المعركة، ويظهر جنود الجهة الرابحة من المعركة مدجّجين بالأسلحة والدروع وهم يهاجمون العدو من الأمام ومن الخلف، مصوبين نحوه أقواساً قوية. يظهر كل مقاتلٍ بجديلتين، بينما يضع بعضهم ريشاً طويلة على رؤوسهم (يبدو أنهم زعماء حرب). وفي المقابل، يظهر الخاسرون صلعاء، ويبدو أن بعضهم لجأ إلى الفرار. تقدّم الصورة بأكملها تبايناً حاداً بين الرابحين والخاسرين. ويبدو كذلك أن إحدى القبائل قد حفرت هذا النقش لتخليد انتصارها في المعركة.

وهو الأمر الذي أرسى أُسُساً صلبة لمراكمة مهارات الووشو ونشرها. يعني ذلك أن مراكمة مهارات الووشو هذه، ونشرها بهذه الطريقة، شكّلا الأصل المباشر للووشو.

لم تكن أدوات الزراعة المزوّدة بنصالٍ حادة كافيةً لتلبية احتياجات المواجهة في المعارك، لكن الأدوات المصمّمة خصيصاً لأهداف القتال - أي الأسلحة - ظهرت في تلك الفترة. لم يكن استخدام الووشو والأسلحة المطلب المادي الوحيد لخوض المعارك عند القبائل لإلحاق الهزيمة بمنافساتها من القبائل الأخرى، واكتساب قدرٍ أكبر من النفوذ. لكن ذلك الاستخدام كان الرادع الأساسي لخطر الغزو، ووسيلة من وسائل استمرار العِرق. كانت الأسلحة في ذلك الوقت مصنوعة غالباً من الحجارة والعظام، أو من الخيزران (الصورة 1-3)، وكانت مزودةً بما يشبه المناجل، وبنصالٍ؛ وذلك تقليداً لقرون الحيوانات ومخالبها وأسنانها ومناقيرها. وقد تميّز هذا النوع من الأسلحة بقدرته على القيام بوظائف هجومية بشكلٍ أفضل من تلك المستخدمة للزراعة والقتال.

تقول الأساطير إن الأمة الصينية ظهرت إلى الوجود من خلال ذلك النوع من الحروب التي كانت تجري بين القبائل، وهي الحروب التي ترافقت مع اختراع





الصورة 1-3 السكين المصنوعة من العظام

يبلغ طول هذه السكّين التي اكتُشفت في خرائب آثار هونغشان 16 سم، بينما يبلغ عرضها 3.2 سم، وهي مزودة بنصلٍ مرصعٍ بالعقيق.

الأسلحة واستخدامها. لكن، في ذلك الوقت، ومن خلال الصراعات المزمنة والاختلاط بين عددٍ كبيرٍ من القبائل الصغيرة، ظهرت فوق الأرض الصينية ثلاث قبائل رئيسة. وكان زعيم القبيلة الأولى يدعى هوانغ دي (الإمبراطور الأصفر)، أما زعيم القبيلة الثانية فكان يُدعى يان دي (إمبراطور يان)، في حين كان شي يو زعيم القبيلة الثالثة. لكن في نهاية الأمر، حدثت معارك شرسة بين القبائل الثلاث. ففي البداية، تعرضت قبيلة يان دي إلى الطرد من جي يو على يد القبيلة القوية التي كان يرأسها تشي يو. وبعد ذلك، حاربت قبيلة يان دي قبيلة هوانغ دي، ثم قام يان دي الذي كان شهيراً بالقتال بالنيران، بالهجوم على هوانغ دي. أرسل هوانغ دي يينغ لونغ لإطفاء النيران، ثم قاد عدة حيوانات برية مفترسة بما فيها الدببة الرمادية، والدببة البنيّة، وبعض الحيوانات الشرسة الأخرى، بالإضافة إلى النمور إلى ميدان المعركة لمواجهة يان دي في بانكوان (ولاية شان شي، أو هيباي في الصين الحديثة). (الصورة 1-4) تمكّن هوانغ دي من تحقيق نصرٍ ساحق على يان دي في تلك المعركة، لكنّ القبيلتين اتحدّتا منذ ذلك الوقت تحت زعامة هوانغ دي. كان هذا الاتحاد سلف الأمة الصينية التي تشكلت بعد ذلك.

تحولت القبيلة التي يرأسها شي يو إلى عدوٍّ رهيب للاتحاد الذي شكّلته القبيلتان. ونشبت بعد ذلك حربٌ كبيرة بين القبيلتين، لكن القبيلة التي كانت بزعامة شي يو تمكنت من تحقيق تفوقٍ في المرحلة الأولى من الحرب بعد أن استفادت من التقنية المتقدمة في الصهر وإنتاج الأسلحة. أظهر الفريقان في هذه



الصورة 1-4 معركة بانكوان

جرت معركة بانكوان التي تحدثت عنها السجلات التاريخية، واعتُبرت حرباً أسطورية، في الماضي السحيق للصين. انتخبت القبائل هوانغ دي (الإمبراطور الأصفر) ليكون إمبراطوراً يخلف يان دي (إمبراطور يان)، وذلك بعد تمكّنه من إخماد الصراعات الداخلية التي نشبت بين حلفائه. تمكّن هوانغ دي منذ ذلك الحين من إنشاء نظام حكمٍ جديد لحكم الدولة بقوة القانون، ومقاومة كل غزوٍ أجنبي بالقوة.

الحرب شجاعةً فريدةً من نوعها. وتمكّن هوان دي من قتل شي يو في زوالو، ومن تحقيق نصرٍ ساحق. لكن، بالرغم من أن تشي يو قُتل في المعركة، إلا أنه نال شهرةً بسبب مهارته في صنع الأسلحة.،وفي تلك الفترة، حقّقت أسلحةٌ مثل الفؤوس، والخناجر، والرماح، والمطارد، ورماح المشاة، ورماح العربات، وغير ذلك من الأسلحة، شهرةً كبيرة له، واعتبره الناس أب كل الأسلحة.

كانت الحياة في تلك الفترة كفاحاً شرساً لا يضمن البقاء إلا لأكثر الأشخاص لياقة وقوة جسدية، وهكذا أصبحت الووشو حاجةً ماسة وضرورية لبقاء الأمة، واعتُبرت ذات أهمية كبيرة. وقد جرت العادة منذ ذلك الحين أن يُلقى الذين قُتلوا نتيجة جبنهم في المعركة في قبورٍ كعقوبةٍ لهم. لكن، وفي مقابل ذلك، تلقى أبناء الذين حاربوا في المعركة حتى الموت، وأقاربهم، اهتماماً كبيراً وامتيازاتٍ خاصة.



أما الذين أظهروا الجبن في المعركة فلم يُسمح لهم بحضور المناسبات الهامة، مثل التدريبات على الووشو. يمكننا الاستنتاج من كل ذلك أن الناس كانوا يغدقون الثناء الكبير على أولئك الذين أظهروا شجاعة وقوة كبيرتين خلال المعارك.

نشأت الووشو، والنشاطات العسكرية الأخرى (الووشو القتالية) من المصدر ذاته، وكان الهدف منهما البقاء والاستعداد للحرب. أما من الناحية الزمنية، فيمكننا القول إن الووشو ظهرت قبل الفنون القتالية التي تخدم أهدافاً عسكرية. حارب الرجال في المراحل الأولى من أجل حماية نتاج تعبهم. ولكنّ ظهور الملكية الخاصة تبعته بداية المجتمع الطبقي، وترافق ذلك مع شنّ الحروب والقتال بين العشائر والقبائل، وذلك سعياً وراء الحصول على وسائل الإنتاج.

تحسّنت الإنتاجية كثيراً مع تقسيمٍ إضافي للعمل، وكانت النتيجة أن جماعات المصالح توسّعت بشكلٍ مستمر، وذلك مع تركيز السلطة في البلاد. لكن النزاعات بين تلك الجماعات تطورت تدريجياً من نزاعات بين الجماعات الصغيرة، لتصبح معارك بين الجماعات الكبيرة. وهكذا، ظهرت الجيوش المتأهبة دوماً لخوض المعارك العسكرية. لكن الووشو التي ترتكز على مواجهة شخصٍ لشخصٍ آخر لم تختفِ من الوجود بسبب ظهور الجيوش المتخصصة بالقتال. وشهدت الووشو خلال حقبة الأسلحة اليدوية المعدنية تطوراً سريعاً مع تقدّم الووشو العسكرية. لكن بالرغم من كل ذلك، بقيت المهارات القتالية الفردية العامل الحاسم في المعارك التي نشبت بين الجماعات. غير أننا نجد في المقابل أن حالة عدم الاستقرار الاجتماعي أرغمت الناس العاديين على ممارسة الووشو بهدف الدفاع عن النفس؛ وهو الأمر الذي سهّل عملية تطوير مهارات الووشو وتبادلها. لكن، بالرغم من أن الطبقات الحاكمة للسلالات التي تعاقبت على حكم البلاد حاولت منع الناس من مزاولة الووشو، إلا أن تلك المحاولات لم تُفلح إلا قليلاً. وبالرغم من تعدّد صدور مراسيم منع تشكيل اتحادات ممارسة الووشو بين الناس العاديين، إلا أن ذلك لم يمنع ظهور اتحاد نظام الووشو على نطاقٍ واسع، والذي ضمّ ما يزيد عن 100 فرقة من الووشو من تلك التي كانت تمارس على مختلف الأنظمة المنهجية والمتكاملة ذات الأساليب الفريدة، وعلى مبادئ الملاكمة المتميزة؛ وهي أنظمة انتشرت إلى حدٍّ كبير خلال فترتي حكم سلالتَي مينغ وجينغ.



الصورة 1-5 معركة ياشي كول

يُظهر هذا الرسم منطقة في منتصف القرن الثامن عشر. استخدم جيش جينغ تكتيكات الأسلحة اليدوية المعدنية، بالإضافة إلى الأسلحة النارية، وذلك خلال الحرب التي هدفت إلى إخماد التمرد الذي قام به اثنان من قادة طائفة الطاجيك المسلمين في شيجيانغ؛ وهما برهان الدين وحجاج هان. ويظهر في هذا الرسم جيش جينغ فوق الضفة اليمنى للنهر عند قيامه بقصف جيش عدوّه المتمركز في الضفة المقابلة بالمدافع. كان الفريقان يطلقان النار على بعضهما بعضاً فوق النهر. وبالنتيجة، تمكّن جيش جينغ من القضاء على جيش العدو بسبب تفوقه في سلاح المدفعية.

لكن مع ظهور أعدادٍ كبيرة من الأسلحة النارية بعد القرن التاسع عشر، وصلت حقبة الأسلحة اليدوية المعدنية إلى نهايتها (الصورة 1-5). أمرت حكومة جينغ في عام 1895، يوان شيكاي بتشكيل قواتٍ برية في مدينة تيان جين الواقعة في مقاطعة شاوزان. استُبدلت البنادق والمدافع بالأسلحة قديمة الطراز أخيراً. ولكن الوظيفة العسكرية للووشو القديمة ضعُفت كثيراً مع ذلك التطور، وهكذا انفصلت الووشو العسكرية عن الأنشطة العسكرية الحديثة. أما في العام 1901 (أي في السنة السابعة والعشرين من حكم الإمبراطور كوانغ جو) فقد صدر مرسوم يقضي

بإلغاء نظام الاختبارات العسكرية الإمبراطورية التي تستند على الووشو، ومهارات استخدام الأسلحة اليدوية.

وهكذا، يمكننا القول إن تاريخ تطور الووشو تداخل مع تطوير الأساليب العسكرية بدءاً من تكوينها، وتداخلها، وتطويرها، وفصلها. لكن، إذا لاحظنا تاريخ الحضارة الصينية ودرسناه من منظور العلاقة بين الووشو والأنشطة العسكرية، فلن نعثر فقط على المسار الكامل الذي أنتجَت فيه الحروب التي جرت في فترة مجتمعات القبائل دولة متحدة، والتي انطلقت في طريق التطوّر العسكري، بل بإمكاننا كذلك استكشاف القوانين التي تحكم تطور تاريخ الووشو منذ انطلاقتها؛ من المهارات القتالية الأساسية في العصور القديمة البعيدة، وحتى الووشو الحديثة.

| القلم مقابل السيف

انتهت تلك الأيام التي عاش فيها الناس حياة التوحش، وبدأ فجر المدنية البهيج. يمكننا تشبيه المدنية والبربرية مثل وجهَين لقطعة معدنية يتنافسان ضد بعضهما بعضاً، ولكن يستحيل فصلهما. ويعني ذلك أن أكثر التقنيات تقدماً هي تلك التي تُستخدم في الحروب. وقد لعبت الووشو - بوصفها وسيلة البقاء لأجدادنا الصينيين - دوراً حاسماً في المراحل الأولى للحضارة الصينية.

إعلاء شأن السيف، والتقليل من شأن القلم

لم تكن فترة حروب الربيع والخريف التي امتدت بين عامَي *770* وحتى *221* قبل الميلاد، الفترة الانتقالية من مجتمع العبيد إلى المجتمع الإقطاعي فقط، بل كانت ذروة الووشو كذلك. غير أنّ السجلات التاريخية أوردت أنه خلال 259 عاماً فصلت بين عامَي 722 و 464 قبل الميلاد، كانت هناك 38 سنة فقط خالية من الحروب. وقد تعرّض 36 ملكاً للقتل في هذه الفترة، بينما تعرض 52 ملكاً آخر للنفي خلال فترة الربيع والخريف. وقد راج هذا الواقع الاجتماعي بين الفرسان وعدد من المحاربين الأشداء الذين تفوّقوا في الووشو. أما يانغ يوجي (الصورة 1-6)، وجي شانغ فكانا أبرز مثالَين على ذلك. كان يانغ يوجي ماهراً جداً في الرماية، وكان يرمي بدقةٍ عالية، حيث ذاعت شهرته في أنحاء البلاد. وأراد جي شانغ أن يصبح رامياً ماهراً، فاتبع نصيحة فاي واي، واستمرّ في مراقبة عمل زوجته على نول النسيج الذي لم يكف عن الحركة جيئة وذهاباً؛ بالرغم من معاناته من وخزات الإبر، وذلك من دون أن يرمش له جفن. استمرّ جي شانغ في التمرّن على الرماية، حيث تمكّن أخيراً من تحقيق حلمه ليصبح رامياً ممتازاً. تمكّن جي شانغ أخيراً من التصويب على حشرة كانت جاثمة فوق النافذة بواسطة قوسه المزيّن بقرن ثور، وسهامٍ مصنوعة من الخيزران، وهكذا تمكّن السهم من اختراق قلب الحشرة.

امتلك المحاربون بوصفهم مجموعة اجتماعية خاصة إرادةً قوية، وكانوا يلتزمون بقواعدهم بشدة، مع استعدادهم للتضحية بحياتهم في سبيل المعتقدات التي يؤمنون بها. وكانت البنية الجسدية القوية، والإنجازات العسكرية الباهرة





الصورة 1-6 يوجي أثناء رمايته على القرود (بريشة وو يورو من سلالة جينغ)

بينما كان في رحلة صيد قصيرة، رأى أمير تشو في فترة الدول المتحاربة قرداً بإمكانه التقاط السهام المتطايرة نحوه. صُدم الأمير عندما رأى أن القرد تمكن من التقاط السهام الثلاثة التي أطلقها، فأرسل خادمه لاستدعاء يانغ يوجي الذي اشتُهر بأنه الجنرال الماهر في الرماية. وحين جاء هذا الأخير، أمره أمير تشو بالرماية على القرد، وكان الجنرال قد سبق له أن تعهد بعدم الرماية، غير أنه لم يجد بدّاً من إطاعة الأمر. لكن، في اللحظة التي رفع فيها يانغ يوجي قوسه استعداداً للرمي، انهمرت الدموع من عينَي القرد، وكأنه عرف أنه سيكون من الصعب عليه حماية نفسه. وهكذا، وقع القرد صريعاً كما كان متوقعاً بسبب سهم واحدٍ أطلقه يانغ يوجي.

العاملَين الحاسمين في المواجهات الفاصلة بين الموت والحياة للمتحاربين. وفي تلك الفترة، كان الناس يقدّرون الشجاعة والقوة البدنية لهذا السبب. لكن الحروب الطويلة التي بدت بلا نهاية، أوقعت الناس في هاوية الفقر من دون أي وسيلة تؤمن لهم معيشتهم. وهكذا، بدأ بعض العقلاء في إطلاق إجراءاتٍ تهدف إلى إنهاء الحرب عن طريق الإصلاح الاجتماعي. وكانت نتيجة ذلك ظهور مدارس فكرية متعددة، ومن أبرزها الكونفوشيوسية، والقانونية، والطاوية، والموهية، وغيرها (الصورة 1-7)؛ وهي المدارس التي أثارت جدلاً كبيراً في ما بينها، وكذلك بين المفكرين الذين كتبوا دراسات، وألقوا محاضرات للترويج لآرائهم. وقد أسهم هذا الوضع الذي أُطلق عليه بعد ذلك «التعارض بين المدارس الفكرية المتعددة» في ازدهار الحقول الفكرية والأكاديمية، وذلك للمرة الأولى في التاريخ الصيني. لكن كل هذه «المدارس المتعارضة» اتفقت على هدفٍ مشترك؛ وهو إنهاء حالة الفوضى التي سبّبتها الحرب التي استمرت لوقتٍ طويل، والتي بالغت كثيراً في التركيز على القوة.

سأورد هنا قصة تعكس بوضوح حياة المحاربين في تلك الفترة.

تواجد أثناء فترة حكم الأمير جينغ من دولة تشي ثلاثة رجالٍ اشتُهروا

بالشجاعة، وهم كونغ سن جيَ، وتيان كاي جيانغ، وكو يزي. تمكّن الرجال الثلاثة من تحقيق إنجازاتٍ عسكرية لامعة في الحروب التي خاضوها من أجل دولتهم، بفضل مهاراتهم القتالية الممتازة. وقد ارتبط الفرسان الثلاثة مع بعضهم بعضاً بأذواقهم المشتركة قبل أن يقسموا على أن يظلّوا إخوة إلى الأبد. اعتمد الفرسان على سجّل جدارتهم، لكن غرورهم أوصلهم إلى حد إظهارهم ازدراءهم ليان زي الذي كان رئيس وزراء دولة تشي. وهكذا، بدأ يان زي بالتفكير في طريقةٍ للتخلص منهم.



الصورة 1-7 مو تسي

مو تسي (468-376 قبل الميلاد) فيلسوف من بدايات فترة الدول المتحاربة، ويُعرف كذلك بالمعلم، والعالِم، والمؤمن بالروح العسكرية. أسّس تسي مدرسة الموهية. وقد قام أتباعه من المدرسة الموهية بجمع أفكاره الفلسفية في كتاب أطلقوا عليه عنوان كتاب موتسي الذي يُعتبر مرجعاً غنياً يصلح للتأمل في تاريخ السلالات الصينية القديمة وثقافتها؛ بما في ذلك الشؤون السياسية، والعسكرية، والفلسفية، والتقنية، وغير ذلك. يُعتبر الكتاب أيضاً عملاً كلاسيكياً عن التكتيكات الدفاعية الصينية القديمة.

قال يان زي للإخوة الثلاثة بعد أن أشار إلى ثمرتَي خوخ كان قد وضعهما للترحيب بالأمير تشاو من لو: «يرغب جلالته في منح ثمرتَي الخوخ هاتين لكم أنتم الثلاثة، وذلك حسب قيمة ما قدّمتموه إلى الدولة». أسرع كونغ سن جيَ المعروف بسرعة غضبه بتناول إحدى الثمرتين؛ وذلك بعد أن عدّد خدماته الجليلة والجديرة بالتقدير. ولم يتأخر تيان كاي جيانغ بعد ذلك عن تعداد إسهاماته، ثم تناول الثمرة الباقية. عندها، غضب كو يِزي لما رآه، وقال: «قتلتُ ذات مرةً سلحفاةً ضخمة، وأنقذتُ جلالته من الغرق. أيمكنكما القول إن مأثرتي هذه أقل قيمة من إنجازاتكما؟!» فأدرك كونغ سن جيَ، وتيان كاي جيانغ مدى الخطأ الذي ارتكباه، واعترفا بأن ما قاما به لا يقارن أبداً بإنجازات كو يزي. أدرك الرجلان أن تناولهما ثمرتَي الخوخ كان دليلاً على طمعهما الذي لا يشبع، فقالا: «لن نوصف بالشجاعة إذا لم نمُت». اعتبر الفارسان أنهما فشلا في أن يكونا صديقين حقيقيين لكو يزي، وشعرا بالخجل من نفسيهما، وما لبثا أن سحبا سيفيهما من غمديهما وأقدما على الإنتحار. شعر كو يزي بالصدمة لرؤيته ذلك الموت الفوري لأخويه، فشق عنقه فوراً.



أدّت ثمرتا خوخ إلى مقتل ثلاثة محاربين أشدّاء بلمحة بصر. كانت هذه قصةً معروفة جداً بعنوان «ثمرتا خوخ قتلتا ثلاثة رجال». اعتبر بعض الناس أن يان زي كان واسع الحيلة، حيث تمكّن من التخلّص من ثلاثة رجال شجعان من دون توجيه ضربة واحدة، وأن الفرسان الثلاثة لقوا مصرعهم بسبب غرورهم وحبّهم للسيطرة، وبسبب جهلهم مبادئ المجاملة، وتهوّرهم. لكن أشخاصاً آخرين نظروا إلى الأمر من وجهة نظر معاكسة. رثا الشاعر الشهير لي باي الذي عاش في فترة حكم سلالة تانغ الفرسان الثلاثة في قصيدته أغنية في ليانغ فو «شجعان مثلما حرّك المحاربون الثلاثة جبل نانشان، وهم الذين أوقعهم وزير دولة تشي في مصيدته حتى الموت بثمرتَي خوخ فقط». شكّلت القصيدة نوعاً من هجاء الطبيعة الشرير والقاسي لرئيس الوزراء يان زي. يشعر عددٌ كبير من الناس إلى يومنا هذا بإعجابٍ كبير إزاء استقامة المحاربين الثلاثة، وسعة تفكيرهم، وشجاعتهم التي سمحت لهم بالوفاء بعهودهم؛ وهم الذين كانوا على استعداد للموت بشرف، والذين اعتبروا أن الاستقامة والشجاعة والشرف أكثر أهمية من بقائهم على قيد الحياة. يبقى أن الآراء المختلفة تعكس القيَم المختلفة. وتستحق التعارضات المدهشة هذه أن نتأمّل فيها قليلاً.

يتعيّن علينا هنا أن نتوقف قليلاً لتقديم شرحٍ عن طبقة الفرسان (وهم جماعة من المفكرين والرسميين الذين تمتعوا بنفوذٍ وامتيازات خلال فترات حكم سلالات الهان الشرقية، وواي، وجِن، والسلالتَين الشمالية والجنوبية). نشأت طبقة الفرسان في الأزمنة القديمة من عامة الشعب، وكانت تمارس الفلاحة، وإزالة الأعشاب الضارة في أوقات السلم، وتشارك في ميادين المعارك عند نشوب الحرب. لكن مع تحسّن وسائل الإنتاج، وتقسيم الوظائف، توقف الذين يمتلكون قوة بدنية هائلة، والذين يمارسون الووشو عن فلاحة الأرض، إلا أنهم تحولوا إلى محاربين (الصورة 1-8)، وهكذا أصبحوا في مركزٍ اجتماعيٍّ أعلى من الناس العاديين.

خلال فترة الربيع والخريف، ومع فقدان الإمبراطور نفوذه وسيطرته، سعت كل ولاية إلى السيطرة، وهكذا بدأت طبقة الفرسان في الانقسام مجدداً إلى اختصاصات وتقسيماتٍ أخرى. وقد أدى تفكّك النظام الاجتماعي القديم إلى كسر احتكار الأرستقراطيين للمعرفة، وإلى فتح الفرص أمام المتعلمين للنهوض بين



الصورة 1-8 تمثال المحارب المصنوع من الجاد الأبيض

يعود هذا التمثال إلى فترة الدول المتحاربة. ويبدو هذا المحارب طويلاً وبديناً، لكنّ ملامحه تبدو رزينة وحازمة وثابتة، وتدل على الاستقامة والقدرة على التحمّل والهدوء، وكذلك على شيء من الشجاعة وعدم التكلّف. ينتظر هذا المحارب الأوامر بكل احترام وتواضعٍ وإخلاص. يقدّم لنا هذا التمثال صورة المحارب المخلص والملتزم بواجبه.

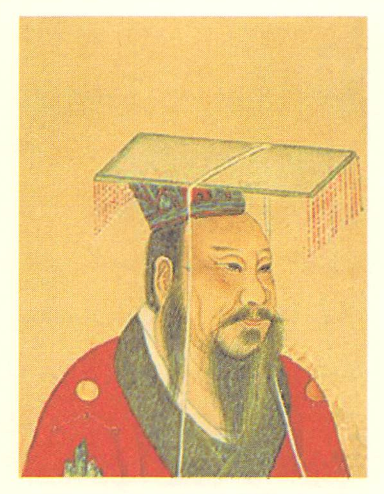
عامة الشعب. وسمح هذا الأمر للفرسان بالانتقال إلى الطبقة العليا عندما اعتمدوا على أقلامهم، وقدّموا المشورة إلى الطبقة الحاكمة.

كانت السلطة الإمبراطورية رمزاً لقوة الدولة، وهكذا اعتمد الدفاع عن هذه السلطة الإمبراطورية على القوات المسلحة التي كانت تخضع لإمرة الضباط العسكريين. لكن، إذا امتلك الضباط العسكريون صلاحيات أكثر من اللازم، فسوف يشكّلون تهديداً للسلطة الإمبراطورية. وكان ذلك هو السبب الذي جعل اعتماد الإمبراطور على المسؤولين المدنيين حاجةً ملحة. وكان المسؤولون المدنيون يعتمدون كلياً على السلطة الإمبراطورية، غير أنهم كانوا ضعفاء من الناحية البدنية، أي كانوا أضعف من أن يشكلوا خطراً يوازن قوة الضباط العسكريين. يعني ذلك أنه ما إن يصبح القلم والسيف في قبضة مسؤول واحد حتى تصبح السلطة الإمبراطورية في خطرٍ كبير وداهم. ويوحي هذا الوضع - ولهذا السبب - بأنه يتعين فصل القلم عن السيف. لكن في فترة الاستقرار الاجتماعي، أصبحت سياسة الدولة الأساسية للطبقة الحاكمة هي تعزيز سلطة القلم للسيطرة على السيف.

إعلاء شأن القلم وخفض شأن السيف

لم تصل الطبقة الحاكمة إلى قناعة مفادها أن «إعلاء شأن القلم، وخفض شأن السيف» أمر يسهّل عملية حكم البلاد إلا بعد معاناة عظيمة. وقد تبنّت الطبقة الحاكمة بعد استيلائها على السلطة، وتأسيسها نظَام حكمٍ عن طريق الصراع المسلّح، سياسة الحكم بقوة السيف، لكن هذه الطبقة تعلّمت في هذا السياق منافع حكم البلاد بسلطة القلم.

أمر تشين شي هوانغ (أول إمبراطور في سلالة تشين) (الصورة 1-9) بعد أن قهر الدول الست، وأنشأ بلداً متحداً بالقوة، بمصادرة كل الأسلحة، ومنع المواطنين من ممارسة الووشو؛ وذلك من أجل حماية نظام حكمه. وقد أوردت السجلات التاريخية: سيرة حياة أول إمبراطور في مملكة تشين، أن تشين شي هوانغ صادر كل الأسلحة، وجمعها في شيان يانغ، ثم صنع منها جرساً ضخماً، بالإضافة إلى 12 تمثالاً معدنياً يزن كل واحدٍ منها نحو 30,000 كيلوغرام، ثمّ وضعها في قصره. لقّب تشينغ شي هوانغ نفسه بالإمبراطور الأول، وكان يحلم بإبقاء الحكم في يد أسرته إلى الأبد، واشترط أن يدعى خلفاؤه الإمبراطور الثاني، والإمبراطور الثالث، وهكذا دواليك حتى النهاية. لكن إمبراطورية تشين سقطت خلال حكم الإمبراطور الثاني. وقضت تلك الإمبراطورية العظيمة باكراً في مهدها بعد سنوات قليلة من تأسيسها. لكن، ما السبب الذي كان وراء سقوطها؟ كان أهم العوامل وراء ذلك السقوط هو فرض الحكم الاستبدادي للقانون عن طريق نظام القانونية [فرض القانون]، وهو النظام الذي يدعو إلى حكم البلاد من خلال فرض قانون استبدادي



الصورة 1-9 رسم يمثّل تشين شي هوانغ

ينغ تشنغ (259-210) هو إمبراطور سلالة تشين، وهو الذي اشتُهر بأنه أعظم سياسي واستراتيجي ومصلحٍ وعسكري في الصين. تمكن ينغ من توحيد الصين للمرة الأولى في تاريخها، وهو الأمر الذي لم يقتصر على تأثيره الكبير على تاريخها بعد ذلك، وعلى العالم ككل، بل تعداه إلى إرساء الأساس الأولى للنظام السياسي الذي صمد لما يزيد عن ألفَي سنة في تاريخ الصين. اعتُبر ينغ «إمبراطور كل الأجيال».



الصورة 1-10 إحراق الكتب التي اعتُبرت معادية لقوانين الدولة، ودفن التلامذة الكونفوشيوسيين وهم أحياء.

خلال السنة الرابعة والثلاثين من حكم الإمبراطور الأول في سلالة تشين (213 ق.م)، تبنّى هذا الإمبراطور اقتراحاً قدّمه له لي سي، ويقضي بإحراق كل الكتب المعادية لقوانين إمبراطورية تشين؛ باستثناء كتاب سجلات تشين. وقد أمر الإمبراطور إضافةً إلى ذلك بتسليم كل النسخ من كتاب الأغاني، وكتاب التاريخ، وغيرها من الكتب التي يمتلكها الأفراد؛ وهي الكتب الرئيسة التي كتبها كونفوشيوس، وذلك بهدف إحراقها. أطلق على هذا الإجراء اسم «إحراق الكتب المعادية لقوانين الدولة». سمع الإمبراطور في السنة التالية بأن اثنين من تلامذة كونفوشيوس أقدما على السخرية منه، فغضب غضباً شديداً، لدرجة أنه أمر كبير المراقبين بالتحقيق في الأمر. وقد أسفر التحقيق عن إدانة ما يزيد عن 460 من طلاب كونفوشيوس في هذه القضية، وكانت النتيجة أنهم دُفنوا أحياء. أطلق على هذه الحادثة البشعة اسم «دفن تلامذة كونفوشيوس وهم أحياء».

قمعي وشمولي. وكان من نتائج فرض هذا القانون، «حرق جميع الكتب المعادية لقوانين الدولة، ودفن التلامذة الكونفوشيوسيين وهم أحياء» (الصورة 1-10)، وهو القانون الذي قدّمه لي سي الذي كان رئيس الوزراء في دولة تشين.

لكن الواقع هو أن ما فعله معظم التلامذة الكونفوشيوسيين لم يتجاوز «المعارك الكلامية» التي يُمكن تجاوزها بسهولة. وقد قيل عند ذلك إن «التلامذة الذين نجحوا في اجتياز الامتحان الإمبراطوري على مستوى المقاطعة مصيرهم الفشل؛ حتى لو استمر تمرّدهم ثلاث سنوات». لكن تشين شي هوانغ، وبعد أن اتّبع نصيحة لي سي، اعتبر أن أولئك الطلاب «استخدموا الماضي من أجل الحطّ من قدر الحاضر، وإرباك عقول الناس وتسميمها». يُضاف إلى كل ذلك أن اثنين من الخيميائيين قاما بالغش في عملهما، والافتراء على تشين شي هوانغ. وقد أسفر هذا الأمر عن دفن ما يزيد عن 460 طالباً وخيميائياً من طلاب كونفوشيوس وهم أحياء في شان يان. في هذه الحالة، يمكننا القول إن سياسة «التقليل من شأن السيف، والحكم بالقلم» قد فشلت في النهاية في تخليص سلالة تشين من مصيرها المحتوم.



الصورة 1-11 إمبراطور جاو زو من سلالة هان أثناء تقديمه الأضاحي لكونفوشيوس

انتهى العمل بهذه اللوحة الملوّنة خلال حكم شينغ وا، وهو من سلالة مينغ، وتتواجد حالياً في معبد كونفوشيوس الواقع في تشو فو. لكننا لا نعرف صاحب هذا الرسم، ولا السنة التي رُسم فيها. تمثّل هذه اللوحة ليو بانغ، وهو إمبراطور جاو زو من سلالة هان عندما أتى إلى تشو فو لتقديم الأضاحي إلى كونفوشيوس هناك.

أما ليو بانغ، وكان إمبراطور جاو زو من سلالة هان، فقد هزم شانغ يو، ووحّد الصين وأسّس سلالة هان. تخلى ليو بانغ تماماً عن الرؤية السياسية التي اعتمدها النظام السابق، كما تبع استراتيجية شياو هي وتشانغ ليانغ - الوزيرين القديرين - المتعلقة بتسهيل عملية إعادة بناء البلاد، والتي كانت حاجةً ماسةً، ومساعدة الشعب الذي ابتلي بالحرب الأهلية والفوضى، كما نجح في إعادة قوة البلاد. التزم الإمبراطور كذلك بحكم البلاد عن طريق جعل الشعب متمدناً بواسطة التعليم، كما وضع تلاميذ كونفوشيوس في مراكز هامة، وهكذا أصبح أول إمبراطور في تاريخ الصين يقدّم الأضاحي لكونفوشيوس، وهو الذي سمح لسلالة هان، والسلالات التي

أتت بعدها، بحكم البلاد على ضوء مبادئ الكونفوشيوسية (الصورة 1-11). لكن قبل أن يتسلّم الإمبراطور وو زمام الحكم في سلالة هان، كانت الاستراتيجية التي تبنّاها الحكام تتوافق مع نظريات هوانغ دي (الإمبراطور الأصفر) ولاو تسي، أي «الحكم عن طريق عدم القيام بأي شيء ضد الطبيعة»، و«لا تقدّر الجديرين خشية أن يتنافس الناس مع بعضهم بعضاً». لكن الإمبراطور، وبالرغم من كل ذلك، اتّبع نصيحة دونغ جونغ شو الفيلسوف والمفكر الشهير، القائلة بوجوب «إعطاء الكونفوشيوسية المقام الأعلى بوصفها العقيدة القومية، ومنع مدارس الفكر الأخرى».

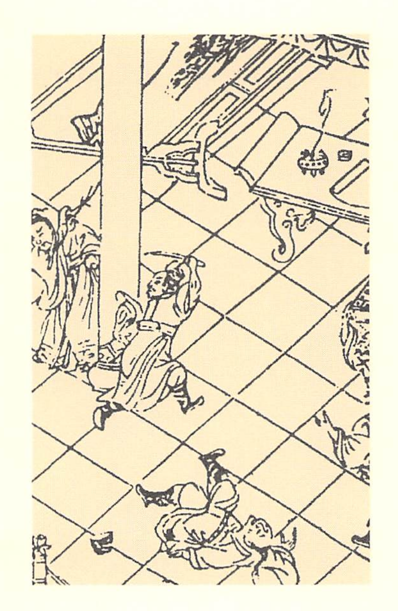
أخذت إدارة البلاد منذ ذلك الحين منحى الإمساك بالسلطة في الدولة عن طريق القوات المسلحة، وحكم البلاد على ضوء أفكار كونفوشيوس؛ وهو الأمر الذي يُظهر توزيع السلطة ما بين القلم والسيف. كانت الطبقة الحاكمة على علمٍ تام بأنه «رغم أن البلاد كبيرة بما يكفي، إلا أنها في حال تواجدها في وضع حرب فسوف تكون معرضة لخطرٍ شديد. ومع أنه بإمكانها الاستمتاع بأوقات السلام، إلا أنها سوف تكون محكومة بالفشل إذا لم تتخذ الاستعدادات للحرب كافة». لم يجرؤ الحكام على إلغاء القدرات العسكرية للبلاد، ولذلك اضطروا إلى «كبح السيف عن طريق التقليل من شأن السيف»، أي بدلاً من الحكم بالقلم.

الووشو تساعد البلاد على الازدهار

كان شعار «إعلاء شأن القلم وخفض شأن السيف»، مجرّد واجهة سطحية قدّمها الحكّام للناس العاديين. لكن الواقع هو أن معظم الأباطرة أبقوا على تركيزهم على الووشو.

كانت مهارات الووشو هي العنصر الأساسي للدفاع عن النفس في حقبة الأسلحة اليدوية المعدنية، كما أن معظم الحكام تمتّعوا بمهارة ممتازة في ميادين المعارك. وكان الأباطرة المؤسّسون على وجه الخصوص ذوي مهارة ممتازة في الووشو، أو الفنون القتالية. على سبيل المثال، ركّز شانغ تانغ وهو الإمبراطور المؤسّس لسلالة شانغ على الووشو. «حمل بنفسه فأساً لمحاربة كون وو، ثم الإمبراطور جاي» وقال: «إنني ماهرٌ في الووشو، ولذلك أُدعى إمبراطور وو».

توجد قصة شهيرة تدعى «الإمبراطور والقاتل» (الصورة 1-12). وتروي القصة أن تشين شي هوانغ لاحقَ جينغ كاي وهو قاتلٌ محترف. لكن الإمبراطور تجنّب القاتل عندما ركض حول أحد الأعمدة، وقطع إحدى ساقي القاتل الذي ما لبث أن لفظ أنفاسه الأخيرة. أما في فترة الممالك الثلاث (220-280 بعد الميلاد)، فإن تساو تساو إمبراطور وو من مملكة واي، «قتل عشرات الأشخاص بسيفه الخاص، بينما فرّ الباقون». عُرفت سلالة سونغ بأنها، «تقدّر القلم، وتخفض شأن السيف» بشكلٍ استثنائي. وكان تشاو كوانغ يين، الإمبراطور المؤسس لدولة تاي زو من سلالة سونغ (960-1279 بعد الميلاد)، ماهراً في الووشو وشجاعاً بشكلٍ استثنائي. لكن، قبل أن يبدأ حملته المسلحة، خاض معركة واحدة ضد عدد من الجنرالات



الصورة 1-12 الإمبراطور والقاتل

رسمٌ مأخوذٌ من المجموعة الجديدة لقصص دول تشاو الشرقية، وهي طبعة بالخط العريض تروي قصة جينغ كاي أثناء محاولته اغتيال أول إمبراطور في سلالة تشين.

العظماء؛ وهو الأمر الذي أكسبه سمعة مذهلة، وجعله الجنرال الأبرز بين موظفي القصر، أو «الحارس الإمبراطوري» لما أصبح بعد ذلك تشاو (951-960 بعد الميلاد)، وهي واحدة من السلالات الخمس. تقول الأسطورة إن الإمبراطور تاي زو من سلالة سونغ أسّس «ملاكمة تاي زو الطويلة»، وهي التي كانت واحدة من أرفع مدارس الووشو.

إعادة الحيوية إلى البلاد بواسطة الووشو

إذا أمعن المرء النظر في مراحل صعود السلالات الماضية وهبوطها، فلعله سيلاحظ أن البلاد ستكون قوية ومزدهرة إذا بُذلت جهودٌ متوازنة في مجال الإدارة المدنية، ومجال القوة العسكرية. لكن على العكس من ذلك، ستكون الدولة والشعب في حالة ضعف، وذلك إذا اقتصرت سياسة الدولة على «إلغاء القوة العسكرية، وإعلاء شأن القلم».

تدين القوة العظيمة التي تمتعت بها دول تشين بالفضل إلى حزم ملوكها وحرصهم على التفوق في امتلاك القدرات والقوى العسكرية. وقد ظهر في دولة تشين عددٌ من الجنرالات الواحد بعد الآخر، وهو الأمر الذي أدى إلى إرساء أساسٍ قوي مكّن دولة تشين من توحيد الصين. وكان من بين أشهر أولئك الجنرالات باي تشي. كان الرجل ماهراً في تقييم وضع جيشه وجيش العدو، وكذلك في تبنّيه الاستراتيجية والتكتيكات الصحيحة التي مكّنته من شنّ هجمات ضد العدو. حرص باي تشي كذلك على القضاء على جنود جيش عدوه قضاءً تاماً. وتمكّن باي تشي، على سبيل المثال، من قتل 240,000 جندي من جنود هان واي المتحالفين في معركة ياك. فقد قاد باي تشي جيشه للاستيلاء على عاصمة تشو، وتمكّن من ذلك بعد ثلاث هجمات، ثم أحرق معبد أسلاف أباطرة تشو، وقتل 350,000 جندي. أما في الحروب التي شنّها ضد دولة تشاو ودولة هان، فقد تمكّن من القضاء على 600,000 جندي في البداية، ثم أتبع ذلك بالقضاء على 300,000 جندي آخر. يعني ذلك أن باي تشي تمكّن من القضاء على 1.65 مليون جندي من جنود الدول الست. (الصورة 1-13)

لكن، بينما كانت دول السهول الوسطى منشغلة جداً في محاربة بعضها بعضاً، حيث عجزت عن حماية القبائل الشمالية، انتهزت قبائل الهون الفرصة لشنّ عدوان



الصورة 1-13 محاربو الطين

بعد تمكّنها من توحيد الصين للمرة الأولى في التاريخ الصيني، زعمت إمبراطورية تشين أنها تمتلك مليون جندي مدرب. وتدلّنا تماثيل محاربي الطين الموجودة في منطقة ضريح تشين شي هوانغ، على أن المشاة كانوا يشكّلون القوة العسكرية الرئيسة للجيش، وأنهم كانوا يحاربون العدو عن قرب بقبضاتهم العارية.

على الجنوب، وهاجمت المناطق الحدودية لدول تشين وتشاو ويان. أرسل تشين شي هوانغ مينغ تيان لقيادة جيشٍ يضم 300,000 جندي إلى شمال البلاد. هُزمت قبائل الهون في تلك المعركة، وهكذا نعمت المنطقة الحدودية بالاستقرار. يُضاف إلى ذلك أن الإمبراطور شنّ هجوماً على باي يو الواقعة في جنوب الصين. وهكذا، تمكّن من ضم غوانغ دونغ وغوانغ زي إلى الإمبراطورية الصينية. عمد مينغ تيان، بعد تلقيه أوامر ملكية، إلى منع الهون من تنفيذ غزواتٍ أخرى باتجاه الجنوب، وذلك عن طريق جمع عددٍ كبيرٍ من العمال من أجل ترميم الجدران الطويلة وزيادة أعدادها، وهي الجدران التي شيّدتها دول يان وتشاو وتشين. يبدأ الجدار (السور) العظيم من جهة الغرب في لين تاو، وينتهي شرقاً في لياو دونغ، ويُعرف باسم سد عشرة آلاف لي (5,000 كلم) العظيم». لعب السور دوراً هاماً في تقوية منطقة الحدود الشمالية لإمبراطورية تشين. أما سبب تحوّل المملكة إلى إمبراطورية عسكرية قوية فيعود إلى عملية إعادة تنظيم الجيش التي قام بها تشين شي هوانغ، وتشجيع الروح القتالية، والتحضيرات العسكرية الحكيمة، وإلى تشييد الجدار العظيم الذي يهدف إلى حماية الإمبراطورية من قبائل الهون في الشمال. لكن، بالرغم من أن تشين شي هوانغ يصنّف على أنه طاغية، إلا أن إسهاماته الجبارة في تعزيز البلاد لا يمكن تجاهلها.

انتزع لي يوان وأولاده زمام السلطة في البلاد بعد ذلك، وأنشأ سلالة تانغ مستخدماً القوات المسلحة. كان آل لي أسرة أرستقراطية كذلك، وهي التي اشتُهرت بممارسة الووشو. أما لي يوان الذي تزوج الأميرة شيان يان، وهي الشقيقة الكبرى

للإمبراطور وو من مملكة تشاو الشمالية، فكان مشهوراً بمهارته في الرماية. في حين أن جانغ سن، وهو والد زوجة لي شيمين، فكان ماهراً في الرماية بدوره، وكان تركيك خان شيتو معجباً به بسبب العرض الذي قدّمه لمهارته في الرماية؛ أي عندما قتل طائرين من الصقور بسهمٍ واحد. كان الإمبراطور المستقبلي الشاب لي شيمين يرافق والده للقتال في الشمال والجنوب، وهكذا تأثر بما كان يراه ويسمعه على الدوام. طوّر لي شيمين مهاراته، وأصبح محارباً شجاعاً ومتهوراً. يُضاف إلى كل ذلك أن حركة التمرد الصاخبة التي قام بها الفلاحون في أواخر فترة حكم سلالة سوي *Sui*، وفّرت له فرصة لاستعراض روحيته القتالية بشكلٍ كامل. صمّم لي شيمين خلال تحضيره لحملته في جين يانغ على تكريس نفسه لإرساء روابط الصداقة مع الرجال الشجعان والأقوياء. وتمكن لي خلال حرب توحيد البلاد التي استمرت على مدى سبع سنوات من تحقيق انتصارات عديدة، وهي الانتصارات التي لم تسمح له فقط في تعزيز مركزه في الشؤون العسكرية، وإنما أرست أساساً متيناً له في عملية انتزاع السلطة. كان لي يفضّل الأقواس والسهام، لكن سهامه كانت أكبر بمرتين من حجم السهام العادية. يُضاف إلى ذلك أنه كان مدمناً على الرمي عندما يكون فوق صهوة حصانه. يظهر في ضريح تشاو لينغ الذي شيّد بعد موته نقش يمثّل ستة جيادٍ قوية. ويدلّ ذلك النقش على براعة فنية كبيرة. (الصورة 1-14)

كان لي شيمين يعلّق أهمية كبيرة على الشؤون العسكرية، وهكذا كان أحد أبرز أقواله المأثورة في تعزيز الدفاع القومي: «يعمل الجنود كمزارعين في أوقات

الصورة 1-14 الجياد الستة في ضريح شاو لين (رسمها شاو لين من سلالة جين)





السلام، ويُمكن تعبئتهم ليصبحوا قوة محاربة فعّالة في حال قيام العدو بغزو البلاد». ويُمكن بهذه الطريقة تلبية احتياجات البلاد الزراعية، وفي مجال الدفاع القومي بشكلٍ كامل. يُضاف إلى كل ذلك أنه كان يُسمح للناس العاديين باقتناء الأسلحة؛ وهو الأمر الذي كان من شأنه تقليص الإنفاق الدفاعي الذي تقوم به الدولة. عمدت سلالة تانج إلى التخلي كلياً عن الأساليب القتالية التقليدية التي كانت معتمدة أثناء حكم سلالة هان، والتي تعتمد في جوهرها على المشاة. وتعزّز في هذه الفترة دور سلاح الفرسان في مجال الدفاع عن البلاد ضد قبائل الغجر من أمثال قبائل الترك، والتوبو، والعرب، وغيرهم. وقد برهن الفرسان عن قابلية كبيرة في الحركة، وفي التحركات المفاجئة، وعن إمكانية شنّ الهجمات في سهولٍ شاسعة لحماية الحدود وحماية السلاح.

أدرك لي شيمين أن استخدام القوة العسكرية باعتبارها القوة الاحتياطية هو ما يطلق يد الإمبراطور في جعل الناس يعيشون بسلامٍ واطمئنان. وركّز لي شيمين لهذا السبب على حكم البلاد بالقلم والسيف معاً، وقد قال ذات مرة لنديمٍ له يدعى فينج دي يي: «أريدك أن تقمع كل تمردٍ بالقوة العسكرية، وأن تحافظ على إنجازات الدولة بالوسائل السلمية. أما بالنسبة إلى استخدام القلم والسيف، فإن أفضل طريقة لتحقيق ذلك هي تكييف إجراءاتنا التي نتخذها مع الأوضاع المختلفة». كان لي شيمين صاحب فكرة إدارة شؤون الدولة عن طريق اتّباع مبدأ، «تسلّم زمام السلطة في الدولة، وإدارة البلاد بالوسائل السلمية». كان هذا المبدأ وراء دخول سلالة تانغ ذروة أعظم حقبة في التاريخ الصيني.

أثنى ماو تسي تونغ على جنكيز خان بوصفه، «ابن السماء الفخور». وُلد جنكيز خان وسط أسرة متواضعة من العِرق المغولي. ومرَ جنكيز في صغره بمعاناة وصعوبة كبيرتين، لكنه ثقّف نفسه، وصار ذا شخصية حازمة ومثابرة. أما عندما كبُر في السن فقد تمرّن كثيراً على الووشو، وأصبح ماهراً فيها، واكتسب أصدقاء كُثُراً. انتقى جنكيز لنفسه الشبان المنتمين إلى عائلات النبلاء، والذين يمتلكون مهارات كبيرة في الووشو، ومن ذوي البنية الجسدية القوية، وجمعهم ليكونوا فرقة حرس تدعى «كيشيج»، وهي فرقة تعمل في أوقات السلم كفرقة حرس في خيمة الخان العسكرية، وكانت في أوقات الحرب تخوض المعارك بوصفها مقدمة الجيش،

وكانت الفرقة الرئيسة في الجيش عندما يخرج الخان للقتال بنفسه. تحولت هذه الفرقة بوصفها قوة النخبة للجيش المغولي إلى الدعامة الأساسية للإمبراطورية المغولية. تطورت تلك الإمبراطورية من مجتمع قبلي متفكّك إلى دولة امتلكت جيشاً قوياً تميّز بانضباط عسكري صارم وغير متحيز. وتمكّن جنكيز خان، والذين أتوا بعده من أحفاده، من تأسيس «الإمبراطورية المغولية العظمى»؛ وهي التي امتدت عبر قارة أوراسيا، وكانت أكبر إمبراطورية في التاريخ الصيني **(الصورة 1-15)**، وذلك من خلال الحملات المتتالية التي اتجهت شرقاً. وصلت حدود الإمبراطورية في ذلك الوقت إلى البحر في الشرق والجنوب، وشملت تايوان والجزر المجاورة لها، وشين جيانغ غرباً؛ وكذلك التيبيت واليونان في الجنوب الغربي، ومعظم أجزاء



الصورة 1-15 خارطة الأراضي التابعة للإمبراطورية المغولية العظمى.

سيبيريا في الشمال، وبحر أوتسك في الشمال الشرقي. لم يقتصر الأمر على تغيير تاريخ قومية الهان والنوجن والمناطق الغربية والقومية المغولية ذاتها، بل تعدّاه إلى تغيير تاريخ آسيا الوسطى، وآسيا الغربية، وأوروبا.

كبح السيف يعرّض البلاد للخطر

اعتاد الحكام خلال السنوات الطويلة التي سادت في المجتمع الإقطاعي على تبنّي سياسة معلنة للدولة تقوم على أساس، «تقدير القلم وكبح السيف، والحفاظ على السلم الأهلي، قبل مواجهة العدوان الخارجي». وقد التزم معظم الأباطرة المؤسّسون بالتركيز على المزايا العسكرية، وتطوير المناطق الحدودية. لكن خلفاءهم من الأباطرة أظهروا تراخياً مستمراً في هذه الناحية، حتى إن بعضهم تبنّوا سياسة الإفراط في التركيز على القلم وكبح السيف؛ وهو الأمر الذي أدّى في النهاية إلى خسارتهم تيجانهم، وتغيير السلالات الحاكمة.

كانت سلالة سونغ أفضل مَن طبّق استراتيجية تقدير القلم وكبح جماح السيف. وكان تشاو كوانغ يين - الإمبراطور المؤسّس تاي زو لسلالة سونغ - يشغل منصب المفتش العام للقصر (أرفع وكالة في الحكومة المركزية، والتي تضطلع بمهمة تأمين الحماية العسكرية للقصر والعاصمة). تمكّن تشاو بعد أن قام بما سُمِّي «حادثة شينكياو» (الصورة 1-16)، من انتزاع السلطة من يد الإمبراطور كونغ دي وهو ابن تشاو، والذي يُعرف أيضاً باسم تشاي تشونغ شون، والذي كان في السابعة من عمره فقط. أراد تشاو منع مؤيديه من الاستيلاء على سلطاته، وقد فعل ذلك عندما تمكّن من إزالة الخطر الكامن عن طريق إبعاد قيادات جيشه العليا خلال مأدبة عشاء أقامها لهم. بذل تشاو جهوده على مدى 17 عاماً لتحويل القادة العسكريين الطموحين إلى ضباط متواضعين وودودين، كما ترافق ذلك مع تغيّر المزاج العام للشعب الذي أصبح أكثر ميلاً لمبدأ «تقدير القلم وخفض قيمة السيف». وقد شهدت الإدارة المدنية في فترة حكم الإمبراطور تاي زونغ تنشيطاً بالترافق مع كبح جماح القوة العسكرية، وذلك إلى درجة أنه لم يبقَ أي أثرٍ للروح العسكرية الشرسة وصعبة المراس عند الجنود. أراد الضباط في تلك الفترة الابتعاد عن الظهور، وإبعاد المخاطر عنهم؛ وهي التي يتعرض لها «الضابط الذي يقوم



الصورة *1-16* لوحة جصّية تمثّل «حادثة شينكياو» والموجودة في شينكياو يي فينغ كوي الواقعة في مقاطعة هينان

جرت «حادثة شينكياو بتحريضٍ من تشاو كوانغ يين، الإمبراطور المؤسس لسلالة سونغ، وذلك قبل تأسيس إمبراطوريته. أثناء حكم الإمبراطور كونغ دي الذي حكم دولة تشاو اللاحقة (*960*)، قام تشاو كوانغ يين الذي كان في ذلك الوقت جنرالاً رفيع المستوى في دولة تشاو اللاحقة، بقيادة جيشه إلى خارج داليان (التي تسمى كيفينغ في هذه الأيام) بذريعة أن قبائل الهان الشمالية قد تحالفت مع دولة لياو بهدف شن هجوم يتجه جنوباً. أقدم جاو أثناء تمركزه في شينكياو (الواقعة في شمال شرق كيفينغ) وبتحريض من ضباطه على وضع رداء إمبراطوري أصفر عليه، وتُوِّج بوصفه إمبراطوراً. أدى هذا التمرد إلى القضاء على سلالة تشاو اللاحقة، وإلى تأسيس سلالة سونغ؛ وهو الأمر الذي أدى إلى تطورات لاحقة في تاريخ البلاد.

بمهماتٍ شاقة، ويحوز على أوسمة عالية، ويُعتبر لذلك خطراً على العرش».

كان من الشائع في تلك الفترة هذا القول: «يستبعد الشاب الطيّب فكرة الانضمام إلى الجيش قطعياً، مثل قطعة الحديد المزخرفة التي يجب ألا تتحول إلى مسامير». وقد حاول تشاو في بداية تتويجه بوصفه الإمبراطور تشين زونغ من سلالة سونغ، تعليق أهمية كبيرة على «تحضيرات الدفاع»، واستعراض «الشجاعة الاستثنائية» للبلاط الإمبراطوري. لكن منذ استبعاد كو تشون من منصبه بسبب قوته البدنية تطورت فكرة تقدير القلم وكبح السيف إلى احترام التلامذة الكونفوشيوسيين، والتعليم الأكاديمي، لدرجة أن كل الضباط العسكريين أزيحوا



إلى دائرة النسيان. ونتيجة لذلك، تمكن المسؤولون المدنيون والضباط العسكريون من عيش حياة بذخٍ وجشع.

وُلد الإمبراطور كو تشون ضعيف الشخصية، ولهذا تابع ممارسة سياسة إعلاء شأن القلم وكبح السيف. وقد أدّت هذه السياسة إلى زيادة تحوّل أوضاع الضباط العسكريين من سيّئ إلى أسوأ، وذلك مع استمرار التمييز الذي لحق بهم. (الصورة 1-17)

يمكننا اعتبار تجربة تشين ياوزي تجسيداً حيّاً لأخذ سياسة إعلاء شأن القلم، وخفض شأن السيف إلى ذروتها خلال حكم سلالة سونغ. ولم يكن تشين ياوزي، الذي يُعتبر التلميذ الأول، أو تشوانغ يوان (أي الرقم واحد في لائحة الشرف التي تُظهر الطالب الفائز في كل مستويات الامتحانات الإمبراطورية، والذي انتهى في المركز الأول في امتحان مقابلة القصر) متميزاً في إتقانه الأدب وتفوقه على شقيقيه فقط في السنة الثالثة من حكم شيان بينغ للإمبراطور تشن زونغ من سلالة سونغ، بل كان مغرماً جداً بالووشو. ودرّب تشن نفسه ليصبح رامياً ماهراً وقادراً على الرمي



الصورة 1-17 الضباط العسكريون في فرقة حرس الشرف في الموكب الإمبراطوري خلال حكم سلالة سونغ

يُقصد بعبارة «حرس الشرف في الموكب الإمبراطوري»، حرس الشرف في البلاط الإمبراطوري القديم. وكانت هذه الفرقة نوعاً من أنواع فرقة «الحرس البريتوري». أما في سلالة سونغ، فكان حرس الشرف في الموكب الإمبراطوري منقسمين إلى أربع فئات، وكانت الفئة الأعلى هي حرس الشرف لعربة الإمبراطور، وعلى الأخص خلال الاحتفال بأرفع طقوس تقديم الأضاحي إلى الأسياد المبجلين، أو إلى أرواح الموتى في الضواحي الإمبراطورية. يمثّل هذا الرسم حرس الشرف في الموكب الإمبراطوري. رُسمت هذه اللوحة خلال حكم سلالة سونغ الشمالية، وذلك من أجل مساعدة الضباط والجنود على تنظيم تلك الطقوس وممارستها بالطريقة الصحيحة بعد التدرّب عليها.

بدقة عالية، وهكذا اشتُهر بأنه يوجي الصغير. تمتّع تشن كذلك بالفضائل والميزات المدنية والقتالية، وكان من الممكن أن يكون شخصاً واعداً وعظيماً، لكن مهاراته في الووشو والروح القتالية التي تمتّع بها لم تؤمّن له وظيفة رسمية هامة، بل وصل الأمر إلى حد أن الرسميين المدنيين أخذوا يسخرون منه. لكن في المقابل، نرى أن شقيقيه حصلا على ترقية سريعة نتيجة لعملهما في الإدارة المدنية التي تسلمت زمام السلطة في ذلك الوقت. لم يُظهر الشقيقان كفاءةً في الشؤون العسكرية والسياسية، إلا أنهما أصبحا أبرز جنرالين في البلاط الإمبراطوري. حتى إنهما رقّيا إلى منصب رئيس الوزراء. لقيَ تشن ياو زي بسبب قوته البدنية الرفض من الإدارة المدنية الضعيفة والفاسدة، وهكذا بقي عالقاً في وظيفته الرسمية بالرغم من طموحه. لكنّ عواقب الوظيفة الرسمية للأشقاء الثلاثة المنتمين إلى عائلة تشن كانت برهاناً ساطعاً على واقع تقدير القلم وكبح السيف. يقدِّم لنا تشانغ تشي، وهو مفوض الشؤون العسكرية الذي وُلد ونشأ في كنف أسرة ضابطٍ عسكري مثالاً آخر، وهو الذي أهانه رئيس الوزراء وانغ جينغ ذات مرة بوجود والدة الملكة، ووصفه بأنه رجلٌ شجاع حافي القدمين. توحي لنا هذه الأمثلة بالكثير عن مدى الاضطهاد الذي تعرّضت له طبقة المحاربين في تلك الحقبة، والناتج عن سياسة إعلاء شأن القلم وكبح السيف، وهي السياسة التي أظهرت أسباب انحطاط سلالة سونغ.

الروح القتالية

في الحقيقة، لم تختفِ الروح القتالية في الصين، كما أن الحكام تبنّوا استراتيجية إعلاء شأن القلم وخفض شأن السيف، أي أرادوا إضعاف الناس، وتقوية السلطة الإمبراطورية، والسيطرة على التحضيرات والإجراءات العسكرية، وإبقاء امتياز التربية العسكرية محصوراً في الطبقة البرجوازية. كان ذلك تقليداً متّبعاً منذ القدم في أولى المؤسّسات التعليمية ومناهجها. وكان يانج شو هو الاسم الذي يطلق على المدرسة في الأزمنة القديمة، ويعني موقع التمرين على رماية السهام. وقد اشتملت الفنون الكلاسيكية (التقليدية) الستة في تلك الفترة، والتي كان أبناء طبقة النبلاء يدرسونها، على الرماية وقيادة العربات (الصورة 1-18). وكانت شديدة الارتباط بالشؤون العسكرية. كان كل أولئك الأساتذة في بداية عهد سلالة تشو





الصورة 1-18 قيادة العربات كما تظهر في اللوحات الجصّية

كانت قيادة العربات من بين الفنون الكلاسيكية الستة في الصين القديمة. وهي تشير إلى مهارات قيادة العربات الحربية، وعربات الرسميين في الدولة. وكان هذا الفن مهارة أساسية بالنسبة إلى الطلاب في ذلك الوقت؛ لأن أعداد الخيول والعربات كانت رمزاً لقوة الدولة. واعتبر كونفوشيوس قيادة العربات أو ركوبها مادةً هامة في تعليمه.

الغربية ضباطاً عسكريين من المستوى الرفيع، وكان لقب كل منهم «معلّم». ومنذ ذلك الحين، بدأت كلمة معلم تُطلق على الذين يدرّسون. بقي النبلاء لفترة طويلة جداً الوحيدين الذين يُسمح لهم بحمل السيوف، كما أن ممارسة الووشو كانت امتيازاً للطبقة الأرستقراطية الصينية في الأزمنة القديمة. وكان الحاكم يعلّق أهمية كبرى على ممارسة أفراد الأسرة المالكة للووشو، بما في ذلك الرماية وركوب الخيل، كما أن أماكن عدة لممارسة الووشو كانت متوافرة في القصر الملكي. وتمكّنت أقلية عرقية من تأسيس سلالة كينغ بسبب مهاراتها البالغة في ركوب الخيل والرماية، وهكذا تمكن المانشو من إثبات أنفسهم، وحكم السهول الوسطى (الصورة 1-19). أُعطي ركوب الخيل والمهارة في الرماية أهمية كبرى عند الأمراء. واعتبر الإمبراطور كانغ تسي أن مهارات الووشو شديدة الصعوبة، وهي لا تمكّن المرء من قيادة الجنود للقتال فقط، ولكنّها تساعد كذلك على تغذية الأعضاء الداخلية



الصورة 1-19 معركة كورمان

كانت تلك المعركة بمثابة الفجر لسلالة تشينغ. وتمثّل هذه اللوحة المعركة الشرسة التي جرت في كورمان بين جيش كينغ، وجنود التمرد الإسلامي تحت قيادة برهان الدين، وحجة جاهان؛ وهي المعركة التي جرت في الشهر القمري الأول من السنة الرابعة والعشرين من حكم الإمبراطور تشيان لونغ (1759). يُظهر هذا الرسم أن معظم جنود كينغ كانوا فرساناً يتمتعون بالشجاعة في استخدام الأقواس والسهام. تمكّن جيش كينغ في النهاية من القضاء على جنود برهان الدين وحجة جاهان.

للجسم، وتقوية الأوتار والعظام. وهكذا، اشترط أن يتعلم كل الأمراء مهارات ركوب الخيل والرماية بشكلٍ جيد. كان الرجال الذين تدرّبوا على الرماية عند المشاة يتلقون تعليماتٍ حول التمارين التي يقومون بها من وزراء نافذين كانوا من بين الحضور، بالإضافة إلى حرس طهارة بوابة السماء الإمبراطوري. يُروى كذلك أنه في كل مرة كان كانغ زي يذهب فيها إلى الصيد في الجبال المكسوة بالأشجار، كان



يصطحب معه بعض الأمراء، وذلك كي يتمكّن من تقييم مهاراتهم في ركوب الخيل والرماية التي تعلموها في المدارس. (الصورة 1-20)

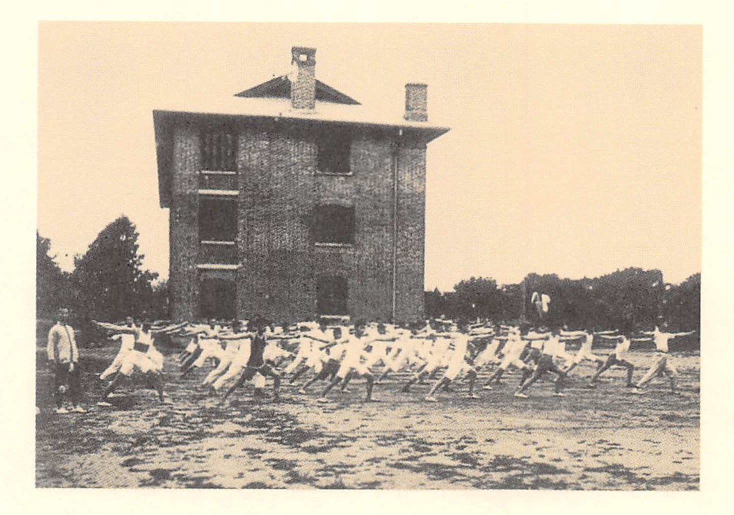
يمكننا القول اختصاراً إن الأرستقراطية الإقطاعية التي استمرت على مدى آلاف السنين تمكنت من تعزيز قيَم الاحترام والانصياع لدى الأمة الصينية. يُضاف إلى ذلك أن الروح القتالية قد تلاشت في أواخر أيام سلالة كينغ، وذلك بعد أن تعرّضت للقمع على مدى حكم سلالاتٍ متتالية.

عانت الدولة الصينية وشعبها بعد حرب الأفيون والغزوات الأجنبية من بؤسٍ لا يوصف، كما أن الصين انحدرت لتصبح دولة شبه إقطاعية وشبه استعمارية. وقد



الصورة 1-20 الإمبراطور كانغ زي في رحلة صيد

بعد أن تمكّن جيش سلالة كينغ من غزو ممر شان هاي، ثابر الإمبراطور على القيام برحلات صيد، وذلك للحفاظ على تقاليد الروح القتالية الرفيعة. درس كانغ زي بدأبٍ كبير فنون ركوب الخيل والرماية منذ نعومة أظفاره، كما ثقّف نفسه ليصبح صياداً ماهراً باستطاعته إصابة هدفه بسهمٍ واحد، وذلك سواء أكان ذلك الهدف نمراً أو دباً أو أرنباً. اعتاد الإمبراطور استخدام الأقواس والسهام في الصيد. ويُقال أيضاً إنه اصطاد ذات مرة 318 أرنباً في غضون يومٍ واحد.



الصورة 1-21 رئيس اتحاد شين وو الرياضي أثناء تدريبه الطلاب على الووشو في جامعة لينغنان

في فترة جمهورية الصين، أدخلت جامعة لينغنان الرياضات الغربية الحديثة إلى البلاد، وسمحت في الوقت نفسه للطلاب بتعلّم الفنون القتالية الصينية التقليدية. أما بعد تأسيس اتحاد شين وو الرياضي في العام 1919، فقد اعتبرت جامعة لينغنان أن الترويج للفنون القتالية أمرٌ مفيد للياقة البدنية. وهكذا وجّهت دعوة لرئيس اتحاد شين وو لتعليم الطلاب الفنون القتالية.

أراد بعض الناس في تلك الفترة - من الذين امتلكوا أفكاراً طموحة - اتباع نموذج القوى الغربية، وهكذا بدأوا في حركة التغريب، وتبنوا رؤية إعادة إنعاش الصين من خلال الإصلاح وتقوية الجيش. أما ليانغ كي تشاو الذي كان منفياً في اليابان، فقد أدرك أن الطريقة الوحيدة لإنقاذ الصين وإنعاشها هي تغيير تقاليد الناس؛ والمتمثلة بالضعف والإذعان، وإعادة هيكلة الروح القومية المِقدامة. قدّم ليانغ آراءه بحماسةٍ بالغة في كتابه حول بوشيدو الصين، وذلك بهدف إيقاظ الشعب. أما صن يات سين الذي قاد ثورة تهدف إلى قلب سلالة كينغ، فقد امتلك رؤية واضحة للخطر الذي نتج عن الضعف والإذعان الذي اعتادت عليه الأمة الصينية. نقش صن يات سين على قطعة خشب أفقية كلمتَي الروح القتالية، وذلك احتفالاً بالذكرى العاشرة لتأسيس اتحاد شين وو الرياضي. (الصورة 1-21). أما ماو تسي تونغ، مؤسّس جمهورية الصين الشعبية، فكان قلقاً جداً بشأن ضعف لياقته البدنية، ولذلك روّج بحماسة لمسألة التربية البدنية من أجل تحسين اللياقة البدنية التي تسبق التربية الروحية، وكان ذلك بالفعل مظهراً رائعاً للروح القتالية.



الفنون القتالية
الووشو الصينية

الفصل الثاني

الووشو والثقافة

الروح القتالية عند كونفوشيوس

تكثر صور الحكماء في الأعمال الأدبية الصينية. ويمكننا التعرّف على معظم أولئك الحكماء في كتاب قصص غريبة من مدرسة وحيدة (وهو عمل أدبي كلاسيكي يحتوي على مجموعة من نحو 500 قصة من تأليف بو سونغ لينغ الذي عاش أثناء حكم سلالة كينغ). عاش المؤلف حياة صارمة، وتحمّل كل أنواع قساوة الحياة البشرية. أما كونغ يي جي ذو العقلية المتزمتة والضيّقة، فقد كتب عنه لو شون. كان جميع أولئك الحكماء شاحبي الوجوه، أو وسماء، أو متأنقين، أو فقراء، أو متحذلقين، أو محبطين، أو ودودين، أو ذوي مظهر ضعيف.

يمكننا القول إنه بينما ترسّخت هذه الصور الأدبية في عقول الناس، كان كونفوشيوس (الصورة 2-1) الذي ينظر إليه أتباع الكونفوشيوسية بكل احترام على أنه قدّيس، يُعتبر كذلك شخصاً ضعيفاً من الناحية البدنية. لكن ليانغ كيشاو - وهو أحد أبرز المتخصّصين في الحضارة الصينية القديمة - كان أول من ألقى الضوء في العصر الحديث على كونفوشيوس الذي يتمتع بمهارة كبيرة في الووشو. تحدث ليانغ في كتابه حول البوشيدو (قواعد الشرف عند المحاربين) في الصين عن هذا الموضوع بهدف إيقاظ الشعب الصيني من حالة عدم الاكتراث والضعف البدني.



الصورة 2-1 رسم لكونفوشيوس

ولد كونفوشيوس الذي كان اسمه عند ولادته تشيو، واسم التحبب تشونغ ني في دولة لو. لم يكن كونفوشيوس معلماً ومفكراً عظيماً في الصين القديمة فقط، ولكنه كان مؤسس مدرسة كونفوشيوس الفلسفية. تنقّل كونفوشيوس من دولةٍ إلى أخرى لنشر عقيدته، وجمع حوله جماعةً من الأتباع لتعليمهم، وذلك كي يتمكّن حكّام المقاطعات المختلفة من تبنّي استراتيجيته التي وضعها لحكم البلاد، وعلى الأخص «سياسة الخير».

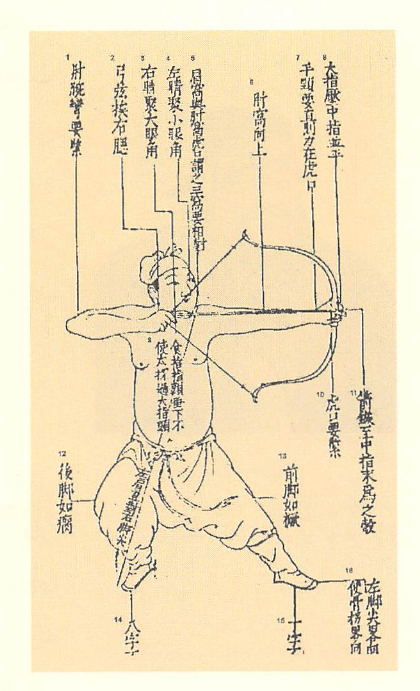
مهارة كونفوشيوس في الووشو

يمكننا العثور بسهولة على الوثائق التي تتحدث عن ممارسة كونفوشيوس للووشو. كان كونفوشيوس سليل أسرة نبيلة من سلالة شانغ. أما والده شو ليانج جي فكان محارباً شهيراً من دولة لو، وكان يتمتع ببنية جسديةٍ مذهلة، ومهارة في الشؤون القتالية، كما زاد طوله عن تسعة تشي



(وحدة طول صينية). تلقى شو ليانج ترقيةً لمنصب المسؤول الأكبر عن زو يي نظراً لانتصاراته العسكرية الكبيرة. كان جيش دولة لو أثناء معركة بي يانغ يزحف نحو المدينة عندما أُقفلت البوابة. عندها، تصرّف شو ليانج جي بسرعة، وتمكّن من رفع البوابة بساعديه إلى أن تمكّن جميع مقاتلي لو من الانسحاب. تسبّبت هذه الحادثة بصدمة جميع الدول الخاضعة لنفوذ دولة لو. ورث كونفوشيوس عن أبيه بنيته الجسدية القوية، وبلغ طوله 9.6 تشي (أي ما يزيد عن 1.9 متر) حتى إنه لقّب «بالرجل العالي». أورد كتاب حوليات الربيع والخريف للمعلم لو ما يلي: «بالرغم من أن كونفوشيوس كان باستطاعته فتح البوابة، إلا أنه تردد في السماح للآخرين بمعرفة قوته الهائلة». يتضح من ذلك أنه بالرغم من أن كونفوشيوس لم يرغب في أن يشتهر بقوته الجسدية، إلا أنه امتلك قوةً جسدية استثنائية مثل والده. يُضاف إلى ذلك أنه كان مليئاً بالبسالة والقوة، وكان يمتلك رشاقة السنجاب. أما كتاب هوايانان زي (وهو عبارة عن مجموعة من التعاليم الانتقائية التي جمعها الأمير هوايانان وآخرون من سلالة هان الغربية)، فأورد أن كونفوشيوس كان يتصف بمزيج من الحكمة والشجاعة والبراعة والقوة الهائلة.

لا يُمكن للمرء التشكيك في أن كونفوشيوس كان رجلاً يجمع بين الذكاء والشجاعة، وهو الذي كان ماهراً في كل «الفنون التقليدية الستة»، أي في الطقوس أو اللياقة، والموسيقى، والرماية (الصورة 2-2)، وركوب الخيل، والكتابة، والحساب. وهي الفنون التي كانت تستند إليها مناهج التعليم الأساسية للنبلاء في تلك الأيام. لم تكن ممارسة الرماية في قصر الأكاديمية، وركوب الخيل في ضواحي العاصمة لمجرد ممارسة الطقوس والشعائر، بل للتحضير للحرب أيضاً. وكان ركوب الخيل والرماية



الصورة 2-2 رسم يمثّل أساسيات الرماية بالسهام في الأزمنة القديمة

أهم المهارات المطلوبة للحرب في تلك الحقبة، وكانا يعنيان ركوب العربات والرماية بالسهام. كان كونفوشيوس ماهراً في الرماية، وبحسب كتاب الطقوس، «بينما كان كونفوشيوس يتمرن على الرماية في حديقة جويه شيانغ (الواقعة إلى الغرب من معبد كونفوشيوس، كوفو، شاندونغ)، كان المتفرجون يقفون حوله كالجدار». يمكننا الاستنتاج من كل ذلك مدى روعة رمايته. يورد كتاب حوليات كونفوشيوس قصةً في هذا المجال: فقد قال رجلٌ من دا شيانغ «كونفوشيوس عظيم! إنه مثقفٌ جداً، وبشكلٍ واسع، لكنه لا يشتهر بمهارة واحدة». سمع المعلّم هذه القصة فقال لأتباعه: «في أي شيء أنا أكثر مهارة، أفي قيادة العربات أو الرماية؟ دعوني أقول إن الجواب هو قيادة العربات». يتضح من كل هذا أنه كان أكثر مهارة في قيادة العربات من الرماية.

لم يقتصر الأمر على امتلاك كونفوشيوس مهارات رائعة في الرماية، بل كرّس نفسه بصفته «معلّم كل الأجيال» لتعليم تلاميذه مهارات الووشو (الصورة 2-3). اعتاد يانغ، وشو، وشيويه، وشياو في الأزمنة القديمة على تعليم الووشو بما فيها الرماية، كما أن تلك المادة كانت من صميم منهاج المدرسة الخاصة التي أنشأها كونفوشيوس. وأورد كتاب السجلات التاريخية: سيرة كونفوشيوس الشخصية أنه «من بين تلامذة كونفوشيوس البالغ عددهم ثلاثة آلاف، امتلك 72 منهم مهارة مذهلة في الفنون الكلاسيكية الستة»؛ وقاد ران يو جيش دولة لو بأمرٍ من جي كانغ زي للقتال ضد جيش تشي في لانغ، وتمكّن من إحراز النصر. سأله جي كانغ زي: «هل مقدرتك



الصورة 2-3 لوحة جصّية تمثّل معبد كونفوشيوس في هينان. يظهر هنا كونفوشيوس وهو يعلّم فن «الرماية» الذي يُعتبر أحد «الفنون الكلاسيكية الستة».



العسكرية فطرية أم مكتسبة؟» فأجاب ران يو: «تعلمتها من كونفوشيوس». يمكننا أن نلاحظ هنا أن المتدربين الذين يبلغ عددهم 72، بمن فيهم ران يو كانوا ماهرين في الرماية، وركوب الخيل، وكل الشؤون العسكرية الأخرى.

شجاعة كونفوشيوس

يمكننا القول إن التدرّب على الووشو بإمكانه صقل شجاعة الناس وعزيمتهم وإرادتهم، كما يمكنه غرس روحية المغامرة فيهم، وهي كلها عوامل ظهرت بوضوح على مدى الحياة التي عاشها كونفوشيوس. علّق كونفوشيوس أهمية كبيرة على تنمية «الشجاعة»، واعتبر أن «الحكماء من الناس لن يشعروا بالحيرة، بينما الفضلاء منهم لن يشعروا بالقلق، كما أن الشجعان لن يشعروا بالخوف». يُضاف إلى ذلك أن الحكمة، وعمل الخير، والشجاعة هي «المزايا الأساسية الثلاث تحت السماء». أما إذا فُقدت واحدة من تلك المزايا فإن المرء لن يكون رجلاً يتمتع بشخصيةٍ وتهذيب. يُضاف إلى ذلك أن كونفوشيوس أكّد على أن «الرجل الذي يرى ما هو صواب، ولا يقوم به فإنه يفتقد إلى الشجاعة»، وأن «الرجل الذي يفتقد إلى الشجاعة في ميدان المعركة لا يُعتبر ابناً مطيعاً»، وأن «الرجل الخيّر هو رجلٌ شجاعٌ بالتأكيد، لكن الرجل الشجاع ليس خيّراً بالضرورة».

أقام كونفوشيوس توازناً بين أفعاله وأفكاره وكلماته. يحتوي كتاب السجلات التاريخية، وكذلك كتاب حوليات تعليقات زو حول الربيع والخريف، على سجّل عن «اجتماع جياغو» الذي عُقد بين دولتَي تشي ولو. (الصورة 2-4) تمكّنت دولتا تشي ولو من عقد صلحٍ بينهما في السنة العاشرة من حكم الأمير دينغ، وقرّرتا الاجتماع في جياغو. رافق كونفوشيوس أمير دولة لو لحضور الاجتماع. لكن أرفع مسؤولٍ في دولة تشي أبلغ جينغ أمير تلك الدولة: «بالرغم من أن كونفوشيوس يمتلك معرفة كبيرة بالقانون والانضباط في الطقوس والشعائر، إلا أنه ليس شجاعاً بما فيه الكفاية. أعتقد أننا إذا نصبنا له كميناً بهدف إيقاف أمير لو بالقوة، فسوف يكون بإمكاننا السيطرة على دولة لو بالكامل». وافق جينغ أمير تشي فوراً على هذه الفكرة. اقترح كونفوشيوس في دولة لو إجراء التحضيرات العسكرية تحسباً لأوضاعٍ مفاجئة قد تحدث خلال الاجتماع، فأخذ دينغ أمير لو بتلك النصيحة.



الصورة 2-4 اجتماع القمة بين دولتي تشي ولو الذي عُقد في جياغو (الرسم مأخوذ من لوحات كونفوشيوس)

لوحات كونفوشيوس هي مجموعة من الصور المتعلقة بقصة حياة كونفوشيوس أثناء ترحاله بين مختلف الدول لتقديمه المشورة إلى الأمراء في مجال فن الحكم. لا تمثل هذه الصورة أفكاره العظيمة فقط، ولكنها تعرّف الناس العاديين على فضائله، وحبّه للخير، وعلى طبيعته الإنسانية، كما أنها تمثّل إعجاب الناس بهذا الحكيم.

رأى كونفوشيوس في ذلك الوقت أن الظروف غير مؤاتية للاجتماع، أي كما سبق له أن توقّع، ولذلك رافق الأمير دينغ أثناء انسحابه، ثم قتل بسيفه الشخص الذي حاول قتل أميره. عرض كونفوشيوس أفكاره بحماسة، بينما كان الطرفان يستعدان للقتال، كما تحدّث عن إحساس المرء بالحق والمبادئ المعقولة للصواب والخطأ. قال كونفوشيوس: «يجتمع أميران لإرساء علاقات ودّية، ويعني ذلك أن جهتكم تستخدم القوة العسكرية لخرق القانون، ومستلزمات الطقوس التقليدية. لكن، لا ينبغي على الأمراء الحقيقيين فعل هذا». وقد سمع جينغ أمير دولة تشي ذلك الكلام، وشعر أنه المخطئ، فأعطى الأمر بسحب جنوده.

استعدت الدولتان للتعهد بإتمام معاهدة التحالف بينهما، ثم عمدَ أحد المسؤولين في دولة تشي إلى إضافة قَسَم التحالف الذي ينص على: «ما إن ينتهي جيش تشي من خوض المعارك خارج الدولة فسوف تتم معاقبة دولة لو بحسب بنود هذا القسم، وذلك إذا لم ترسل دولة لو 300 عربة لتتبعنا». شجّع كونفوشيوس ذلك المسؤول على الإجابة: «إذا لم تعيدوا لنا أرضنا الواقعة في الضفة الشمالية لنهر وين شوي، وإذا طلبتم منا تلبية احتياجاتكم، فسوف تعاقَبون بحسب هذا القَسَم». وكانت النتيجة أن دولة تشي اضطرت إلى إعادة مناطق يون، وغوان، ووغوي ين Guiyin إلى دولة لو. (الصورة 2-5)





الصورة 2-5 يُظهر هذا الرسم جينغ، أمير تشي، أثناء إعادته الأراضي المحتلة معتذراً عن أخطائه (من كتاب لوحات كونفوشيوس)

أعطى سو شي في كتابه أطروحة حول تشانغ ليانغ التفسير التالي: «يُشهر الرجل العادي سيفه بسبب الإهانات التي توجّه إليه، ثم ينتصب استعداداً للقتال. لا يُعتبر هذا الموقف شجاعةً على الإطلاق. إذ تعني الشجاعة عند الرجل الشجاع البقاء هادئاً وبارد الأعصاب في وجه الخطر، ومن دون أن يسمح لنفسه بالشعور بالغضب إزاء الإهانات المقصودة. إن الرجال من هذا النوع يتميزون بسعة الأفق، ويمتلكون تطلعاتٍ عالية». لكن ليانغ كي شاو فسّر الأمر بوضوحٍ أكبر عندما قال: «إذا أراد المرء أن يكون رجلاً شجاعاً فإن الأمر لا يتطلب قوة عضلية لا يمكن مقارنتها، بل يتطلب الحكمة». تمكّن كونفوشيوس من حماية بلاده بفضل سرعة بديهته، وسعيه إلى حماية السيادة الوطنية أثناء إتمامه معاهدة التحالف. ولم تقتصر جرأته الهادئة في وجه الأخطار على حكمته وقوته فقط، ولكنها اشتملت على امتلاكه جرأة القدّيسين.

عاش كونفوشيوس في حقبة الربيع والخريف، وهي الفترة التي شهدت حروباً متكررة، وكان يعرف جيداً أهمية مزج قوة القلم مع قوة السيف. اعتبر كونفوشيوس أنه، «حتى القضية المدنية يجب أن تستند على القوة العسكرية، كما أن القضية العسكرية لا يمكن أن تنجح إلا إذا حصلت على مساندة مدنية». «وباستطاعة



الصورة 2-6 تأليف أغنية إلى المرتفعات (الرسم مأخوذ من لوحات كونفوشيوس)

المرء إذا كان شجاعاً أن يكون متمرداً، وإذا كان مستقيماً أن يكون عدوانياً؛ إلا إذا التزم بالطقوس والقواعد». وإن «الميل إلى إظهار الجرأة وكراهية أن يكون المرء فقيراً يُمكن أن يؤديا إلى الاضطراب». وكذلك، «إن الميل إلى إظهار الشجاعة من دون محبة التعلّم يُمكن أن يؤدي إلى الثورة». اعتبر كونفوشيوس أنه في ما يتعلّق بالقلم والسيف، فمن غير المفيد المبالغة في التركيز على أحدهما وتجاهل الآخر.

يؤثّر الجسم السقيم في أغلب الأحيان وبصورة كبيرة على عقل المرء، بينما يُمكن أن تؤدي البنية القوية إلى الشجاعة والقوة الروحية. وقد أضفت ممارسة الووشو والتعليم على كونفوشيوس روحيةً عنيدة، وبنية جسدية قوية؛ وهو الأمر الذي مكّنه من بدء جولته عبر كل الدول وهو بعمر الخامسة والخمسين. أما لو كان ضعيف البنية الجسدية فكيف كان بإمكانه أن يتنقل عبر طرقٍ جبلية خالية وشديدة الوعورة وهو جالسٌ على كرسي خشبي مدولب، وأن يتجول هكذا بين كل الدول لفترة 14 سنة، وذلك في فترة تميّزت بنشوب الحروب والقتال؟ (الصورة 2-6) لكن بالرغم من أن كونفوشيوس عانى من فترات حرمان وصعوبات خلال جولاته، إلا أنه كان على استعدادٍ دائم للرحيل، وذلك إلى حد تعريض حياته للخطر مراتٍ عدة؛ لكنه كان متفائلاً على الدوام. استخدم كونفوشيوس شعار، «إن المثابرة على



القيام بما يعرفه المرء أمرٌ مستحيل» من أجل إثبات التزامه بقناعاته. يا لهذه الجرأة البطولية! ولا عجب أن يقول ليانغ كي شاو إنه «لا توجد شجاعة أعظم من تلك التي نجدها عند كونفوشيوس».

عدم اللجوء إلى القوة

كانت ممارسة الووشو في حقبة الحروب المتتالية ضرورية لتعليم أبناء النبلاء. وكان المحاربون يحتلّون مرتبة عالية في السلّم الاجتماعي، لكن كونفوشيوس تردّد في اللجوء إلى القوة. لماذا؟

يرتبط الأمر بآراء كونفوشيوس السياسية إلى حدٍّ كبير. كانت حقبة الربيع والخريف التي عاش فيها كونفوشيوس فترة انتقالية من مجتمع العبيد إلى المجتمع الإقطاعي، وهي فترة شهدت تراجعاً كبيراً للطقوس والموسيقى. راقب كونفوشيوس شعبه الذي مزّقته الحروب، كما كان شاهداً على معاناته من مستويات لا مثيل لها من البؤس. وقد توصّل كونفوشيوس في هذا الوقت إلى فهمٍ عميقٍ للمخاطر التي يمثّلها الانغماس الوحشي في العدوان العسكري. أبلغ كونفوشيوس أتباعه ذات مرة بأن، «المجتمع المثالي هو الذي لا تتواجد فيه أي أسوار أو خنادق داخلية أو خارجية للمدينة، وهو المجتمع الذي تستخدم فيه السيوف والحراب في الزراعة، أي تحوّل السيوف إلى محاريث؛ وحيث يعيش الناس ويعملون بسلام وطمأنينة ورضا وقناعة». لكن التزام كونفوشيوس بتحقيق هذه الفكرة كان أمراً يستدعي الإعجاب والثناء. قاد كونفوشيوس أتباعه عندما كان في الخامسة والخمسين من عمره، وارتحل بهم عبر الدول بهدف بثّ آرائه السياسية الداعية إلى «الحكم بحسب مبادئ الخير والطقوس»، وكان يأمل بإعادة بناء النظام الاجتماعي.

عاش كونفوشيوس في زمن القلاقل، لكنه أدرك جيداً أن الحرب كانت حتمية. وقد شدّد كونفوشيوس لهذا السبب على أن حكم الدولة يستدعي بذل الجهود المستمرة من أجل الحفاظ على «مؤنٍ غذائية كافية»، و«ما يكفي من الأسلحة»، و«ثقة الشعب»، ويحمل كل واحد من هذه العناصر أهمية حيوية. يمكننا القول بالإجمال إن كونفوشيوس كان يقف مع السلام ضد الحرب بكل حزم. وأورد كتاب حوليات كونفوشيوس: يروي جي شي أن كونفوشيوس عاتب اثنين من أتباعه لأنهما

فشلا في ثني سيّدهما عن اتخاذ إجراءٍ عسكري ضد المدينة؛ الدولة تشوان يو، وهي التي كانت متحالفة مع دولة لو. وقد قال لهما بكل جدّية: «أقول لكما الآن، أنت وتشيو، وبصفتكما مساعدَين، إنكما فشلتما في المساعدة على كسب الناس الذين يرفضون الإذعان، كما عجزتما عن المساعدة في منع الدولة من التفكّك. لكنكما تخطّطان للّجوء إلى القوة العسكرية، حتى داخل بلدكما! أخشى أنه قبل أن يعاني سيّدكما جي سون من مشاكل محتملة من جوهان يو فسوف يعاني من مشاكل داخل قصره!».

يُظهر لنا هذا الموقف أن كونفوشيوس أخذ موقفاً متحفظاً إزاء استخدام القوة العسكرية. وقد أورد كتاب حوليات كونفوشيوس: أنا ناقل في هذا الصدد ما يلي: «كان المعلّم متحفظاً في الأمور التالية: الصيام، والحروب، والأمراض». عارض كونفوشيوس الشجاعة المتهورة بالقول: «أنا لن أقف مع أولئك المستعدّين للموت من دون أسفٍ خلال محاربتهم نمراً بأيديهم العارية، أو الذين يغامرون بعبور النهر من دون قارب. أريد من رفاقي أن يكونوا حذرين في أوقات الخطر، وأن يلجأوا إلى استراتيجية تضمن نجاحهم». يُضاف إلى ذلك أن كونفوشيوس كان يعارض الحرب التي لا تحظى بشعبية. استشار لين، أمير دولة واي، كونفوشيوس بشأن تكتيكات المعركة، فأجاب: «لم أتعلّم شيئاً عن القضايا العسكرية». (الصورة 2-7)

الصورة 2-7 لين، أمير واي، يستشير كونفوشيوس بشأن تكتيكات المعركة (الرسم مأخوذٌ من لوحات كونفوشيوس)



أدّت مهارة كونفوشيوس في تسطير الرسائل المهذّبة والفنون القتالية إلى جعله رجلاً يتمتع بقوة الشخصية، والشجاعة الأدبية، والجرأة في تحمّل المسؤولية. كان كونفوشيوس يعارض الحرب بالرغم من شجاعته ومهارته في الووشو. ولكن بالرغم من تمتّعه بقوة جسديةٍ مذهلة، إلا أنه لم يلجأ إلى القوة. وقد أدّى موقف كونفوشيوس، وأفكاره بشأن القوة، إلى ترك أثرٍ واسع على ممارسي الووشو على مدى أجيالٍ عديدة. وقد اعتبر كونفوشيوس أنه من غير المقصود من ممارسة الووشو الاعتداء على الناس وإلحاق الأذى بهم، لكن هدفها هو الدفاع عن النفس فقط. يمكننا القول بهذا المعنى إن ممارسي الووشو يجب أن يتمتعوا بطيبة قلبٍ كبيرة. يتعيّن على لاعبي الووشو - بالرغم من أنه يُسمح لهم برد الاعتداء - الالتزام بالحدود اللازمة، وبضبط النفس، وإخضاع الخصم من دون سلبه حياته.

المزج الرائع بين الكونغ فو والثقافة الطاوية

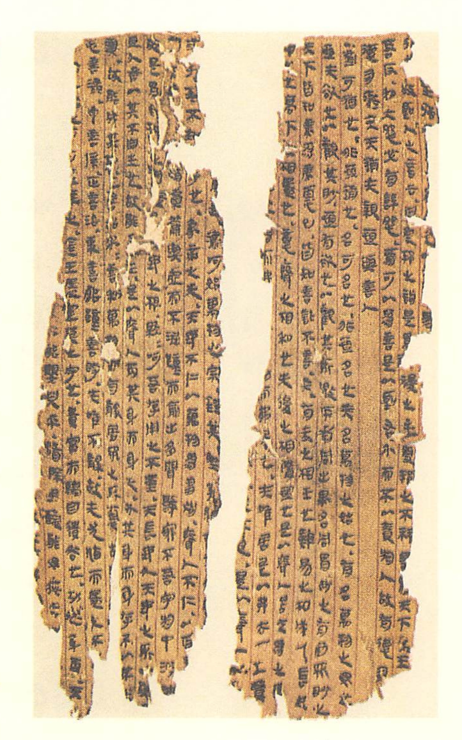


الصورة 2-8 لاو تسي

كان لاو تسي - الذي يُدعى أيضاً لي دان - مواطناً من دولة تشو، وعاش ما بين العامين 571 و471 قبل الميلاد. كان لاو فيلسوفاً شهيراً ومفكراً عظيماً في الصين القديمة، ومؤسس الفلسفة الطاوية. شدّد لاو على مبدأ الحكم عن طريق عدم القيام بأي شيء، وهو مبدأ مشابه لمفهوم عدم تدخل الدولة في الاقتصاد، أو لذلك المفهوم التحرري القائل إن «الحكومة تكون في أفضل حالاتها عند ممارستها أقل قدرٍ ممكن من الحكم». أثّر هذا المبدأ على تطور الفلسفة الصينية. أما الطاوية فتنظر إليه بكل تبجيل على أنه «أب الطاوية».

إذا أردنا تحديد العلاقة بين الووشو والمدرسة الطاوية، فسوف يتعيّن علينا فهم العلاقة بين المدرسة الطاوية والطاوية ذاتها. وبالرغم من أن المدرسة الطاوية ليست الشيء ذاته مثل الطاوية، إلا أن الفكر الطاوي كان مصدر الطاوية. تأسّست المدرسة الطاوية على يد لاو تسي، وشوانغ زي، بينما تمّت صياغة الطاوية في أواخر فترة حكم سلالة هان. يشتمل ممثلو المدرسة الطاوية على لاو تسي، وشوانغ زي، ويانغ تشو، وغيرهم (الصورة 2-8). أما ممثلو الطاوية فيشتملون على جي هونغ، وتاو هونغ جينغ، وغيرهما. تُعتبر المدرسة الطاوية مدرسة الفكر والثقافة، أما الطاوية فديانة صينية تهدف إلى السعي وراء طول العمر. لكننا نلاحظ أن تكوّن الطاوية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمدرسة الطاوية. فالمدرسة الطاوية هي الأساس الفكري للطاوية، وذلك مع الأفكار الطاوية التي نادى بها لاو تسي (الصورة 2- 9) وشوانغ زي، وغيرهما من الذين تعتبرهم الطاوية تقليديين. لكن الطاوية تعتبر الفكر الطاوي عمادها النظري، وهو الفكر الذي اخترق كل مظهرٍ من مظاهر الحياة اليومية بنظرياته وممارساته.

أعطت المدرسة الطاوية والطاوية الووشو أساسها النظري والمنهجي. ويعني ذلك أن ممارسة الووشو لم تتخلص من الحدود الجسدية لمهاراتها، ولم تحصل على إمكانية ارتقائها إلى الطاو الماورائية إلا بفضل تسلّل الطاو إلى أفكارها.



الصورة 2-9 كتابات لاو تسي على الحرير

كُشف عن هذا النص المكتوب على الحرير في العام 1973، وكان في المدفن رقم 3 في موانغ دو الواقعة في مقاطعة هونان. يتألف هذا الأثر من نسختين، وتشتمل كل نسخة على أربعة كتب قديمة مفقودة، والتي كُتبت في وقتٍ مبكر من حكم سلالة هان الغربية. نلاحظ أن تسلسل الكتاب هو عكس كتاب لاو تسي الذي نجده بين أيدينا هذه الأيام، كما أنه يحتوي على 81 فصلاً، ويحمل عنواناً إضافياً طاو تي تشينغ، ومن تأليف لاو تسي.

الدمج بين الووشو وثقافة الطاو

إن وجودية المدرسة الطاوية هي الأساس المعرفي لفلسفة الووشو. وقد قال لاو تسي، وهو مؤسس فلسفة المدرسة الطاوية: «تُعتبر الطاوية السر الغامض للكون». وتعتبر تقاليد الووشو أن أجدادنا اعتقدوا أن «الطاو» هي الميزة الجوهرية للووشو، وهي التي كانت تُراعى وتُدرس ذات مرة من وجهة نظر الطاو. وهكذا، لم تعد تلك الحركات الجسدية في القتال التي تعتمد على البنية الجسدية القوية، وحركات الأرجل، والملاكمة، وحركات الساقين، والمصارعة، والإمساك بالخصم، وغير ذلك من الحركات مجردًّ فن مهاجمة الخصم والدفاع، ولكنها أصبحت «ثقافة الووشو والطاو» بالمعنى الأشمل.

يمكننا القول إنه بالإمكان دراسة تكوّن الووشو وتغيّرها مع اتّباع مبدأ «الطريق أنتجت الواحد، والواحد أنتج الاثنين، والاثنان أنتجا ثلاثة، والثلاثة أنتجت كل الأشياء». أما مبدأ الطاو القائل إن «اسم بداية السماء والأرض هو العدم أما اسم أمّ كل الأشياء فهو الواقع فهو مبدأ يعزّز تحسين البُعد العقائدي للووشو. يفسّر كل هذا - وبكل دقة - الأساس العقائدي المعقّد والواسع للووشو الصينية، وذلك عن طريق التحدّث عن كيفية تحوّل الووشو إلى وسيطٍ لفهم الحقيقة من خلال حركات الجسد. تحوّلت مقولة «لا تعتبِر أي طريق على أنها طريق، واعتبر اللا - نهائي على أنه نهائي» إلى معيار «لتقاليد الووشو والطاوية». أما مبدأ الين واليانغ والتغيّرات المتبادلة ما بين

الين واليانغ، فقد أصبح المبدأ الأساسي لمشاهدة تطور الووشو والطاو ودراستهما. يمكننا القول بهذا المعنى إن التناقضات الموجودة في الووشو مثل الهجوم والدفاع، والتقدم والتراجع، والتحرّك والسكون، والخطأ والصحيح، والفتح والإغلاق، والقوة والضعف، والسرعة والبطء، والمرونة والركود، وغير ذلك؛ ليست كلها متناقضات قائمة بحد ذاتها، بل يُنظر إليها على أنها جزء لا يتجزأ من بعضها بعضاً، ومكملة لبعضها بعضاً. (الصورة 2-10)

يمكننا شرح العلاقة بين مهارات الووشو والطاو بالتشبيه الذي قدّمه شوانغ زي: «تقطيع الثور على يد جزارٍ ماهر. كرّست نفسي للطاو وهي أعلى من مجرد مهاراتٍ معيّنة. أما عندما بدأت بتقطيع الثيران فقد رأيت أمامي الثور بأكمله. لكن بعد مرور ثلاث سنوات على تدرّبي لم أعد أرى الحيوان بأكمله. إنني أعمل الآن معتمداً على عقلي وليس عينيّ، كما أن عقلي يعمل من دون تحكّم الحواس به». بدأ الطبّاخ مع «الثور الكامل»، ثم «لم يعد يرى حيواناً كاملاً»، وما لبث أن تطور إلى مستوى الطاو، «العمل معتمداً على عقلي وليس عَينيّ». لكن، مما لا شك فيه أن نموذج التفكير القائل إن الطاو أتت من المهارات - وهي أرفع من مجرد حرفة - قد لعب دوراً أساسياً في تطور الووشو من مهارات ميكانيكية إلى الطاو.



الصورة 2-10 الهجوم والدفاع في الووشو

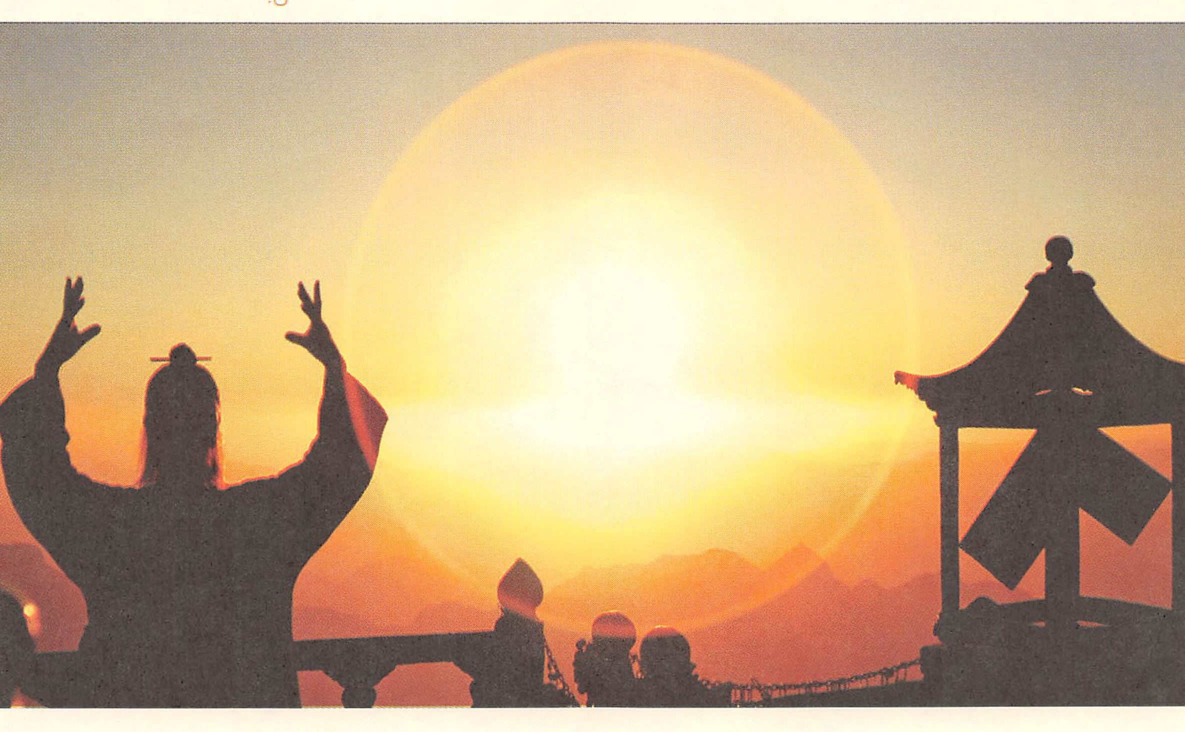
الهجوم والدفاع مفهومان مختلفان في الووشو، لكن لا يمكن الفصل بينهما. وعندما يقوم الخصم بالهجوم فهو يُبقي على دفاعه. الهجوم والدفاع متماثلان.

قدمت المدرسة الطاوية تفسيراً معمّقاً «للتعلّم»، و«ممارسة الطاو»، وهذا لا يقدّم لنا نهجاً هاماً للتطور الديني فحسب، بل يجلب فائدة عظيمة لممارسي الووشو. أورد كتاب ملاحظات على لاو تسي، «تتزايد نتائج التعلّم بشكلٍ يومي. لكن نتائج ممارسة الطاو تتقلص بشكلٍ يومي، وهي تتقلص أكثر فأكثر إلى أن لا يبقى منها شيء، ولا يبقى هناك أي تداخل بينهما، بل يسود التحكّم الكامل».

تعني عبارة، «تتزايد نتائج التعلّم بشكلٍ يومي»، أن التعلّم يقدّم فائدة في كل يوم. أما عبارة «تتقلص نتائج ممارسة الطاو بشكلٍ يومي» فتعني التقلص اليومي، أو التبسيط، والإبقاء على الضروريات في ممارسة الطاو. أما بشكلٍ عام، فيمكننا القول إن ممارسي الووشو والطاو بإمكانهم تأمين التنوّر التدريجي من خلال الممارسة غير المتقطعة، أو من خلال التنور الفجائي بالصدفة. ويتوافق هذا مع مبادئ تعلّم ممارسة الطاو. أما مبدأ، «أفرِغ نفسك من كل شيء، وحافظ على الصفاء بشكلٍ مستمر. تأخذ كل الأشياء أشكالها حتى تصبح حيّة، لكنني أراها تعود إلى أصلها»، فيعلّمنا ضرورة التخلي عن التحيّز لكي نحقق مستوى «عدم التحرك».

لكن مع ممارسة الووشو، ودمج التطور الديني معها، فإن التطوير من خلال ممارسة الووشو يصبح سعياً متواصلاً لممارسي الووشو. تمكّن عددٌ كبير من معلمي الووشو من إتقان الطريقة الواحدة، ثم مضوا نحو المعرفة الشاملة، وهم بدأوا مع مهارات الووشو، ثم توصلوا إلى مرحلة التنوّر.

يمكننا القول إنه في سياق تطوير الووشو والطاو، فإن «وحدة السماء والبشرية» تبقى المبدأ العام للووشو. (الصورة 2-11) قال لاو تسي: «يتبع الإنسان قانون الأرض، والأرض تتبع قانون السماء، والسماء تتبع قانون الطاو، والطاو يتبع قانون الطبيعة». أما شوانغ زي فاعتبر أنه يتعين على الفرد أن يصبح واحداً مع السماء. «السماء والأرض وأنا ولدنا من واحد، وأنا واحد مع كل الموجودات». بناءً على ذلك، اعتبر شوانغ زي أنه يُفترض ألّا يُقدم الناس على أي أفعالٍ غير طبيعية، وأن يدعوا الأمور تأخذ مجراها الطبيعي. أما مفهوم «وحدة السماء والجنس البشري»، فيعني بكلماتٍ أخرى الوحدة الجوهرية والاعتماد المتبادل للجنس البشري، والعالم الطبيعي، والعالم الروحي؛ وهذا المفهوم تجسيد لماورائيات المدرسة الطاوية.



الصورة 2-11 وحدة السماء والبشرية

تُعتبر وحدة السماء والبشرية الرؤية الأساسية للفلاسفة الصينيين القدماء، وتُعتبر كذلك المفهوم السائد الذي يحكم كل عقيدة، والتقاليد الصينية الرفيعة. أما مفهوم «وحدة السماء والبشرية» فقدّمه أجدادنا بهدف استكشاف وتحقيق وحدة السماء وعالم البشر، والسعي إلى تحقيق الانسجام والسعادة، واندماج ما هو بشري مع كل الأشياء على الأرض والسماء.

يُضاف إلى ذلك أنه لا يُقصد بكلمة «السماء» التدخل الإلهي الخارجي، ولكن عمل القوى الروحية التي تلازم الطبيعة والمتأصلة فيها. تعني عبارة «وحدة السماء والبشر» أن البشر والطبيعة مترابطان في جوهرهما المتبادل الذي يتشاركان فيه. لكن الطريقة الوحيدة لبقاء العالم وتطوره هي القيام بأفعال غير طبيعية، وترك الأمور تأخذ مجراها الطبيعي. تشتمل مقولة «وحدة السماء والبشرية» على جانبين، وهي داخلياً تعني الابتعاد عن الهوس بالذات، واختبار من يمارس الووشو وإرشاده؛ وهو الأمر الذي يتحوّل إلى موضوعٍ غير شخصي. أما خارجياً فإنها تعني فتح طريق التفكير، والتعلّم من الطبيعة إلى أقصى حدٍّ ممكن، وذلك من أجل التمكّن من رؤية التغيّرات التي تحدث في الطبيعة بوضوح، ومن أجل تحويل مسار أعتى قوى الطبيعة. يتمكّن ممارسو الووشو من فهم تغيّرات الريح، والمطر،



والبرق، ومن ملاحظة المهارات القتالية التي تتمتع بها مختلف أنواع الحيوانات مثل النمور، والقرود (الصورة 2-12)، والدببة، والنسور، والديوك، وطيور المياه العذبة، والأفاعي، وفرس النبي، وغيرها... وهم يتخذون هذه الملاحظة كوسيلة ونموذج يساعدان على تكوين المهارات والطرق التي يمكن تطبيقها على مختلف أساليب الملاكمة، والحركات، والأسلحة. وهي كلها عناصر أصبحت مصادر هامة للمحتوى العملي للووشو.

خضعت تشي Qi (الطاقة الحيوية في جسم الإنسان)، والتي تُعتبر مفهوماً هاماً في الثقافة الصينية التقليدية، لمناقشاتٍ كثيرة بين الحكماء والفلاسفة في الأزمنة القديمة. ورد أول مفاهيم تشي في كتاب التغيّرات: سداسية تشيان: «يرقد التنين منتظراً، لأن وقت الفعل لم ينضج بعد». وتعني هذه العبارة أنه في وقتٍ مبكر من الشتاء، وعندما تدخل كل الأشياء على الأرض في موسم الانسحاب والسبات، فإن تشي اليانغ في جسم الإنسان تبدأ بالانحسار بدورها مع تغيّر الفصول. يتعيّن في هذا الوقت اتباع قانون الطبيعة الموازي، وجَزْر الطبيعة، وتجنّب التهور والأفعال غير المناسبة.

تعلّق المدرسة الطاوية أهمية كبرى على التشي، أو الطاقات الكامنة والمحتملة لجسم الإنسان. لكن هذه الأهمية لا تتجسد فقط على المستوى الفلسفي، ولكنها تشتمل كذلك على نظام جسدي محدّد للتدريب والتمرين. قال لاو تسي: «تحمل كل الأشياء الين في طياتها وتعانق اليانغ، أما تشي فأشبه ما تكون بتيار الهواء الذي يدمجهما معاً ويؤمن التناغم بينهما». تعني تشي العظمى تشي الين وتشي اليانغ مندمجَتين معاً، وهي مصدر النمو والتطور في كل الأشياء الموجودة في الكون بما فيها البشر. لكن بالرغم من أن الين واليانغ متعاكسان، إلا أنهما يتحدان في التشي. بناء على ذلك، يمكننا القول إن التشي العظمى تجسيد «الطاو»، لكن بما أن الطاو

الصورة 2-12 ملاكمة القرود

ملاكمة القرود تعتبر أحد أنواع شيانغ شينغ تشيوان، وهي تأخذ اسمها من تقليد الحركات القتالية للقرود. تُظهر السجلات أن ملاكمة القرود نشأت في زمن سلالة هان الغربية. لكن عملية تطور ملاكمة القرود شهدت تكوّن مختلف الأساليب والجماعات. أما ملاكمة القرود الحديثة فتتميز غالباً بالتاولو، وهي سلسلة من الحركات في الووشو، كما أن حركاتها ومحتواها لا تقلد تأهّب القرود ورشاقتها فقط، ولكنها تتوافق مع خصائص الهجوم والدفاع في الووشو.





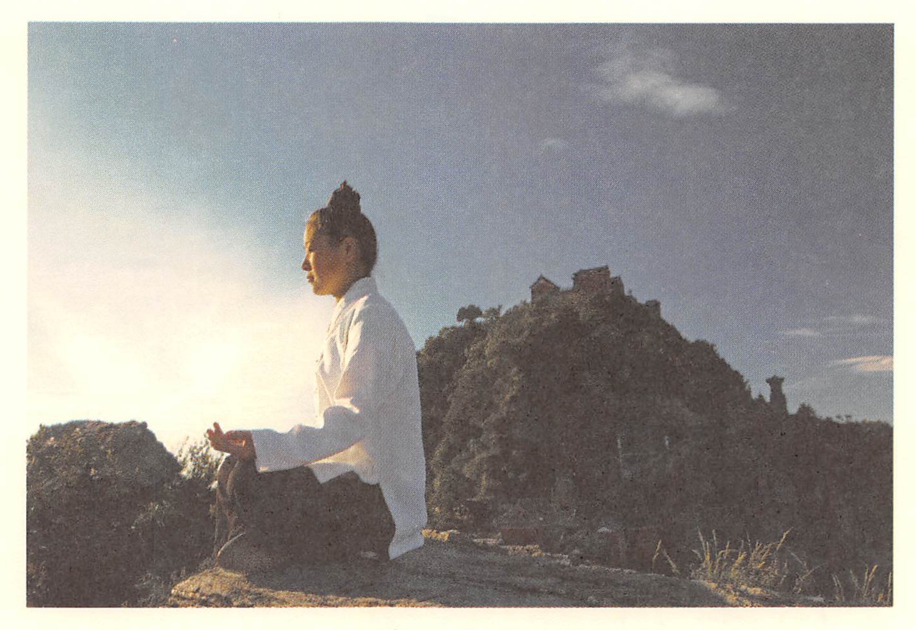
الصورة 2-13 رسم توضيحي للمخطط الكوني

يشتمل هذا المخطط الشمولي على نموذجٍ دائري وفاصلٍ بشكل حرف S بين الأبيض أو النور أو اليانغ، وبين الأسود أو الظلمة أو الين. أما التاي تشي (الكائن الأرفع)، وهو تعبير فلسفي يعود إلى عهد الصين القديمة، فيعني المصدر الأرفع الذي يولّد كل الأشياء في الكون. يوضح رسم المخطط الكوني الفلسفة الديالكتيكية الحيوية لفلسفة الزيادة المستمرة، والانحسار المستمر للين واليانغ، اللذين يعاكسان بعضهما بعضاً بشكلٍ تبادلي، كما يكملان بعضهما بعضاً، وهي العملية الأساس التي تولّد التغيّر الذي لا ينتهي في الكون. تتكشّف هذه العملية عن نوعٍ من أنواع الجمال المنهجي الذي يُظهر التغيّر المتبادل، ويُظهر الوحدة في التنوع.

لا متناهية، فإن التغيّرات في كل الأشياء متجذرة في اندماج الطاقات بين تشي الين وتشي اليانغ وبين السماء والأرض. أورد كتاب ملاحق كتاب التغيّرات، «عندما انفصلت الأرض عن السماء في البداية تحوّل العالم إلى تاي تشي، ثم تحوّل بعد ذلك إلى يين ويانغ». الصورة (2-13).

لكن بعد تأسيس الطاوية، وبمقتضى الإرشادات الهادفة إلى التوصل إلى الخلود، قام كهنة الطاوية الذين ساروا على خطى الأقدمين بإدخال تهذيب الذات إلى طقوسهم، وهكذا تمكّنوا من تكوين مجموعة كاملة من التقنيات السرية الهادفة إلى الحفاظ على الصحة، وإطالة عمر الإنسان كثيراً. تشتمل هذه التقنيات على: تطهير القلب، واعتناق مفهوم وحدة الوجود (الصورة 2-14)، والتأمل الذاتي، والبقاء في حالة نسيان، والعمل، والتأمل البوذي، والإرشاد، والتأمل، والتفكير، والزفير، والإلهام، وإحساس المرء بتنفسه، والتفس حتى أخمص القدمين، وإبقاء العقل في حالة سكونٍ كلي، وتعزيز دورة تشي، والامتناع عن تناول الحبوب، واستخدام الأدوية العشبية، والتنفس العميق، وفهم الكيمياء الداخلية، وغير ذلك. لكن هذه المهارات الداخلية يمكن نقلها ودمجها من خلال الووشو، وعددٍ آخر من طرق التطوير الذاتي سواء أكانت داخلية أو خارجية، وهي كلها طرق تم تطويرها وأدّت إلى تقوية ممارسة الووشو وتعزيزها كثيراً.

تأثر معلمو الووشو على مدى أجيالٍ عديدة بتطوير هذه المهارات العقلية للمدرسة الطاوية، كما علّقوا أهمية كبيرة على التدرّب على توجيه مسارات طاقات تشي، وعلى تعزيز الحيوية، والحفاظ على الطاقة الحيوية، والإبقاء على مقاومة الأمراض؛ بوصف ذلك على أنه الهدف الرئيس لممارسة الووشو. يمكننا القول إن



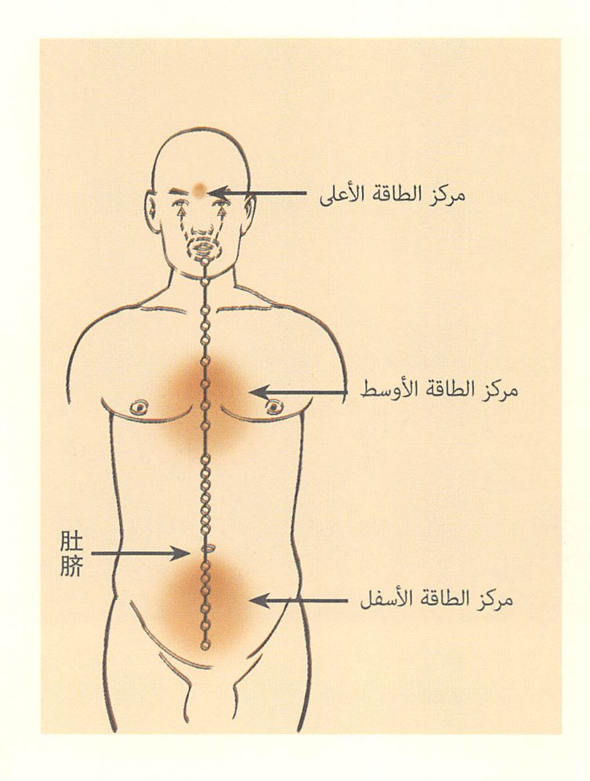
الصورة 2-14 اعتناق الوحدة في الكل (أو الوحدانية)

«اعتناق الوحدانية» واحدة من تقنيات التطوير السرية للمدرسة الطاوية في مراحلها الأولى. تركّز هذه الطريقة ليس فقط على تعزيز التقنية الجسدية، وإنما على الروح كذلك، والتي تمكّن المتدرب من إفراغ كل الأفكار التي تشتّت الذهن، ومن تحرير نفسه من جموع الناس التي تتصرف بطريقة فوضوية. تهدف هذه الطريقة إلى مساعدة المتدرّبين على إضفاء قيمة عالية على التطوير الذاتي لجوهر تشي والروح، وذلك لحمايتهما من الاحتكاكات والتناقضات الداخلية، وتجميع التشي الكامنة فيهما، والحيلولة دون تلاشيها، وهكذا تندمج مع الجسد لتؤلف كلاً عضوياً. باستطاعة المرء إطالة حياته مع الإبقاء على سلامة العينين والأذنين عن طريق تطوير هذه التقنية.

التدرّب على عددٍ من أساليب الملاكمة التي تحقق اندماج التأثيرات الداخلية الناتجة عن التدرّب مع الطبيعة من خلال تشي، وذلك من أجل توجيه تشي في مركز الطاقة (نقطة الوخز بالإبر التي تبعد نحو ثلاث بوصات تحت سرة البطن) (الصورة 2-15) يتمكن سريان التشي [طاقة الحياة] بهذه الطريقة من ربط زانغ (الأعضاء الصلبة) مع فو (الأعضاء الفارغة) حتى الوصول إلى الذراعين والساقين؛ وهو الأمر الذي يحقق وظيفة جمع تشي، وتوحيد الجوهر، والتوحيد الداخلي، وتقوية الجسد.

يعني ذلك أن تعزيز تشي، وتجميعها، وحركتها، والتدرّب عليها أصبحت كلها ركيزة نظام التدريب الأساسي لكل مذاهب الووشو. أما نيجيا تشيوان (الفنون القتالية الداخلية) مثل تاي جي كوان، وشينغ يي تشيوان، والملاكمة الثمانية،





الصورة 2-15 مركز الطاقة

كانت عبارة مركز الطاقة (دانشيان) عبارةً طاوية مستخدمة لتغذية الجوهر تشي والروح في عملية تطوير كيميائية داخلية. وينقسم الدانشيان (مركز الطاقة) إلى ثلاث فئات: مركز الطاقة الأعلى، ومركز الطاقة الأوسط، ومركز الطاقة الأسفل. يقع مركز الطاقة الأعلى في governor vessel والمحجب (منتصف المسافة بين الحاجبين)، ومركز الطاقة الأوسط يقع في نقطة وخز دان تشونغ حيث تتجمع تشي الصدر، ومركز الطاقة الأسفل يقع في نقطة وخز جوانغ يوان التي تبعد نحو ثلاث بوصات أسفل منطقة السرة حيث تختزن كل المواد الجوهرية. اعتبر القدماء مركز الطاقة (دانشيان) على أنه مكان الجوهر، تشي والروح و«مصدر الحياة»، كما علقوا أهمية عظيمة على عملية مركز الطاقة.

وهي التي تستخدم سلاحاً سحرياً يتمثّل في تعبئة الطاقة الكامنة الممكنة وغير المستخدمة لجسم الإنسان من خلال التدرب على تطوير تشي بوصفها الجوهر. قال شين تاو، وهو معلّم معاصر في تاي جي كوان: «اعتبرت الملاكمة الصينية دائماً تشي غونغ مبدأها الأساسي. أما المثل الشائع في الملاكمة فيقول إنها ملاكمة في الظاهر، ولكنها تشي (الطاقة الداخلية) في العمق. يفسّر لنا هذا القول الوظيفة الأساسية لتشي غونغ في تكبير القوى البشرية في الملاكمة». أما بالنسبة إلى شينغ يي كوان، فإن التركيز الأساسي يكمن في تنمية تشي والقوة الداخلية الكامنة غير المستخدمة في جسم الإنسان. يُضاف إلى ذلك أن كلتا شينغ يي كوان وشينغ يي اليدوية تضعان قيمة عالية على التدرب على تشي غونغ. يعني ذلك أن الووشو طورت مبادئ التمارين الأساسية المتكاملة لممارسي الووشو من خلال دمج التمارين الجسدية مع التطوير الشخصي الداخلي، وهو الأمر الذي يعكس التعزيز الثنائي لشخصية المتدرب، ومهارات الدفاع الذاتي. (الصورة 2-16)



الصورة 2-16 رسوم مرممة على الحرير مأخوذة من داو ين تو (رسوم توضيحية للتمارين الجسدية القديمة) التي كانت تُمارس في ماوانغ دو

هذا الرسم الحريري المرمَّم يعود إلى أوائل فترة حكم سلالة هان الغربية، وقد اكتُشف في العام 1974، في المدفن رقم 1 لماوانغ دو، الموجود في شانغ شا، مقاطعة هونان، وهو حتى الآن أقدم رسمٍ على الحرير باستخدام ريشة رفيعة، كما يتعلّق بالعناية الصحية والرياضة. كانت كلمة «توجيه» في الصين القديمة تعني، «توجيه التنفس بهدف تحقيق التناغم بين الجسدي والعقلي»، وتوجيه الحركات الجسدية مع قوة العقل؛ وهو الأمر الذي يؤدي بدوره إلى تحفيز المسار الداخلي للتشي داخل الجسم»، وكانت نوعاً من الحركات الآلية التي تتميز بدمج الحركات التنفسية مع الجسدية. أما في الصين الحديثة، فإن كلمة «إرشاد» تعني التمارين العلاجية التي تدخل ضمن العناية الصحية. كانت تقنية «الإرشاد» التي تعطي أولوية لحركات التنفس شائعة جداً في أوائل حقبة الربيع والخريف والدول المتحاربة.

التكامل بين الطاو والووشو

تعلّق الكونغ فو الصينية أهمية كبرى على عمق الووشو، وهو أمرٌ له علاقة بالمدرسة الطاوية. تقدّم لنا المدرسة الطاوية فلسفة البساطة العميقة بدعوتها إلى التناغم بين الإنسان والطبيعة. ونتيجة لذلك، إن الحقيقة التي تكشفها تكون غالباً ذات تأثير جوهري وواسع.

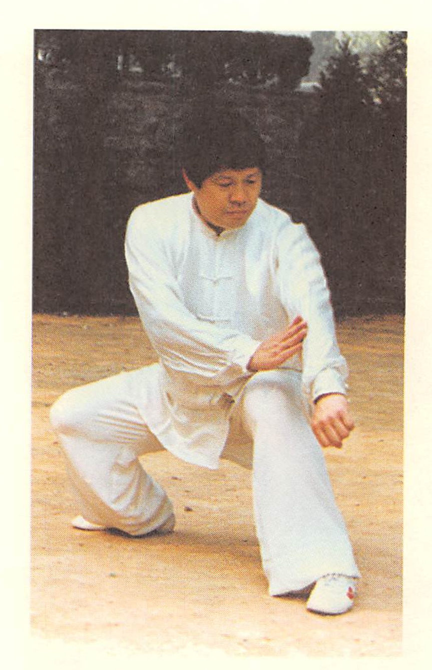
كان شعار المنهجية الطاوية المستخدم بشكل واسع في الووشو هو: «التضاد هو حركة الطاو، لكن أدواتها ضعيفة». أما عبارة «التضاد هو حركة الطاو»، فتعني أن قانون حركة الطاو هو تحويل الأشياء إلى عكسها. وتعني عبارة «أدواتها ضعيفة» بأن الطاو تقارب الطبيعة من أضعف جهاتها. وبالتحديد، إنها توجّه قواها، وتتكيّف معها بدلاً من محاولة فرض إرادتها عشوائياً وميكانيكياً بهدف التسبّب بالتغيير.



يُعتبر الشعار الأول للووشو نظرية المعرفة التي تعتمدها، بينما الشعار الثاني هو منهجيّتها. أما أنظمتها الشاملة للنمو والهبوط، والتغيّر المتبادل بين اليين واليانغ، فتجري بالتوافق مع هذا القانون: اليين واليانغ متضادان، لكنهما يتعايشان، وهما ليسا في حالة سكون بل في حركة دائمة، وتغيّرٍ متبادل. إن هذا النظام من الصعود والهبوط يكون في حالة توازن نسبي تحت الظروف العادية. لكن اليين واليانغ لا يكونان في حالة سكونٍ على الإطلاق، بل يتواجدان على الدوام في وضع توازن ديناميكي دائم التغيّر. لا يمكننا اعتبار أي شيء يين بالكامل، أو يانغ بالكامل، ولذلك سوف نواجه معضلة عند التوصل إلى حالة من اليين الكامل لأن اليانغ يبدأ بالتصاعد. يحتوي اليين على بذور اليانغ، ويحتوي اليانغ على بذور اليين. تحمل كل عناصر الووشو مظاهر من اليين واليانغ، مثل الحركة والسكون، والزائف والحقيقي، والصلب واللين، والفتح والإغلاق، والتقدم والانسحاب، والداخل والخارج، والأعلى والأسفل، والظاهر والمحتجب، والهجومي والدفاعي، وغير ذلك. لكن، بما أن عوامل يين - يانغ هذه تتوافق مع شكل الحركة، وهو الأمر الذي يُظهر الوحدة الكامنة لهذه المتضادات الظاهرة وتحوّلها المتبادل تحت ظروفٍ معيّنة، فلا يعود من العجب أبداً أن تُستخدم نظرية يين - يانغ بشكلٍ واسع في المهارات القتالية للووشو التطبيقية.

كان تشوانغ زي من بين أوائل الذين طبّقوا نظرية يين - يانغ في المهارات القتالية. أورد كتاب تشوانغ زي: وسائل عالم البشر: «تبدأ معارك الدهاء بوصفها لعبة منصفة، لكنها غالباً ما تنتهي بلعبة شريرة. كما أن التدريبات غالباً ما تشهد حِيَلاً غير مشروعة». أما فصل تشوانغ زي: الإقناع بالمبارزة، فأورد أن «مبدئي في المبارزة هو أن أتعمّد إظهار نقطة ضعفي أمام خصمي في البداية، ثم أسمح له بالتفوق أولاً. أتحوّل بعد ذلك إلى الهجوم لكي أحاول إصابته قبل حصوله على فرصة إصابتي». هذا هو تطبيق الحركة الخاطفة مع السكون، والتغلّب على الصلابة بالدماثة، وعدم توجيه الضربة إلا بعد أن يوجّه الخصم ضربته بما يناسب خصمه. تجد هذه النظرية تطبيقاً رائعاً لها في تاي جي كوان.

أورد كتاب أطروحة حول تاي جي كوان التي كتبها وانغ زونغ يو والذي يُعتبر معلّماً في ناي جي كوان، أن تاي جي كوان تعتمد «وحدة متضادات اليين واليانغ،



(الصورة 2-17) أوضاع التاي تشي الاثنان والأربعون

تتضح أوضاع التاي تشي في سياق الووشو، وهي شائعةً جداً في أوساط ممارسي تاي جي كوان. تستند التاي تشي على طريقة اليانغ في تاي جي كوان، وتتبنى النقاط القوية الموجودة في تاي جي كوان التي تتبع طريقة تشان، وطريقة وو، وطريقة سون في تاي جي كوان. أما حركات الاثنين والأربعين وضعاً فإن التاي تشي تُعتبر موحدة وواضحة.

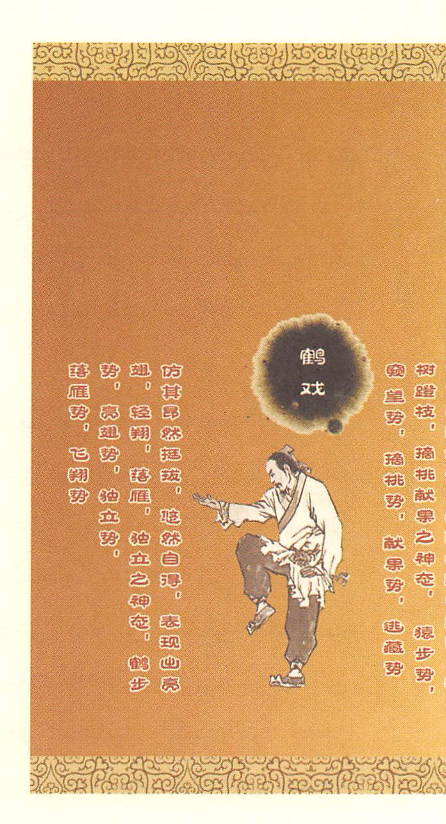
والحركة والسكون» أساساً نظرياً لها. «دمج المرونة مع الصلابة، والمظهر الليّن مع القلب القاسي»، «والصلابة القصوى تتبع الليونة القصوى»، وهذه هي المبادئ التي تُعتبر تجسيداً لفكرة لاو تسي، «التضاد هو حركة الطاو». وتفتخر تاي جي كوان بقهر الصلابة بواسطة المرونة، والحصول على نتيجة مضاعفة بنصف مقدار الجهد، أي أن يعمد المدافِع إلى استعراض الوضع، وتكييف نفسه مع الظروف المتغيّرة قبل أن يبدأ الخصم بهجومه، وهكذا يستجمع قوّته للحصول على القوة اللازمة لتحويل السلبية إلى مبادرة، وهو ما يفسّر مقولة «الضعف أدواتها». أما شيو يوشنغ، وهو معلّم ووشو معاصر فقال: «بالرغم من ضعفي، إنني أختار الدور الفعّال، لكن مهما كان الخصم قوياً فإنه يقع في وضعٍ سلبي».

تلعب نظرية العناصر الخمسة، وبغضّ النظر عن نظرية اليين - يانغ، دوراً هاماً في الفلسفة الصينية التقليدية. كانت العناصر الخمسة تشير إلى المعدن، والخشب، والماء، والنار، والتراب. أما العقائديون الصينيون القدماء فقد حاولوا استخدام نظرية العناصر الخمسة لتفسير مصدر كل الأشياء في الكون، والعلاقات الدقيقة التي تربط بينها. لكن هذه المادية الساذجة تركت تأثيراً واسعاً على نظرية الووشو القتالية. أما «مبدأ التوالد المتبادل» (الخشب يولّد النار، والنار تولّد التراب، والتراب يولّد المعدن، والمعدن يولّد الماء، والماء يولّد الخشب)، وكذلك مبدأ «التغلّب المتبادل»، (الماء يتغلّب على النار، والنار تتغلّب على المعدن، والمعدن يتغلّب على الخشب، والخشب يتغلب على التراب، والتراب يتغلّب على الماء)،



فهي كلها لا تقتصر على كونها الأساس النظري للطب الصيني التقليدي، لكنها تُعتبر كذلك المصدر العقائدي لمهارات الووشو القتالية المتنوعة. يُقال - على سبيل المثال - إن «العناصر الخمسة» تمثّل مجازاً، الحركات الأساسية الخمس (الشطر، والطَرْق، والثقب، والعبور، والسَحق) وهي المتأصلة في تشينغ يي كوان، وكذلك في التوالد المتبادل والمبادئ القاهرة المستخدمة لتحليل العلاقات التي تربط بين هذه الإجراءات الخمسة.

لكن بما أن الطب الصيني التقليدي والووشو يستندان على نظرية يين - يانغ والعناصر الخمسة، لذلك من الطبيعي أن يؤثّرا ويخترقا بعضهما بعضاً (الصورة 2-18). يوجد من جهة مبدأ القنوات الرئيسة والضامنة للطب الصيني التقليدي، وما يرافقها من نظرية الحفاظ على الصحة، وهو الأمر الذي يضع أساساً نظرياً للتدرّب على



الصورة 2-18 التمارين الخمسة المقلدة للحيوانات والتي ابتكرها هوا تو

كان هوا تو عالماً شهيراً في مجال الطب، وكان ماهراً في الفنون القتالية، كما عاش في عهد سلالة هان الشرقيين، وكان ملماً جداً في الووشو والجراحة. يُقال كذلك إن هوا تو هو الذي ابتكر تمارين الحيوانات الخمسة مستنداً على إنجازات من سبقوه، وهي التمارين التي تُعتبر مصدر الووشو الصينية. تعتمد تمارين الحيوانات الخمسة على تقليد حركات النمر، والغزال، والقرد، والدب، والطيور (الكركي)، وتُعتبر نوعاً من أنواع تشين كونغ التي تستهدف الحفاظ على الصحة وتقوية الجسد. تشيع هذه التمارين بين الناس العاديين في الصين، كما أن هذه التمارين لقيت ثناءً كبيراً من خبراء الحفاظ على الصحة على مدى أجيال. كان وو بو واحداً من تلاميذ هوا تو ويُقال إنه عاش عمراً مديداً لأنه واظب على تأدية تمارين الحيوانات الخمسة.

تقنيات ممارسة الووشو، وأساليب الإمساك بالخصم. أما من الجهة الأخرى، فيمكننا القول إن علاجات الإصابات الناتجة عن ممارسة الووشو - وهي إصابات لا بد منها - ساعدت على تطور طب العظام والرضوض وسهّلت ذلك.

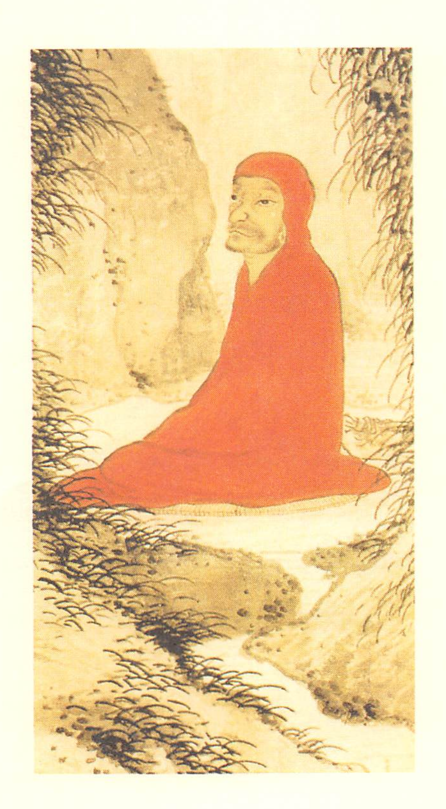
يمكننا القول اختصاراً إن الطاو والووشو تكملان بعضهما بعضاً. يُضاف إلى ذلك الانجذاب والتداخل ما بين مهارات الطاو والووشو، وهو الأمر الذي أدّى إلى سدّ الثغرة بينهما، وذلك في سياق تطويرهما داخلياً وخارجياً من مجرد ضربات جسدية، وتقنياتٍ قتالية، وهو الأمر الذي بشّر بإمكانية غير محدودة للتطور.



الزن والووشو

تعني كلمة تشان وو حرفياً التمارين المندمجة للزن والووشو. تعطي بوذية الزن أهمية كبيرة للتمرين والتدريب بشكلٍ يومي بهدف تحقيق هدف التوصّل إلى البوذية، أو التنوّر، ولهذا من الطبيعي أن تُدمج الووشو في طُرُق تعليم البوذية، والتأمل والتدرب عليها، وبالتالي يصبح من السهل علينا فهم ضرورة دمج الزن والووشو.

تتطلب ممارسة الووشو عقلاً قادراً على التأمل بالإضافة إلى المجهود الجسدي. تضفي الزن على الووشو دلالاتٍ أغنى كما أنها تمكّنها من التعبير عن ذاتها بطريقة حرة، ونقية، ورشيقة، وذلك بهدف ترفيعها إلى حالةٍ تقارب الكمال. أما الووشو فتكمّل بوذية الزن بدورها، وتضفي عليها المنهجيات الفعالة الهادفة إلى استكشاف حالات الوعي الإنساني، بما في ذلك لعب دور المساعد الفعّال على التوصّل إلى حالة التنوّر الفجائية. لكن المرء يعجز عن إتقان بوذية الزن من دون معرفةٍ وثيقة بالبوديدارما ونظرية شاولين للفنون القتالية ومعبدها وممارساتها. (الصورة 2-19)



الصورة 2-19 بوديدارما يحدّق إلى الجدار

بوديدارما يحدّق إلى الجدار. وهي لوحة رسمها سونغ شيو الذي عاش في عهد سلالة مينغ. يُظهر الرسم بوديدارما، وهو رمز البساطة البدائية والتقوى، جالساً في مغارة ومحاطاً بحشائش برية كثيفة. يبدو الراهب البوذي جالساً على وسادة، ومرتدياً ملابس حمراء اللون ومستغرقاً في التأمل.

أسطورة بوديدارما

لا يمكننا تجاهل ثقافة الزن في معرض حديثنا عن الثقافة الصينية، كما لا يمكننا الحديث عن ثقافة الزن من دون أن نذكر بوديدارما، الشخصية الرئيسة في نشأة بوذية الزن.

اشتُهر بوديدارما منذ القِدم بأنه أب بوذية الزن الصينية، وهو الذي زرع في الصين وعدَ بوذا بشأن «تجاوزٍ خاص للكتب المقدسة؛ وهو تحوّلٌ لا يستند على الكلمات أو الحروف»، و«تشغيل المرء لعقله مباشرة». تجذّرت الزن بعمق في الأراضي الصينية، كما شهدت تطوراً سريعاً، وهو الأمر الذي كوّن مذهباً بوذياً جديداً اسمه بوذية الزن (تشان باللغة الصينية الأصلية) وهي التي تشكّلت بميزاتٍ صينية مميزة. يمكننا القول بهذا المعنى إن بوديدارما كان شخصية أساسية أسهمت في تقديم فلسفة الزن إلى الصين؛ سواء أكانت بالنسبة إلى تاريخ الزن أو التاريخ الصيني.

يُقال كذلك إن بوديدارما كان مرتبطاً مع الووشو الصينية، وكذلك مع ووشو الشاولين بوصفها تمثّل تشان وو (ووشو الزن) على الأخص. ينقل معلمو الووشو إلى تلاميذهم أن «بوديدارما أسّس ووشو الشاولين»، و«نقل بوديدارما الووشو إلى معبد الشاولين»، وهو مشهور جداً في الأوساط الدينية، كما يشيع اسمه في أحاديث معلمي الووشو، وكذلك العلاقة بين بوديدارما وووشو الشاولين، وهي التي أصبحت كلها مواضيع للأبحاث في هذه الأيام، والتي تدرس مصدر تشان وو وتطورها.

أما الأسطورة القائلة إن «البوديدارما هو الذي أنشأ ووشو الشاولين»، فإنها تعود إلى مقدمة يي جين جينغ (تغيير تمارين الأوتار) وهو الكتاب الذي حمل مدخله نقش «لي جينغ من سلالة تانغ». اعتبر بعض الرهبان وبعض معلمي الووشو الشعبية أن كتاب تغيير تمارين الأوتار هو الكتاب المقدس لووشو الشاولين، كما ترافق ذلك مع المبالغات التي تحفل بها الروايات والأفلام السينمائية؛ وذلك إلى أن وصل الأمر إلى رفعه إلى مرتبة المعجزات. كانت نتيجة كل ذلك أن الناس بدأوا بالإيمان من دون أدنى شك بأن «بوديدارما هو الذي أنشأ كتاب تغيير تمارين الأوتار

الصورة 2-20 الحركات الاثنتا عشرة الواردة في كتاب يي جين جينغ

يتحدث كتاب يي جين جينغ (تغيير تمارين الأوتار) عن تعزيز مهارة داخلية، والتي تمكّن المرء من تغيير قوة عضلاته وعظامه عن طريق أقنيته الرئيسة والمساعِدة، وذلك عن طريق تعزيز التنفس الذي يساعد على تنشيط طاقة الحياة. كانت هناك في الأزمنة القديمة اثنتا عشرة تقنية وحركة أساسية في يي جين جينغ، بما فيها واي تو شيان (السيد المقدس واي تو يقدم عرضه الذي يشتمل على ثلاث حركات) التوجه نحو النجوم وتغيير Dipper)، وsanpanluodi)إنزال ثلاثة أقسام من الجسم: الكتف والورك والقدمين)، وchuzhualiangchi (مدّ المخالب ونشر الأجنحة)، وdaozhuaijiuniuwet (سحب ذيل الثور إلى الخلف)، وjiuguibamadaog (الشياطين التسعة يشهرون السيف العريض)، وqinglongtanzhua (التنين الذي يمدّ مخالبه)، وwohupushi (النمر الزاحف في هجومه على ضحيته)، وdagongshi وgongweishi (الانحناء).

(الصورة 2- 20). لكن تبيّن بعد ذلك أن الأسطورة القائلة إن «بوديدارما هو الذي أنشأ ووشو الشاولين» ما هي إلا قصة لفّقها الرهبان. يميل معظم الرهبان إلى الاعتقاد أن تغيير تمارين الأوتار كتبه أحد الطاويين الذي يُعرف باسم زن ينغ الذي عاش أثناء حكم تيانتاي من سلالة مينغ. لكن المقدمة كانت من تأليف زن ينغ الطاوي تحت اسم لي جينغ، و«بوديدارما ترك وراءه كتابين مقدّسين يُعرف أحدهما باسم تشي

سوي جينغ (كتاب تطهير الجوهر)، أما الآخر فيُعرف باسم يي جين جينغ (تغيير تمارين الأوتار). يُذكر أن النص الأساسي لكتاب تغيير تمارين الأوتار محفوظ بكل عناية وتقدير في شاولين لتخليد المبادئ الأخلاقية والمهنية للمعلم».

لكنّ ما قيل عن أن «بوديدارما هو الذي نقل الووشو إلى شاولين»، كان كلاماً لا يستند على أي أساس. يعتقد الأشخاص المتمسكون بهذا الرأي أن بوديدارما نقل الووشو إلى معلم الزن، سينغ شو في شاولين. وقد أورد كتاب السجلات الشاملة المدونة في أعوام تاي بينغ بأن معلم الزن سينغ شو كان يمتلك مهارات ممتازة في الووشو. لكن يصعب علينا اعتبار تلك الأقوال دليلاً قاطعاً على صحة القول إن «بوديدارما هو الذي نقل الووشو إلى شاولين». غير أن كتاب حوليات معبد شاولين أورد بأن المعلم سينغ شو، والذي كان أحد تلامذة بادرا، مؤسس معبد شاولين، والذي تحوّل إلى البوذية في معبد شاولين في السنة التاسعة عشرة من حكم تاي هي، هو من سلالة وي الشرقية (سنة 495 بعد الميلاد). لكن بوديدارما لم يأتِ إلى جبل سونغ إلا أثناء حكم شاو شانغ الإمبراطور شياو مينغ (527 بعد الميلاد)، أي بعد سينغ شو بنحو 32 عاماً. كيف تمكن بوديدارما - في هذه الحالة - من نقل الووشو إلى سينغ شو؟ يُضاف إلى كل ذلك أننا لا نجد شيئاً عن بوديدارما خلال ممارسته الووشو في كتاب واي، وأربعة وعشرون تاريخاً، وحوليات معبد شاولين، هذا إذا لم نذكر أي شيء يسجّل عن أن «بوديدارما هو الذي نقل الووشو إلى شاولين».

يمكننا هنا استنتاج أنه بالرغم من الإشاعات التي يتناقلها الناس، فإن ظهور ووشو الشاولين لا علاقة له ببوديدارما. يعني ذلك أنها مأخوذة من الووشو الصينية، والفنون القديمة للحفاظ على الصحة. كانت تلك شان وو بكل سماتها المميزة، والتي ظهرت عن طريق إدخال بيئة محددة من معبد شاولين بكل ما تتميز به البوذية من فن فريد متعلق بتعزيز الذات داخلياً، ثم خضوعها لتطوراتٍ عديدة بعد ذلك.

علاقة البوذية مع الووشو

كانت الزن طريقةَ التفكير في البوذية الهندية، أي كانت ما يمكن أن نطلق عليه نمط التفكير التخيّلي. تحوّلت الزن إلى الصينية بصفتها جينغ لو، أو سي وي شيو (الصورة 2-21). نُقلت البوذية بعد ذلك إلى الصين بواسطة بوديدارما. لكن





الصورة 2-21 رهبان الشاولين أثناء جلسة تأمّل

الجلوس في حالة تأمل هو إحدى التقنيات الأساسية لترسيخ البوذية، وهو يعني الجلوس مع وضع رجلٍ فوق رجل وممارسة البوذية. ويعني ذلك أيضاً تمرين أتباع البوذية العاديين على أمور مثل العلاج الفيزيائي، ومعالجة الأمراض، وتطوير الشخصية الأخلاقية، والاهتمام بالطبيعة، والحفاظ على الصحة، وفهم الطريق نحو الحقيقة.

بالرغم من أن الزن لم تكن شائعة في تلك الأيام، إلا أنها سرعان ما اكتسبت زخماً قوياً، وامتزجت مع التقاليد الصينية الشائعة. يعني ذلك أن ووشو الشاولين التي تطورت تستحق منا اهتماماً شاملاً.

كانت كل الأشياء التي تخالف البوذية - بما في ذلك الووشو - ممنوعة في البداية في المعابد. كانت بعض الأديان الرئيسة في العالم، والبوذية على الأخص، تدعو إلى بعض المبادئ الدينية مثل الزهد، والتعفّف، والتسامح، واللاعنف، وغيرها. لكن بما أن نظرية البوذية وعقيدتها تستندان على انضباط وتعاليم صارمَة، فإن أي إجراء - مثل قتل الماشية، وإلحاق الأذى بالآخرين، والقتال أو حتى الغضب - كان يعني في نظر البوذية تعزيز «الكارما السلبية»، ولذلك سيعاني مرتكب هذه الأشياء من دوراتٍ إضافية من الموت والولادة المتكررة. على سبيل المثال، تقضي الوصية الأولى للبوذية، وهي أهيمسا، باحترام كل الكائنات الحيّة. يعني ذلك أن البوذية تناقض الووشو في المبدأ؛ لأن الأخيرة تهدف إلى التغلب على الخصم.

لكن منذ إدخال البوذية إلى الصين كان عليها معالجة قضية حقيقية وملحة؛ ألا وهي كيفية الاستمرار في نشر الدارما البوذية. لكن بالرغم من أن العقيدة البوذية تطلب من أتباعها التخلي عن كل ما يشتت أفكارهم، وتحرير أنفسهم من عامة الناس الذين يتصرفون بشكلٍ فوضوي أحياناً، إلا أنه يستحيل على البوذيين إلغاء العالم. يُضاف إلى ذلك أنه يتعيّن عليهم نشر الدارما في ذلك العالم، لكن يتعيّن على البوذية إجراء بعض التعديلات من أجل الترويج لهذه الدارما والحفاظ عليها وحمايتها. يعني ذلك ضرورة البدء في علمنة البوذية، وهو الأمر الذي مهّد الطريق لدمج الووشو والزن ومأسستهما (أي إقامة مؤسساتٍ لهما) في أماكن شهيرة مثل معبد شاولين.

كانت الخطوة الأولى في عملية علمنة البوذية هي «مراعاة تقاليد المكان». أما لو بقيت البوذية التي انطلقت من الهند من دون أن تتكيّف مع بيئة الصين وثقافتها وتقاليدها منذ دخولها إلى البلاد، فإنها ما كانت لتتمكن من التجذّر بعمق ومن الوصول إلى ذرى أعظم من التطور. هل كانت البوذية ستحرز نفوذاً وانتشاراً في هذه الحالة؟ تختلف الصين عن الهند بالنسبة إلى المناخ، والثقافة، والظروف. أما في الهند، فلو أن الرهبان البوذيين لم يمتلكوا أي شيء ليأكلوه فبإمكانهم العيش على الفواكه التي تنمو في البرية، لكن في المقابل لو امتنع البوذيون الصينيون عن التسوّل للحصول على الطعام بتأثيرٍ من البوذية، فإنهم سيموتون جوعاً في بيئة أقسى بكثير من بيئة الهند. يُضاف إلى ذلك أن الذين يعتمدون على التسول، ويتجنبون العمل يُنظر إليهم على أنهم من مستوى أدنى من غيرهم.

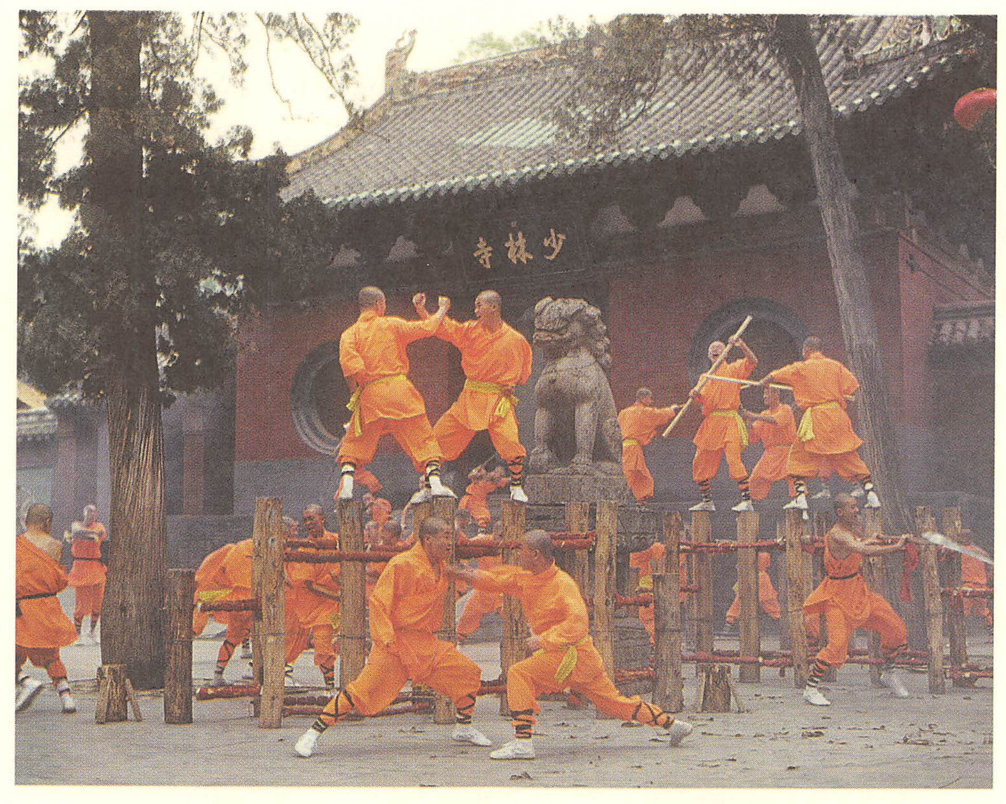
اضطر البوذيون إلى تغيير الطقوس البوذية التي تسمح بالتسول، وذلك بإضافة خصائص هندية إلى تلك الطقوس تركز على إقامة المعابد ووعظ الناس، وقد فعلوا ذلك بتأثيرٍ من مختلف الظروف المناخية، وكذلك البيئة الاجتماعية والثقافية المتشعبة. اكتسب الرهبان بعد إجرائهم هذه التغييرات أمكنة تمكّنهم من ممارسة طقوسهم؛ وهو الأمر الذي لم يسهّل عملية الترويج للبوذية فقط بل مكّنهم أيضاً من كسب احترامٍ اجتماعي بسبب اكتفائهم الذاتي وإنتاجيتهم.

لكن البوذية فشلت بالرغم من كل ذلك في تكييف نفسها مع المجتمع

الصيني فور إعادة هيكلة التقاليد البوذية في الصين. واجهت البوذية مشكلة أخرى تمثلت في أمن معابدها. لكن منذ إنشاء «نظام كونغ - لين» تطورت المعابد البوذية لتصبح وحدة اقتصادية مستقلة. وقد سمح ذلك النظام للمعابد العادية بامتلاك قطعٍ كبيرة من الأراضي، وذلك عن طريق تقديم الحاكم هباتٍ للمعابد بين وقتٍ وآخر. يعني ذلك أن الأراضي لم تعد مجرد أعظم موجودات المعابد فقط، بل أصبحت الأساس الاقتصادي لبقائها وتطورها. لكن في فترةٍ سابقة من الزمن، والتي تفشّت فيها عصابات قطاع الطرق واللصوص، تحوّلت المعابد البوذية التي بقيت من دون حماية إلى أهدافٍ سهلة لهجمات تلك العصابات ونهبها. واجهت المعابد تحدياً كبيراً لها في كيفية حماية ممتلكاتها. واضطر الرهبان إلى استخدام أدواتهم اليدوية لحماية أنفسهم ومعابدهم، وهكذا بدأت ووشو المعابد البدائية بالظهور والتطور.

يتضح من كل ذلك أن علمنة البوذية كانت الأساس والمجال لدمج الزن والبوذية، ومأسستهما في المعابد البوذية مثل الشاولين. ظهرت ووشو المعابد في هذا السياق من العلمنة، مع شعور البوذية بالحاجة إلى الووشو، وما رافق ذلك من تحول ممارسي الووشو إلى مريدين مبتدئين. (الصورة 2-22)

يُضاف إلى ذلك أن الأخلاقيات الاجتماعية والبيئة الثقافية للمناطق التي تواجدت فيها المعابد أثّرت إيجابياً على ووشو المعابد. لكن وثائق السجلات المحلية في منطقة جبل سونغ، ومنذ حقبة الربيع والخريف والدول المتحاربة، تُظهر انتشار الروح القتالية القوية على مدى زمنيّ طويل في المنطقة المحيطة بجبل سونغ، أي حيث تواجد معبد شاولين. لكن خلال حقبة الربيع والخريف كانت المنطقة المحيطة بجبل سونغ مركزاً لمواجهاتٍ مستمرة بين دولتَي جين وتشو. خاضت الدولتان معارك شرسة حول منطقة شاولين، وذلك على مدى عقودٍ من الزمن. لكن بعد انقسام دولة جين إلى ثلاث دول، هان، وتشاو، ووي، تحولت المنطقة إلى مركز جذبٍ للمنازعات بين دولتَي هان ووي. يُضاف إلى ذلك أنه مع التطورات التاريخية والتغيرات التي شهدتها السلالات الحاكمة، امتلك كل الحكام طموح التزاحم لإحكام السيطرة على السهول الوسطى. ساد الاعتقاد في ذلك الوقت بأن «مَن يسيطر على السهول الوسطى فسوف يصبح الملك». إذ لعبت



الصورة 2-22 رهبان الشاولين أثناء تمارينهم الثنائية

السهول الوسطى دوراً حاسماً في طريق الطموح للوصول إلى العرش، كما أن جبل سونغ موجود في تلك المنطقة بالذات. في هذه الحالة، ليس من العجب أن يتمرن الرهبان البوذيون في تلك المنطقة المحيطة بجبل سونغ، أي حيث سادت الروح القتالية والثقافة العسكرية لفترةٍ كبيرة من الزمن، وأثّرت على التقاليد المحلية فيها.

أما سلالة تانغ التي رافقت أكثر الفترات مجداً في التاريخ الصيني، فقد شهدت تطوراً رائعاً في جميع مناحي الحياة. وقد أدى ظهور بوذية الزن إلى تأثير واسع على جميع مناحي الحياة في الصين، وهو الأمر الذي مكّن الحضارة الصينية من الاندماج مع حضارات خارجية أخرى، وساعدها على تحقيق التطور المشترك معها.



اعترفت البوذية في سنين سابقة بوجود الووشو من أجل بقائها وتطورها. لكن ذلك الوجود كان سرياً وثانوياً نوعاً ما، وهكذا لم تشهد البوذية والووشو اندماجاً شاملاً. تدل الوقائع أيضاً على أن البوذية اتخذت الووشو وسيلة لحماية معابدها، وذلك باستخدام أدوات مثل المعول أو المكنسة. يُقال كذلك إن سينغ شو كان تلميذ بادرا الذي أسّس معبد شاولين. لكن سينغ شو كان نجماً لامعاً في الووشو قبل أن يصبح راهباً، وكان باستطاعته «القفز إلى قمة عمود، ورفع وزنٍ يبلغ ألف جون، وكان بإمكانه أن يلاكم بسرعة وجرأةٍ كبيرتين إلى حد إرعاب الحيوانات». كان بادرا معجباً بمهارة سينغ شو في الووشو، لكنه أنّبه على تدرّبه بطريقة سرية في الليل. وبغضّ النظر عمّا إذا كان ذلك صحيحاً أم لا، فإن هذه القصة ذاتها تدل على أنه في ذلك الوقت كانت هناك فجوة بين البوذية والووشو، ولم يكن بالإمكان قبول الووشو علناً وبشكلٍ مقنع في البوذية. لكن، وبالرغم من كل ذلك، ومع تطور بوذية الزن بما تشتمل عليه من شمولية وانفتاح وروحٍ ثورية، أسبغت على الووشو وضعاً شرعياً ومنحتها حيوية جديدة.

وحدة الزن والووشو

استمتع الناس منذ القدم بالحديث عن ووشو الشاولين؛ ليس فقط بسبب قوتها وروحيتها الشجاعة، ولكن بسبب دلالاتها الشاملة والواسعة أيضاً. أما إذا أخذنا ملاكمة الشاولين مثلاً، فإننا نلاحظ فيها المبدأ التوجيهي «وحدة الزن والملاكمة». لكن، ما هي «وحدة الزن والملاكمة» هذه؟ باستطاعة المرء، وبحسب ما جاء في تاريخ معبد الشاولين وثقافته الذي ألّفه شو شانغ جينغ وفريقه، أن يحوز على قدرٍ كبير من فهم «وحدة الزن والملاكمة» باتّباع الطرق الثلاث التالية. أولاً، تتواجد الملاكمة والزن في معبدٍ واحد، وهذا يعني أن معبد الشاولين ليس معبد بوذية الزن التراثي، ولكنه مكان مقدس للووشو كذلك. ثانياً، لا يكتفي كل راهب بالجلوس متأملاً، بل يستطيع التدرب على الووشو كذلك (الصورة 2-23). ثالثاً، وكما هي الحال بين الزن وملاكمة الشاولين، يوجد شيء من كل واحدة في الأخرى. وبهذا المعنى، يمكننا القول إن الزن وملاكمة الشاولين مندمجتان إلى حدٍّ كبير، وتكملان بعضهما بعضاً. ويعني ذلك أن «وحدة الزن والملاكمة» ليست ببساطة جمع الملاكمة مع

الزن، بل هي دمج عضوي للبوذية والووشو في نظامٍ شاملٍ ومتماسك.

تشدّد بوذية الزن أولاً وقبل كل شيء على الوعي بالحقيقة، وتدعو إلى تهذيب الذات من القريب نحو البعيد، ومن الخارجي إلى الداخلي، وتشدّد كذلك على أن «طبيعتك هي طبيعة بوذا». يعني ذلك أن هدف الطقوس وطُرقها هو معرفة القلب والطبيعة عن طريق الانطلاق من ذاتك. بكلمات أخرى، يمكننا القول إنها ثابتة في السعي وراء الهدف الأسمى، والذي يتمثّل في «إدخال الإلهام إلى طبيعة العقل»، لكن بوذية الزن مرنة جداً بشأن الوسائل التي يُحتمل أن يتخذها هذا التنوّر. غير أنه طالما أن المرء يتمكّن من ضمان إدخال الإلهام الفجائي إلى طبيعة العقل، فسوف يكون بإمكانه استخدام أي وسيلة. ويؤدي هذا المبدأ الأساسي إلى إرساء أساسٍ قوي لدمج الزن والووشو.



الصورة 2-23 لوحة تمثّل راهباً بوذياً في جلسة تأملٍ عميقة

رُسمت هذه اللوحة في عهد سلالة تانغ، وعُثر عليها في الكهف رقم 17 من مغاور دونهوانغ الواقعة في مقاطعة غانسو، وهي محفوظة في المتحف البريطاني في لندن. يُعتبر الجلوس في وضع التأمل هذا إحدى تقنيات الحفاظ على الصحة وتنمية العضلات. إذ يُغمض المتدرب عينيه، ويجلس واضعاً ساقاً فوق ساق، وينسّق حركات أنفاسه إلى الداخل والخارج، ثم يمتنع عن التفكير في أي شيء بينما يمدّ يديه في الوضع المناسب. يساعد الجلوس في وضع التأمل ليس فقط على الحفاظ على الصحة وإطالة العمر، بل يمكّن المتدرب من الحصول على التنوّر الفجائي أيضاً. يُعتبر الجلوس في وضع التأمل خلال ممارسة الووشو الصينية مهارة تهذيبية داخلية تساعد على تعزيز مواردنا الطبيعية وتقوية عقولنا.

ثانياً، تعتبِر بوذية الزن «التخلي عن الرغبة» مبدأها الأسمى؛ وهو الأمر الذي يتطلب من الناس التخلي عن كل الأفكار الأخرى، والابتعاد عن الأمل العبثي. أما في ما يتعلق بممارسة الووشو وطرقها القتالية، فيُطلب من الممارس استبعاد كل الأفكار التي تشتت الذهن، وتكريس نفسه للتدريبات والقتال الفعلي؛ وذلك بهدف التوصل إلى أعلى مرحلة من مراحل عدم التفكير. ويعني ذلك أن الزن والووشو يتطلبان القدر ذاته من التركيز الكامل والمطلق. يستتبع ذلك أن الفلسفة ووسائل التدرّب في بوذية الزن تُعتبر عاملاً مساعداً بالنسبة إلى متدربي الووشو بهدف تهذيب تركيزهم العقلي، وتحسين مهارات الووشو عندهم. تعتبر بوذية الزن أن «الحياة ليست سوى حلم، أما الموت فهو أبدي». لكن، من



الطبيعي أن مفهوم «وحدة الحياة - الموت» يتوافق مع تقاليد «بسالة المحاربين، وعدم الخوف قبل الموت». ويستتبع ذلك أن ممارسي الووشو في بوذية الزن أنقياء، ومستقيمون، وواثقون من أنفسهم، ومتمكنون من ضبط أنفسهم، ولذلك بإمكانهم الوقوف فوق الموت والحياة؛ وهو الأمر الذي يمكّنهم من رفع شجاعتهم وجرأتهم إلى المستوى الأعلى في أوقات القتال الفعلي. يمكننا القول كذلك إن مبادئ الووشو ومبادئ بوذية الزن متماثلة في الجوهر من نواحٍ عدة، وهو الأمر الذي يقيم جسراً قوياً من التفهم ما بين بوذية الزن والووشو. (الصورة 2-24)

يمكننا القول أخيراً إن بوذية الزن تشدّد على «اكتساب وعيٍ ذاتي لطبيعة العقل»، وذلك عن طريق «التخلي عن الرغبة»، و«الوصول إلى التنور» عن طريق تهذيب الذات بهدف تحقيق الحرية. لكن في المقابل، تهدف الووشو إلى تحقيق أقصى حدٍّ من الحرية الشخصية، والوصول إلى حالة من العفوية في الملاكمة من خلال التدريب الجسدي القاسي. قال بروس لي إن ممارسة الووشو لا تهدف إلى سحق قطعة خشب، أو قطعة من الحجر، ولكنها تهدف إلى التغلب على الزيف والجبن بالنسبة إلى قيود المرء والاحتفاظ برؤية تهدف إلى تأمين الحرية الروحية القصوى.

ونتيجة لكل ذلك، يمكننا القول إنه مع ظهور بوذية الزن تمكّنت الووشو من دخول المعابد، وهي التي تطورت من وظيفتها الأصلية كوسيلة للدفاع عن المعبد وحمايته لتصبح نهجاً متكاملاً للتأمل، والسيطرة على الذات قبل أن تبلغ ذروتها في تحقيق «وحدة الزن والووشو».



الصورة 2-24 رهبان الشاولين يتدربون على الووشو



الفنون القتالية
الووشو الصينية

الفصل الثالث

رؤية الووشو الرائعة

مصادر الأسلحة وأنواعها

يشتمل كتاب الطقوس على نداءات لحمل السلاح مثل، «تناول درعك وفأسك لحماية البلاد»، والدرع جان هنا يشير إلى ذلك النوع الذي كان يدعى دون في دولة تشين، ويسمى جان في الدول الست الأخرى. أما جي (الخنجر - الفأس) فهو نوع من أنواع الأسلحة الهجومية، وهو أشبه ما يكون بالحربة الطويلة الحديثة والمزوّدة بفأسٍ في طرفها الآخر. كانت الفؤوس - الخناجر والدروع كثيرة الاستخدام في الأزمنة القديمة، وكان يُشار إليها على أنها أسلحة الحرب. يمكننا أن نلاحظ من كل ذلك أن تلك الأسلحة بوصفها أدوات الدفاع عن النفس كانت أقرب ما تكون إلى أسلحةٍ حربية.

ظهور الأسلحة

شجّعت الحروب التي كانت تنشب في المراحل المبكرة من المجتمعات البدائية على ظهور الأسلحة. كانت الأدوات الحجرية في العصر الحجري القديم تلعب دوراً مزدوجاً، وكانت معظم أسلحة الووشو أدوات تُستخدم للعمل في البداية. وهكذا، لم تكن العصي الخشبية على سبيل المثال أكثر الأدوات استخداماً في الإنتاج والزراعة فقط، ولكنها كانت غالباً ما تتحول إلى أسلحة للقتال. كانت تلك الأدوات تستخدم في الصيد وتجميع الحصاد، وكذلك كانت أسلحة في أوقات القتال. (الصورة 3-1)




الصورة 3-1 وو سونغ يقاتل النمر (بريشة ليو جي يو)

وردت قصة «وو سونغ يقاتل النمر» ضمن كتاب الخارجون عن القانون في المستنقع الذي كتبه تشي نايان. تروي هذه القصة كيف أن وو سونغ، وهو أحد الأبطال في جبل ليانغ، واجه نمراً في طريقه إلى المنزل. كان سونغ ثملاً، لكنه استطاع أن يضرب ذلك الوحش حتى الموت، وهكذا خلّص المنطقة من شرٍ هدّد جميع سكّانها. كانت أعماله البطولية قصة مشوّقة على شفاه الجميع. لكن السلاح الذي استخدمه وو سونغ لضرب النمر لم يكن سوى عصا.



الصورة 3-2 حربة مصنوعة من عظم السمك

صُنع هذا السلاح في فترة العصر الحجري الوسيط، وخلال المرحلة الثالثة من حضارة بايليان دونغ، وتم اكتشافه في كهف الجنيّة في وانيان، مقاطعة جيانغ شي.

كانت الشعوب البدائية تستخدم العصي الحجرية والخشبية ذات الأطراف الحادة، أو الجوانب القاطعة كأسلحة. لكن في أواسط العصر الحجري القديم ظهرت أدوات مركّبة. ظهرت في ذلك الوقت الحربة المصنوعة من عصا خشبية برأس حاد ورأس فأس، وهو أمر دلّ على تقدّم تقنيٍّ هام. أما في العصر الحجري المتأخر، فقد ظهرت أنواع متعددة لأدوات أكثر تعقيداً، ومعظمها اشتمل على أجزاءٍ من العظام مثل رؤوس السهام العظمية، والرماح المصنوعة من العظام، والرماح المصنوعة من عظام السمك وغيرها (الصورة 3-2). كانت هذه الأدوات المركبة أكثر قدرة على التدمير وإنزال الأذى بالخصوم. أما في أوائل العصر الحجري، فكانت المصنوعات الحجرية الشبيهة بالأسلحة تنقسم إلى سبع فئات: امتلكت بعض الأسلحة طرفاً أمامياً برأسٍ غير حاد، بينما كانت مقدمة القسم الظاهر منها بشكلٍ حافةٍ بارزة وقاطعة؛ حيث تكون حافة هذه الأداة بارزة وبيضاوية، أما بعضها الآخر فقد تميّز بحافةٍ مستديرة وبجانب بشكلٍ كلية، في حين اشتمل بعض هذه الأدوات على زاوية حادة في أقصى مقدمتها، وقسمٍ أوسطٍ بارز مع عمود سميكٍ بشكل سيف، وكذلك على حافةٍ خلفية. وقد امتلكت بعض هذه الأدوات نهايةً أمامية مع حافة بثلاثة أسطح، وقسماً أوسط، وعموداً سميكاً مثلث الصورة وحافةً خلفية، وغير ذلك من الأشكال. لكن الواقع هو أن تلك الأدوات كانت تُستخدم غالباً في الزراعة والصيد.

أما في العصر الحجري الحديث، ومع التحسّن الذي طرأ على كفاءة الإنتاج، امتلك البشر تقنيات معالجة أكثر تقدماً تُستخدم في الطحن والحفر، بالإضافة إلى أسلحة أكثر تطوراً للأغراض القتالية. تتميز مصنوعات الحجر والعظام بالإتقان والدقة، حتى إنه يمكن مقارنتها مع الأعمال الحديثة المصنوعة من الحجر.



الصورة 3-3 آلية إطلاق الأقواس متعددة السهام التي ظهرت خلال حكم سلالة مينغ. هذا الرسم مأخوذ من مجموعة الكتابات العسكرية المبوبة

القوس والنشاب نوعٌ من أنواع الأقواس المستخدمة لإطلاق سهامٍ عدة عن طريق قوة آلية. تظهر هنا آلية إطلاق سهام متعددة، والتي ظهرت في كتاب مجموعة الكتابات العسكرية المبوبة خلال حكم سلالة مينغ، وتظهر هنا أدوات الأقواس والأسلحة العريضة بما يكفي لوضع أربعة سهام، وهكذا يصبح بالإمكان إطلاق السهام على التوالي وبقوةٍ رهيبة. يمكننا اعتبار هذا السلاح قوساً قوياً بعيد المدى.

أوردت إحصاءات كتاب تاريخ الأسلحة الصينية الإحصائي، أن أسلحة العصر الحجري الحديث تنقسم إلى خمس فئات، أي الفؤوس والأزاميل الحجرية، والسكاكين ورؤوس السهام الحجرية، والفؤوس - الخناجر الحجرية، والفؤوس القتالية، وكذلك الرفوش والمعاول الحجرية.

شهدت الفترة المتأخرة من العصر الحجري الحديث حروباً طويلة ومستمرة بين القبائل؛ وهو الأمر الذي مكّن الشعوب البدائية من تطوير الأدوات التي كانت مستخدمة للزراعة لتصبح أسلحة تتوزع ما بين الأغراض الهجومية والدفاعية، مثل الأسلحة القاذفة؛ بما فيها الأقواس والسهام، والحجارة المربوطة بحبال، وغير ذلك؛ وكذلك الأسلحة القتالية التي اشتملت على العصي الخشبية، والمطارق الحجرية، والحراب الحجرية (أو العظمية)، والفؤوس الحجرية، وفؤوس القتال الحجرية وغيرها. أما الأسلحة الدفاعية فاشتملت على الخناجر الحجرية، والسيوف العريضة الحجرية وغيرها. اشتملت الأسلحة الدفاعية على



الصورة 3-4 درع حجري

تم الكشف عن هذا الدرع في حفرة الكماليات التابعة لإمبراطور تشين. وهو مصنوع من قطع حجرية رمادية وغالبيتها مستطيلة الشكل، أو بشكل شبه منحرف متساوي الساقين، أو مستدير، وغير ذلك من الأشكال. توجد كذلك بعض القطع الحجرية ذات شكلٍ خاصٍ بمناطق محددة من الجسم. توجد على الدرع الحجري ذاته بعض الفجوات الصغيرة، سواء أكانت مستديرة أو مربعة، والتي تخترق القضبان النحاسية المسطحة.

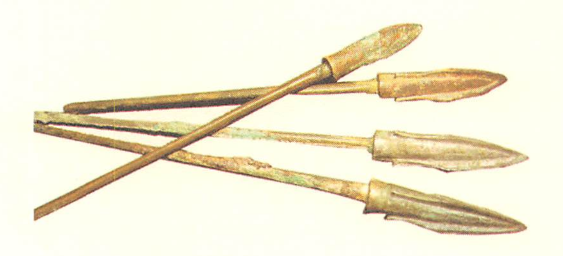


الدروع المصنوعة من جلد الخنزير، والدروع الواقية المصنوعة من الخيزران، أو حتى من الحجر، أو من العظام (الصورة 3-4) وغير ذلك من الأسلحة. لكن معظم الأدوات الزراعية تلك، أو الأسلحة البدائية، كانت نسخة غير مطوّرة من الأسلحة القديمة. كانت معظم هذه الأدوات، مثل العصا، والفأس، والفأس الحربية، والحربة، والسيف العريض، وغيرها، مشمولة في كتاب «أسلحة الووشو الثمانية عشر»، وذلك إذا استثنينا القوس والسهام.

العصر البرونزي

دخلت الصين العصر البرونزي في عهد سلالة شيا، لكن ظهور الآنية المصنوعة من البرونز في المجتمع البشري كان مبشراً بدخول العصر المعدني. يمكننا القول تبعاً لذلك إن تطوير الأسلحة دخل مرحلة تاريخية جديدة.

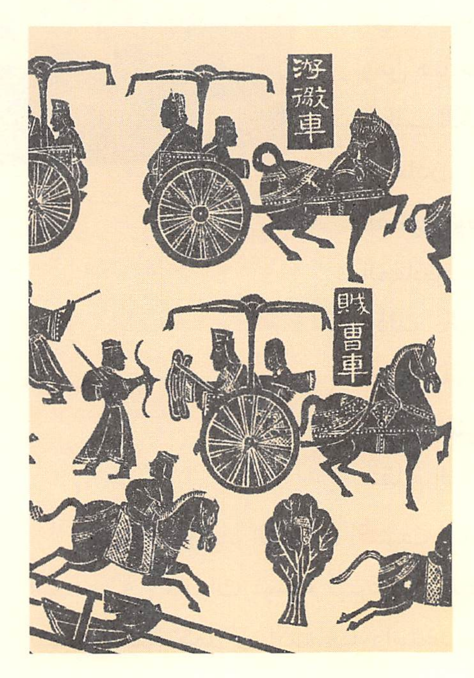
كان البرونز المورد والثروة الأكثر أهمية في عهدَي سلالتَي شانغ وتشو. ومن المعروف أن البرونز - بسبب صلابته ولدونته - معدن مناسب جداً لصناعة الأسلحة. أما في العام 1975، وبعد اكتشاف علماء الآثار سيفاً عريضاً مصنوعاً من البرونز بين بقايا آثار لينجيا مماثلاً لطراز ماجياياو، وذلك في إقليم دونغ شيانغ التابع لمقاطعة جانسو، تمكنوا من التأكيد على أن هذا السيف يعود بصناعته إلى نحو العام 4800 قبل الميلاد، وأكدوا كذلك أنه أقدم قطعة برونزية مصنوعة تم العثور عليها حتى الآن. لكن بسبب المعرفة المحدودة التي كان القدماء يمتلكونها في الصهر وعلم المعادن، لم يكن باستطاعتهم في تلك المرحلة المبكرة استخدام النحاس سوى لصناعة الأسلحة القصيرة، مثل رؤوس السهام (الصورة 3-5)، ورؤوس الحراب، وغير ذلك. شهدت سلالة شانغ إنتاجاً غزيراً من الأدوات البرونزية، لكن معظمها كان يُستخدم كأوعية لتقديم القرابين والأسلحة.



الصورة 3-5 رؤوس السهام الحجرية

صُنعت رؤوس السهام هذه من البرونز في عهد سلالة شانغ، وكانت تُستخدم إلى جانب الصيد في ميادين المعارك بوصفها مقذوفات.

كان الأسلوب الغالب في القتال أيام سلالتَي شانغ وتشو هو معارك العربات. أما الأسلحة المستخدمة في معارك العربات فتنقسم إلى ثلاث فئات: الأقواس والسهام والتي تُعتبر أسلحة قاذفة، والفؤوس - الخناجر والرماح والمطارد التي تُعتبر أسلحة قتالية، والسيوف التي استُخدمت كأسلحة دفاعية. لكن الفؤوس - الخناجر كانت الأكثر استخداماً في تلك المعارك. وبسبب إمكانية استخدام الحراب لقذفها في خط مستقيم، واستخدام الفأس - الخنجر للإمساك بالطريدة، فإن القدماء الذين عاشوا في فترة حكم سلالة شانغ قاموا بجمع الأداتين لصنع سلاحٍ جديد وهو المطرد، وهو السلاح الذي يمكن استخدامه في معارك العربات وقذفه إلى الأمام والإمساك بالخصم. أورد كتاب حوليات ربيع وخريف يان زي أن، «المطرد يُستخدم للإطباق على الرقبة، بينما يُستخدم السيف لغرزه في القلب». يُضاف إلى ذلك أن الأسلحة التي كانت من نوع شو (عصا طويلة من الخيزران) والمزخرفة بمقبض كروي في طرفها الأعلى صُنعت من أجل تلبية احتياجات معارك العربات. وردت هذه الأسطر في كتاب شعر تشو: ترنيمة إلى أرواح الجنود الذين قُتلوا في الحرب: كان المحاربون الذين يحملون الرماح ثلاثية الرؤوس ببسالة يتمتعون بحماية دروعٍ مصنوعة من جلد وحيد القرن، بينما تتصادم محاور العجلات مع بعضها بعضاً، وتنغرز الخناجر والسيوف في الصدور، وتُقطع الرؤوس، وتغطي الرايات واللافتات السماء، بينما يغطي



الصورة 3-6 لوحة جصية تمثّل إحدى معارك العربات، وهي موجودة في ضريح أسرة وو التابعة لسلالة هان

كانت المعارك التي تلعب فيها العربات دوراً رئيساً في الحروب التي كانت تجري في الصين القديمة تسمى معارك العربات. وكان استعمال تلك العربات يعتبر التكتيك الرئيس في ميادين المعارك القديمة في فترة شانغ - تشو. كان الجنود يستخدمون في تلك المعارك أسلحة طويلة أو مقذوفات يلقونها من عرباتهم.



الصورة 3-7 درع من البرونز

كان هذا الدرع سلاحاً مستخدماً في الحروب القديمة لأغراضٍ دفاعية أثناء الهجوم، وذلك لحماية الجسم وردّ الأذى عن حامل الدرع، ورد السهام أو الحجارة التي يلقيها العدو. كانت الدروع تُستخدم غالباً مع عددٍ من الأسلحة الأخرى (مثل السيوف العريضة، والسيوف العادية وغيرها) من أجل الوخز والقتال وجهاً لوجه. كانت الدروع ذات أنواعٍ وأشكالٍ عديدة، فقد كانت مستطيلة، أو مستديرة، أو متدرجة، بالإضافة إلى النوع العريض الذي كان مزوداً بمقابض من الخلف.

جنود الأعداء نور الشمس كالسحب، وتتطاير السهام مثل زخات المطر وتهبط مخترقة الصدور، ويقوم حشود الرجال من الجانبين بالهجوم». إنها لوحة حيّة لمعارك العربات التي كانت تجري خلال حكم سلالتَي شانغ وتشو. (الصورة 3-6)

كانت حقبة الربيع والخريف والدول المتحاربة حقبة من التحوّل الجذري، كما انقسمت الدولة إلى أقاليم متعادية ومتنافسة، بينما تتالت الحروب بشكلٍ دائم. لم توفر جميع الدول أي جهد في تحسين أسلحتها، وإنتاج كميات وفيرة منها، ومن هنا جاء تعبير «سباق التسلّح» المتواصل. أدى الطلب الكبير على الأسلحة إلى تطوير تقنيات علم المعادن، وهو الأمر الذي سمح بتطوير الأسلحة القصيرة وصغيرة الحجم إلى فؤوس؛ كخناجر ذات المقابض الطويلة والحراب والأقواس والسهام، وذلك بالإضافة إلى أجهزةٍ للحماية مثل الدروع البرونزية، والدروع والعربات القتالية (الصورة 3-7). بشّرت تقنية الصهر والصبّ المعقدة، ومهارة الصب بتقدم الصناعة الإنتاجية في الصين القديمة.

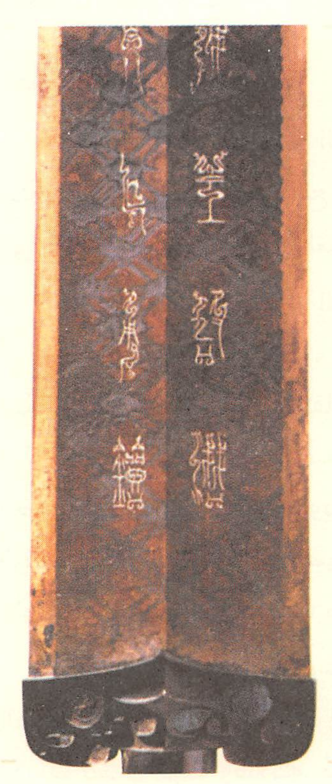
لكن مع ازدياد المعرفة، اكتشف الناس أن خصائص بعض المعادن من شأنها التسبب في تغيرات نوعية كبيرة إذا أضيفت كعناصر مساعدة. وظهرت السبائك نتيجة لذلك، كما أن اكتشافها واستخدامها على نطاق واسع سهّل تطوير علم المعادن. كانت صناعة السيوف في وو، ويي، وتشو متقدمة بشكلٍ جيّد. ظهر في تلك الفترة عدد من الصناعيين المهرة في صناعة السيوف من أمثال أوو يي زي، وفنغ هو زي، وجان جيانغ، ومو يي، وغيرهم. صنع هؤلاء الصناعيون بعض السيوف الخالدة مثل سيف لونغ يوان، وسيف تايا، وسيف جان جيانغ، وسيف مويي، وغيرها. كان سيف جوجيان هو الأشهر بينها (الصورة 3-8). يأخذ هذا السيف شكل معيّن

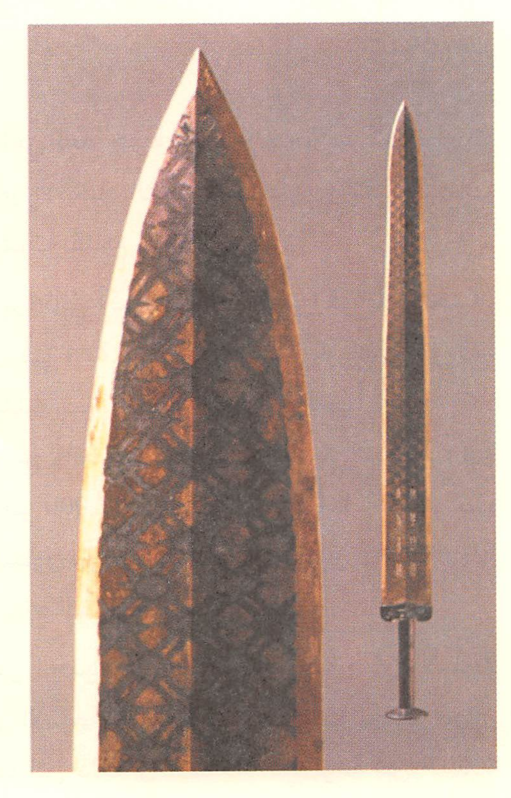
أسود، ويتميّز بأنماطٍ زخرفية تغطيه، بينما طليت حافته بالطلاء الأملس باللونين الأزرق والفيروزي. كان مقبض السيف ملفوفاً بخيوطٍ حريرية، أما رأسه فكان منحنياً ومزيّناً بإحدى عشرة دائرة ذات مركز واحد. كان الجانب الأيمن من ذلك السيف البرونزي مختوماً بأحرفٍ على امتداد صفّين تشكل كلمتَي «سيف جوجيان». كان هذا «السيف ذو الرقم واحد» تجسيداً لتقنية سكب النحاس التي كانت معقدة إلى درجة أنه يستحيل تقليده، حتى مع استخدام التقنية الحديثة المتقدمة.

أما خلال حكم سلالة تشين فقد استمرت الأسلحة البرونزية في لعب الدور

الصورة 3-8 سيف الملك جوجيان من دولة يوي

اكتُشف في شهر كانون الأول من العام 1965 سيف برونزي نادر كان موجوداً في المدفن رقم 1 في وانغ شان في ليانغ لينغ من مقاطعة هوبي. يتناسب حجم هذا السيف مع غمده جيداً. يلمع السيف عند إشهاره مثلما يلمع الجليد والثلج. يُضاف إلى ذلك أن نصله لا يصدأ، كما أن حافته حادة جداً إلى درجة أنه بإمكان السيف اختراق رزمة تحتوي على 20 ورقة.







الأبرز من بين كل أنواع الأسلحة. كُشف منذ وقتٍ قريب عن عدد كبير من تماثيل المحاربين والجياد المصنوعة من الطين، والتي كانت في مدفن أول إمبراطور لمملكة تشين.

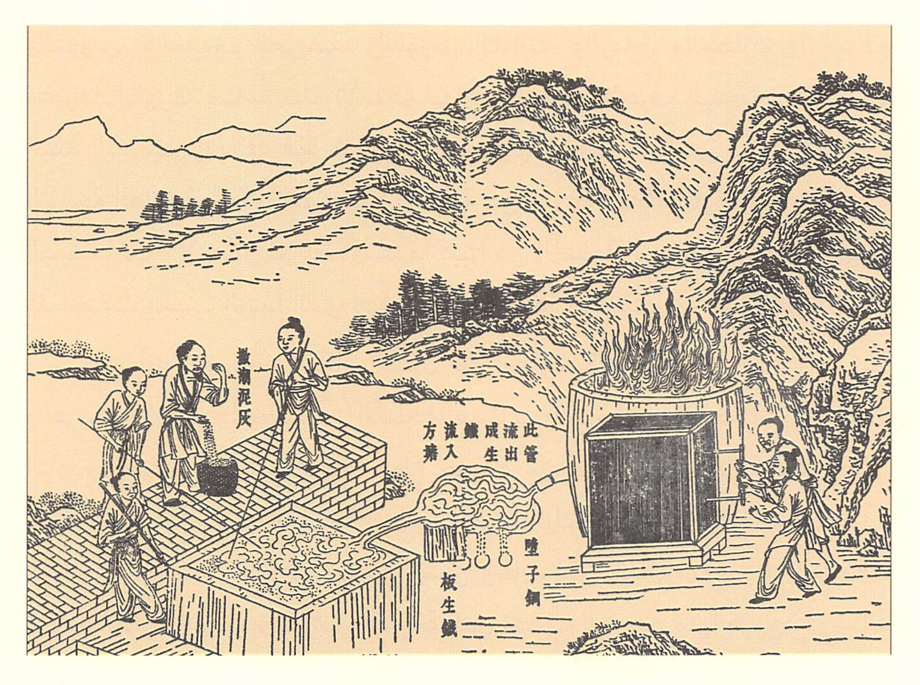
كانت كل الأسلحة التي وُجدت مع المحاربين تقريباً مصنوعة من البرونز، ما عدا حربة واحدة صُنعت من الفولاذ. لكن تلك الأسلحة كانت متخلفة نسبياً إذا قورنت مع أسلحة الدول الست الأخرى. وقد اشتملت الأسلحة التي كُشف عنها في مدفن أول إمبراطور لمملكة تشين على أسلحة طويلة مثل الحراب المصنوعة من البرونز، والخناجر - الفؤوس، والفؤوس القتالية، والمطارد وغيرها، وكذلك الأسلحة القاذفة مثل الأقواس، وعدد كبير من رؤوس السهام البرونزية وغيرها. أما شو فكان سلاحاً طويلاً استخدمه رجال حرس الشرف. كانت تلك الأسلحة البرونزية أكبر حجماً بالمقارنة مع الأسلحة التي سبقتها، كما امتلكت كذلك قوة تدميرية أكبر، ومجالات تحكمٍ أوسع.

عصر الحديد

دخلت الصين المجتمع الإقطاعي بعد حقبة الدول المتحاربة، كما تطورت صناعة الصَهر بسرعة كبيرة مع تطور الاقتصاد الإقطاعي والعلوم والتقنية. يُضاف إلى ذلك أن ذروة صناعة الأسلحة بشّرت بقدوم عصر الحديد.

كانت صناعة التنقية (أو التكرير) ثاني أكبر الصناعات تطوراً في تلك الحقبة، أي كانت خلف الزراعة فقط. لكن في فترة مبكرة من حقبة الربيع والخريف، تمكّن الشعب الصيني من إتقان تقنية صهر الحديد المعقدة نسبياً (الصورة 3-9). تمكّن الصينيون مع نهاية حقبة الربيع والخريف من صنع الحديد المصبوب (أو الحديد الخام) أي سبقوا أوروبا بنحو 2,000 سنة في هذا المجال. أما السبب الرئيس الذي جعل صناعة الصهر تتطور سريعاً جداً فهو أن الصين كانت الدولة الأولى في العالم التي تمكنت من إنتاج الحديد في أفران الصهر.

تمكنت الأسلحة المصنوعة من الحديد من الحلول تدريجياً مكان الأسلحة البرونزية، ومن لعب الدور الأبرز بين الأسلحة، وذلك لوفرة مخزونات الحديد الخام، وكذلك بسبب قوته وصلابته. يُضاف إلى ذلك أن الأسلحة المصنوعة من الحديد



الصورة 3-9 رسم يمثّل تقنية صهر الحديد. أما اسم هذه اللوحة فهو استغلال أعمال الطبيعة

استغلال أعمال الطبيعة عمل ضخم حول العلوم والتقنية من تأليف سونغ ينغ شينغ الذي كان أحد العلماء في عهد سلالة مينغ. تميّز الكتاب بلغته المختصرة، واشتمل على توضيح لعملية «خلط الحديد الخام وصهره مع الحديد الذي سبق أن خضع للتنقية، وذلك من أجل إنتاج الفولاذ». كما يشتمل الكتاب على وصفٍ للتقنيات اللازمة لإنتاج الفولاذ المعدني الحار وصناعة الفولاذ.

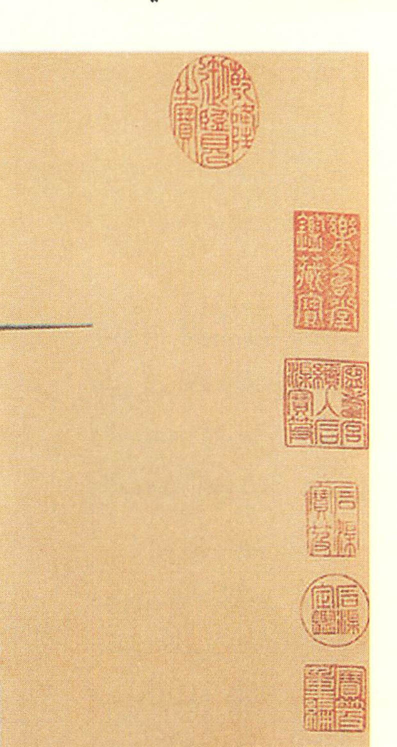
متنوعة كثيراً. ويدل على ذلك العدد الكبير من المصنوعات التراثية المكتشفة على أن الأسلحة الحديدية في ذلك الوقت تضمنت الفؤوس - الخناجر، والمطارد، والحراب، والرماح، والفؤوس، والفؤوس القتالية، والمطارق، والعربات المغطاة، والسيوف العريضة، والسيوف، والخناجر، وغيرها.

استمر عصر الأسلحة الحديدية على امتداد حكم سلالات تشين، وهان، ووي، وجين، والسلالتين الجنوبية والشمالية وسوي، وحتى أواخر عهد سلالة تانغ، أي عندما ظهرت الأسلحة النارية. علّق حكّام السلالات المتعاقبة أهمية كبيرة على إنتاج أعدادٍ كبيرة من الأسلحة الحديدية التي تتميز بأداءٍ جيّد وبكلفة منخفضة. ارتدى الجنود في ذلك الوقت الدروع الحديدية، كما حملوا بأيديهم الصولجانات،



والفؤوس، والسيوف العريضة، والفؤوس القتالية، والرماح، والمطارد، والسيوف، وغيرها. أظهرت صناعة تلك الأسلحة مهارة عالية في الحرف اليدوية، فقد كانت أنيقة التصميم وتمتلك قوة تدميرية قوية، ولهذا تُعتبر كنزاً من بين مجموعات الأسلحة العالمية، كما تكشف هذه الأسلحة عن الروعة الهائلة لتاريخ تطور الأسلحة الصينية. لكن، لا بد أن نلاحظ أن عدداً كبيراً من الأسلحة التي بقيت معرضةً للهواء قد اختفت بسبب الصدأ الذي أصابها، أي أن عدداً قليلاً منها قد بقي حتى الآن.

غير أنه مع تغيّر أشكال القتال من معارك العربات إلى معارك المشاة والفرسان، فإن أنواعاً معينة من الأسلحة لعبت دوراً رئيساً في كل حقبة من حقبات التاريخ، وترافق ذلك مع ظهور أنواعٍ جديدة من الأسلحة واختفاء أخرى. فعلى سبيل المثال، كانت المطارد أسلحة رئيسة في معارك العربات والمشاة خلال فترتَي الربيع والخريف أثناء حكم سلالتَي تشين وهان. لكن المطارد مع ذلك استُبدلت تدريجياً بالرماح وشو (الحراب القديمة التي تتصف الواحدة منها بعمود في غاية



الصورة 3-10 لوحة تظهر آيوسي وهو يحمل رمحاً للقتال ضد الغزاة

رسم هذه اللوحة الرسام الإيطالي جيوسيب كاستيغون في الصين خلال حكم سلالة جينغ. أما الشخص الذي يظهر في هذه اللوحة فهو آيوسي، وهو محارب تمكن من تهدئة الاضطرابات في الأقاليم الغربية من البلاد. اعتمر آيوسي قبعة مزيّنة بريش طاووس، وارتدى درعاً مخصّصاً لرامي السهام، وحمل سلاحاً نارياً بدائياً على ظهره، كما ثُبّت حاملة سهام حول خصره بينما أمسك اللجام بإحدى يديه والحربة بيده الأخرى. يقوم آيوسي في هذه اللوحة بنخز جواده بكل إصرار وجرأة، وتمكن بذلك من إلحاق الهزيمة بأحد خصومه كلما تقدّم عشر خطوات؛ وهو الذي كان يتقدم ألف لي (نحو 500 كلم) من دون أن يلتقي أي خصم يساويه قوة.

الطول) في أواخر حكم سلالة هان. يُضاف إلى ذلك أن شو والحراب ازدادت طولاً، حيث إن معظم الفرسان المشاركين في الحرب اضطروا إلى ارتداء دروع وكذلك جيادهم؛ وذلك لأن المطارد كانت مزودة بفروعٍ عدة، أي كانت غير فعالة في اختراق الدروع. وفي المقابل، كانت الرماح والحراب مزودة بأطرافٍ وحوافٍّ مستدقة. كان المقاتلون على ظهور جيادهم يحملون حراباً بأيديهم، ويدفعونها إلى الأمام. ويعني ذلك أن المحارب الذي يحمل حربةً أطول هو الذي يتمكن من طعن خصمه أولاً. (الصورة 3-10)

لكن، ما إن بدأ عصر الأسلحة النارية، ومع احتلال الذخيرة التي تحتوي على البارود مكانها البارز في الحروب، حتى أُحيلت الأسلحة الباردة إلى التقاعد نهائياً من مسرح الحروب. غير أن تلك الأسلحة عثرت على مجال جديد لاستخدامها بين الأشخاص العاديين، وسرعان ما أصبحت أداة للدفاع عن النفس، والمحافظة على الصحة، وتنمية عضلات الجسم (أو كمال الأجسام).



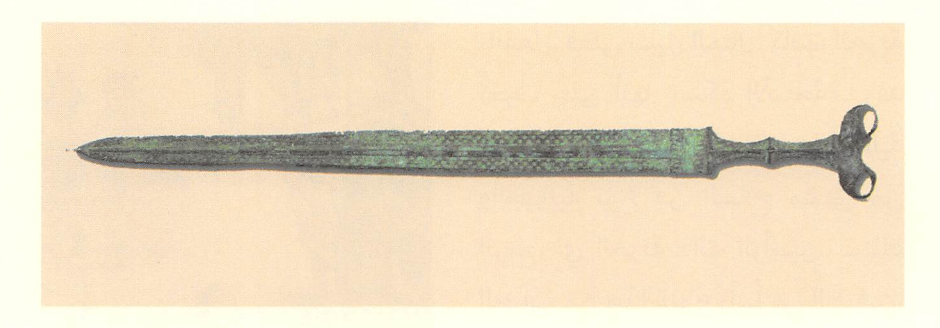
| تطور الأسلحة

إذا ألقينا نظرة شاملة على التاريخ التطوري للأسلحة الحديدية فسوف نلاحظ أن الأسلحة الصينية القديمة كانت كثيرة التنوع وتتطور باستمرار. وكانت نتيجة ذلك ظهور تصميماتٍ جديدة للأسلحة في فتراتٍ مختلفة. لكن، بالرغم من أن السيوف والحراب في الووشو الحديثة ظهرت أثناء حكم سلالة تانغ، إلا أن معظم الأسلحة ظهرت تصميماتها خلال حكم سلالة مينغ - تشينغ. كانت إحدى أهم الظواهر الهامة في ذلك الوقت هي «الأسلحة الثمانية عشر»، وهي التي ظهرت في فترة حكم سلالتَي مينغ - تشينغ. لكن تتبّع كل سلاح بمفرده، ودراسة تطوره على مرّ الزمن أمران يتطلبان جهداً مضنياً. غير أنّه بإمكاننا البحث في مسارات التطور التاريخي للأسلحة، وهو الأمر الذي يسمح لنا باكتشاف بعض المبادئ الرئيسة في هذا السياق.

الأسلحة العسكرية

ظهرت أشكال عديدة من الأسلحة في مختلف الفترات على مدى آلاف السنين. لكن يمكننا القول عموماً، ومن زاوية العملية التطورية، إنه بإمكاننا تصنيف الأسلحة العسكرية بحسب ست فئات.

تشير الفئة الأولى إلى الأسلحة ذات النوع الواحد. لكن بالرغم من أن الأسلحة من هذا النوع يُمكن أن تختلف قليلاً في أحجامها، وأشكالها، وتركيباتها، وأوزانها، أو حتى في طرق استخدامها، إلا أنها لا تبتعد كثيراً عن التصميم الأساسي للسلاح. يمكننا أخذ السيف كمثال. إذ لم تكن تقنية الصهر متقدمة بما يكفي في البداية، وهذا يعني أن معظم السيوف التي ظهرت في أوائل حكم سلالة تشو الغربية كانت قصيرة وصغيرة، أي بلغ طولها 20 سنتيمتراً، وكانت أيضاً تدعى «خناجر». أما مع تقدّم تقنية صهر النحاس، فإن الأسلحة التي صُنعت في حقبة الربيع والخريف كانت أطول قليلاً، لكن طول السيوف العادية كان نحو 50 سنتيمتراً، وكانت تُستخدم في الطعن في معظم الأحيان. أما في حقبة الدول المتحاربة، فإن السيوف ازدادت طولاً، ووصلت إلى ما بين 70 إلى 100 سنتيمتر، حتى إن طول بعضها وصل إلى



الصورة 3-11 سيف برونزي يعود إلى حقبة الدول المتحاربة

يبدو مقبض السيف مثل وجه وحش مع فجوة في الوسط. يلاحظ أن غمده مخددٌ بخطوط أسنان منشار، كما أن نصله مزخرف بنمط مربعات متكررة الألوان، كما تظهر حافة في الوسط. تُعتبر هذه الزخرفة مميَّزة بإتقانها.

ما يزيد عن 100 سنتيمتر (الصورة 3-11). اشتملت تقنيات استخدام السيف على الطعن، والغرز، والبتر، والجَرْح. لكن بإمكاننا أن نلاحظ من خلال مراجعة التاريخ التطوري للسيف أنه بالرغم من أنه شهد تطورات هامة، إلا أنه بقي غالباً على صورته الأساسية.

أما الفئة الثانية فتشير إلى الأسلحة التي جُمعت من نوعين أو أكثر من الأسلحة. يمكننا هنا أن نأخذ المطرد كمثال. جُمع المطرد من الخنجر - الفأس والحربة، ويتميز بوجود حافتين له؛ واحدة عمودية والأخرى أفقية الشكل. تشتمل تقنيات استخدام المطرد على الإمساك بالخصم، والوخز، والطعن، والقطع، وغيرها من التقنيات... وهذا يعني أن قوة إنزال الأذى بالخصم التي يتمتع بها المطرد تتفوق على الخنجر - الفأس والحربة. يقدم لنا الرمح - المنجل مثالاً آخر (الصورة 3-12)، وهو عبارة عن رمح طويل ينتهي بنصلٍ حاد. يمتلك الجزء السفلي من رأس الرمح رؤوساً نافرة نحو كل الجهات ومعقوفة، كما أن مقبضه مزود بغمدٍ مخروطي الشكل. أما رأس الرمح القاطع فيُستخدم مثل أي رمحٍ عاديٍ آخر، أي من أجل الطعن، بينما تُستخدم الشوكة الجانبية إما لقطع عضو من أعضاء جسم الخصم، أو الإمساك به ومنعه من الإفلات.

تشير الفئة الثالثة إلى الأسلحة المأخوذة من الأسلحة التي كانت موجودة



الصورة 3-12 الرماح المناجل، والرسم مأخوذ من شخصيات الرواية الخارجون عن القانون في المستنقعات

يشتمل الفصل 56 من الرواية الشهيرة الخارجون عن القانون على رسم يوضح كيف أن شو نينغ علّم الجنود على القتال باستخدام الرماح المناجل.

بالفعل. فعلى سبيل المثال، كانت الحربة تُعرف على أنها «ملكة الأسلحة». وقد ظهر خلال عهد جين والسلالتين الشمالية والجنوبية نوعٌ من السلاح مشتقٌ من الرمح، أي الحربة ذات الرأسين. تمتلك الحراب من هذا النوع رأساً في الطرفين، كما أن التقنيات القتالية لهذه الحربة تختلف عن الأنواع الأخرى، ويمكننا تلخيصها على أنها «الضرب والطعن يميناً ويساراً». لكن الواقع هو أن كتاب موزي اشتمل على سجلات كثيرة حول «الحربة الطويلة ذات الرأسين». غير أن الحربة ذات الرأسين موجودة بالفعل في الووشو الحديثة. يُذكر أن هذا السلاح مشتق تماماً من الحراب. أما الأمثلة عن الأسلحة الأخرى فتتضمن: الخنجر - الفأس المشتق من السيف الكلّاب، وكذلك الكلتروب [كرة حديدية ذات أربعة رؤوس شائكة]، والمدقّة، والنبّوت المسنّن، وهي كلها مشتقة من شو (الحربة) القديمة.

أما الفئة الرابعة فتشير إلى الأسلحة المشتقة من الأدوات المستخدمة في الزراعة. ويمكننا القول إنه بالرغم من أن كل تلك الأسلحة مأخوذة من العمل الإنتاجي، إلا أن الفرق يكمن في أن بعض هذه الأسلحة مشتقٌ بطريقة مباشرة، في حين أن بعضها الآخر مشتقٌ بطريقةٍ غير مباشرة. ويشتمل كتاب المبادئ العسكرية العامة على وصفٍ لنوعٍ من أنواع عصي السلاسل الحديدية، والتي تسمى كذلك العصي، أو عصي موشاكا. كان هذا النوع من العصي يستخدم في الأصل لدرس القمح، وما لبث أن تطور لاحقاً إلى سلاحٍ يستخدمه الفرسان لحماية المدينة، ولكنه بات يُستخدم بعد ذلك في صنع هراوة ذات رأسين، أو عصا ذات ثلاثة أقسام. لكن في ما عدا ذلك، يمكننا القول إن الأسلحة تطورت مباشرة من الأدوات المستخدمة

في الزراعة، مثل مِدمَّة الأعشاب، والمجرفة، وغيرها من الأدوات. أما المجرفة وهي أداة زراعية تقليدية تستخدم لتقليب التربة فكانت من أهم الأدوات الزراعية. في حين أن المشط الزراعي بأسنانه الحديدية الحادة الشبيهة بالمسامير استُخدم كسلاح بسبب قوته التي تُنزل أضراراً كبيرة بالخصم. وتتضمن تقنيات استخدام المشط الزراعي إصابة الخصم وتحريكه، وقد كان من أقوى الأسلحة الحربية. يُذكَر أن السلاح الذي استخدمه بيغي (واحد من شخصيات رواية رحلة إلى الغرب) كان مشطاً زراعياً، وكانت المجرفة سلاحاً بدورها وأداةً طوّرتها الووشو من الأدوات الزراعية. ظهرت المجارف الحجرية خلال العصر الحجري الحديث. أما في عهد سلالة شانغ، فإن المجارف البرونزية ظهرت إلى الوجود. لكن المجرفة الحديدية لم تُستخدم قبل حقبة الدول المتحاربة. يُقال إن معظم الرهبان استخدموا المجارف التي يُمكن أن تُستخدم إما كعصا توضع على الكتف لحمل الأغراض، وإما كأداةٍ لتسوية طريق للمشي.

أما الفئة الخامسة فتتضمن الأسلحة التي تطورت في ظروفٍ تاريخية غير عادية. إذ تم اختراع لانغ شيان التي تسمى الرمح الطويل، والمكشطة المسنّنة (الصورة 3-13) على يد جيش من عمال المناجم المتمردين في عهد سلالة مينغ. كانت هذه الأداة ثقيلة ومزودة برأس رمح حاد. بلغ طول مقبض هذه الأداة خمسة أمتار، وكانت كلها مصنوعة من الحديد، حيث بلغ وزنها نحو سبعة جين. ويعني ذلك أنه لا يستطيع الرجال استخدامها إلا إذا كانوا يتمتعون بقوة هائلة.

تنطبق الفئة الأخيرة على الأسلحة المستوردة. وهكذا، إن السيوف والسيوف العريضة المصنوعة في الصين في عهدَي سلالتي تشو وتشين كانت تُنقل إلى اليابان عن طريق شبه الجزيرة الكورية. وكان اليابانيون ماهرين جداً في التعلّم وتبنّي ما يتعلمونه. تقدّمت تقنية اليابان في طَرق المعادن وصناعة السيوف والسيوف العريضة، وحدث ذلك بسرعة كبيرة، حيث لحقت بمثيلتها



الصورة 3-13 لانغ شيان، أحد أنواع الرماح

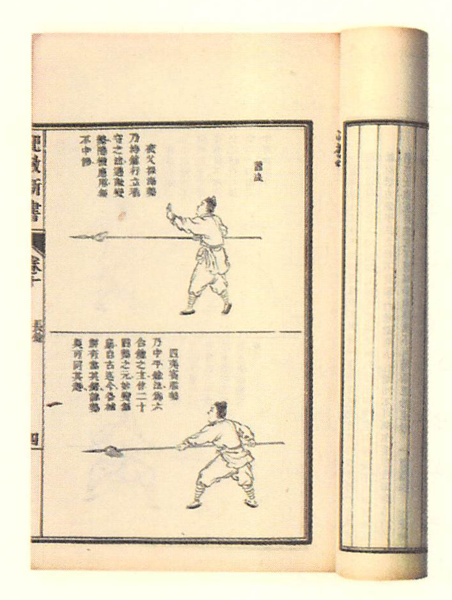
الصينية. أما خلال حكم سلالة مينغ فقد بدأ تصدير السيوف التي تحمل الميزات اليابانية المميزة إلى الصين. كانت تلك السيوف رفيعة، أما نصل السيف فكان رفيعاً ولا تزيد سماكته عن سمك الورقة، كما كانت صلبة وحادة، ولذلك أحبّها المحاربون. وقد أورد كتاب السجلات التاريخية للدبلوماسية اليابانية، وهو كتاب ياباني قديم، أن المبعوثين اليابانيين جاءوا من أجل إعادة ترسيخ العلاقات التجارية مع الصين، كما أن هذه الهدايا التي تسلّمها الإمبراطور الصيني تضمّنت عشرة سيوف رائعة، وسيفاً عريضاً واحداً. لكن خلال السنة الأولى من حكم يونغل (1403) قدّمت اليابان في تلك السنة هدية للإمبراطور الصيني للمرة الثانية، وكان من بين الهدايا 100 سيفٍ عريض. تحوّل السيف العريض منذ ذلك الوقت إلى بندٍ لا غنى عنه في الهدايا. ويمكننا الاستنتاج من كل ذلك أن المصنوعات المستوردة كانت جزءاً أساسياً من الأسلحة الصينية القديمة.

الأسلحة الفردية

تُستخدم الأسلحة الفردية في التدرّب على الووشو والتقنيات المترافقة، كما أن التقنيات المترافقة معها أكثر جوهرية بكثير بمحتواها، وذلك بالمقارنة مع الأسلحة العسكرية التي تحدثنا عنها.

يمكننا القول أولاً وقبل كل شيء إن الووشو بوصفها تقنية دفاعية شخصية تُعتبر ضمانةً هامة بالنسبة إلى فعالية الجيش. لكن تبقى هناك فروقات هامة بين تقنيات الووشو ذات الأغراض العسكرية، وتقنيات الووشو الدفاعية الفردية. كتب تشي جي غوانغ في «كتاب جديد حول التدريب العسكري» (الصورة 3-14) ما يلي: «إن تأهب الجنود ضد العدو والتنافس في مهارات الووشو أمرٌ يختلف عن الإمساك باللصوص. ويعني ذلك أنه عندما يتجمّع آلاف المحاربين في صفوفٍ منتظمة، ويتقدمون بخطواتٍ عسكرية فإن الرجال الشجعان يعجزون عن أخذ زمام القيادة، بينما لا يتمكن الجبناء من الانسحاب. وفي هذه الحالة، تتحرك الرماح والسيوف العريضة إلى الأمام والخلف. لكن، عندما يتقدم الجنود كتلةً واحدةً إلى الأمام يصبح من الصعب الالتفاف إلى الخلف. إذاً، كيف يستطيع المرء التحرك إلى الأعلى والأسفل؟ أما لو نظر الجندي إلى الوراء فإن الآخرين سوف يشكّون به، وإذا خطا أحدهم

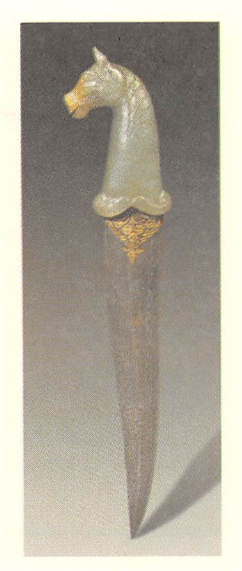
خطوةً صغيرة فإن الآخرين سوف يحتلّون الموقع الوسيط. كيف يستطيع المرء في هذه الحالة أن يمتلك أي خيار غير التقدّم إلى الأمام مع الآخرين، أو التراجع معهم إلى الخلف؟». يمكننا أن نلاحظ هنا أن مهارات الووشو الفردية تختلف كثيراً عن الووشو العسكرية. ولهذا السبب، يمكننا القول إن أسلحة الدفاع عن النفس تختلف عن الأسلحة المخصّصة للأغراض العسكرية. على سبيل المثال، يعتبر شو (الرمح) واحداً من «الأسلحة الخمسة»، كما يبلغ طوله أربعة أمتار. يقوم عدد قليل من الأشخاص بالتمرّن عليه بصورةٍ فردية، هذا عدا استخدامه في الحرب. تقدّم لنا العصا مثالاً آخر، وهي التي كانت مستخدمة بدءاً من المجتمعات البدائية وحتى يومنا هذا، لكنها فقدت قيمتها العملية في ميدان المعركة ما إن بدأ استخدام المعادن، إلا أنها بقيت تتمتع بالشعبية بين عامة الناس.



الصورة 3-14 تقنيات استخدام الرمح الواردة في الدليل الجديد حول التدريب العسكري

يعتمد الدليل الجديد حول التدريب العسكري اعتماداً كبيراً على تلخيص تشي جي كوانغ لخبرته في التدريب العسكري، وقيادة الجيوش أثناء الحرب ضد القراصنة اليابانيين الذين انتشروا بمحاذاة الساحل الجنوبي - الشرقي للبلاد. يُضاف إلى ذلك أن الدليل يتضمن شرحاً لكيفية بناء الجيش والقتال، مثل التدريب العسكري على الأرض وفوق الماء، وخوض المعارك، وحشد الجنود استعداداً لخوض المعارك، واستخدام مختلف أنواع الأسلحة والذخائر والبارود، كما يشتمل الدليل على عدد كبير من الرسوم النابضة بالحياة، والنشر التكتيكي للجنود، والأوضاع المناسبة لتقنيات التدريب العسكري.

تشدّد الأسلحة العسكرية كثيراً على القوة التدميرية، وعلى التوزيع الوظيفي لمختلف الأسلحة، وعلى التعاون في ما بينها. كما تتميز بالقتل بضربة واحدة، وبتوحيد المعايير، وتنسيق الأدوار بين تلك الأسلحة. لكن الأسلحة الدفاعية الفردية في المقابل يمكنها أن تكون كل شيء وأي شيء، أي يُمكن أن تكون كبيرة وحديدية؛ حيث تتضمن المجارف والرفوش والمعاول والفؤوس. كما يمكن أن تكون صغيرة الحجم مثل السكاكين، وسكاكين المطبخ، والمقاعد الخشبية، وعصي الأكتاف، وغليون تدخين التبغ، والأحزمة الجلدية، والسياط، وغير ذلك من أدوات. لكن الأسلحة الطويلة كانت تُستخدم غالباً في الحرب، بينما يستخدم المتدربون على الووشو الأسلحة

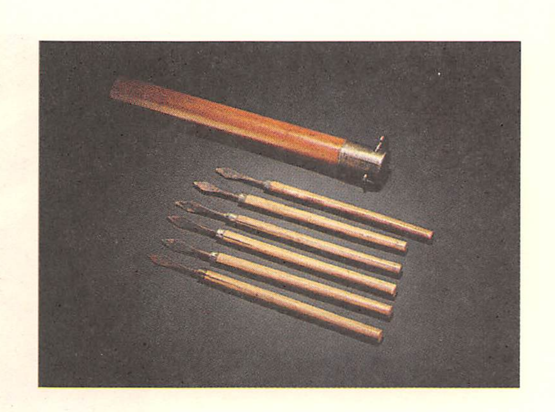

الصورة 3-15 سكّين من عهد سلالة تشينغ ذات مقبض رمادي اللون على شكل رأس حصان

القصيرة بسبب سهولة حملها، ولأنها تناسب أغراض التدرب. يمكننا أخذ الخنجر على سبيل المثال، ولعله كان أول سلاحٍ دفاعي يستخدمه البشر. تمكّن الناس البدائيون من إيجاد حجارة مكسورة ذات أطرافٍ حادة، والتي يُمكن استخدامها للدفاع عن النفس. وتمكّنوا بعد ذلك من تحويل تلك العظام إلى «آلة قطع» مع نصلٍ حاد، وهكذا تشكّل أول خنجر حجري. يروي كتاب السجلات التاريخية أن تساو مو شهر خنجراً، ثم احتجز الدوق هوان من دولة تشي. وأورد كتاب استراتيجيات الدول المتحاربة قصة أخرى عن «فتح خريطة للبحث عن خنجر»، وهي القصة التي توضح أن الخنجر سلاح للهجوم من مسافةٍ قصيرة. لكن، بالرغم من أن الخنجر قصير وقوي، إلا أنه يتمتع بقوة كبيرة ويُحمل بسهولة. أما أثناء حكم سلالة هان، فقد جرت العادة على استخدام الخنجر بالترافق مع استخدام السيف. وقد اعتاد المحاربون أيضاً على حمل السكاكين من أجل تلبية حاجاتهم الملحة، بالإضافة إلى الأسلحة التقليدية الأخرى.

كتب لي باي، وهو شاعر شهير عاش في عهد سلالة تانغ، قصيدة بعنوان أغنية إلى جينغ كي جاء فيها: «اشتُهر جينغ كي في شبابه بمهارته في الفنون القتالية، وهو الذي يُشهر سيفه بسرعة كي يقتل قرداً رشيقاً في الجبل. كانت مهارته في فن استخدام السيف كبيرة جداً، حيث كان بإمكانه قتل بجعة أثناء طيرانها. كما كان شجاعاً إلى درجة تجعل عشرة آلاف من خصومه عاجزين عن التغلب عليه. أما السيف (الخنجر) في يده فكان يعطيه هيبة عظيمة». يمكننا أن نلاحظ مما سبق أن الخنجر كان شائع الاستخدام بين المحاربين وفرسان الفنون القتالية، وذلك بسبب استخداماته الفريدة، كما أنه ما زال شائعاً جداً حتى يومنا هذا. (الصورة 3-15)

الأسلحة المستخدمة في الرياضة

سرّعت الووشو من خطواتها كي تتمكن من اللحاق بما يتماشى مع عصرنا الحديث، وذلك من خلال تطوير أنشطتها في اتجاه الرياضة. لكن الووشو، وبالترافق



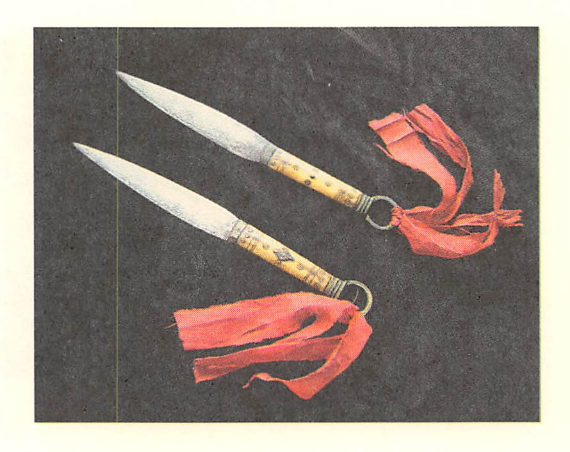
الصورة 3-16 سهام الأنبوب النبّاض

كانت سهام الأنبوب من بين الأسلحة السرية في الأزمنة القديمة. يتحرر هذا السهم فور انطلاق آليّته. ويحتوي غطاء الأنبوب على فجوة مصممة مع نبّاض تُربط نهايته السفلى مع غطاء موصولٍ مع صحنٍ دائري معدني. أما السهم فهو عبارة عن قسم من قصبة مزودة برأسٍ حديدي، ويبلغ طوله نحو 15 سنتيمتراً. يتعيّن أن تكون القصبة مضغوطة بشدة داخل الأنبوب قبل استخدامها، وهو الأمر الذي يجعل النباض مضغوطاً بشدة. ينطلق السهم فور إطلاقه، لكن سهم الأنبوب لا ينطلق بقوة اليدين بل بفعل القوة الميكانيكية.

مع الأسلحة المستخدمة فيها، شهدت تغيّراً وتطوراً كبيرين من أجل تلبية احتياجات المسابقات الرياضية. غير أنه يمكننا القول إن أسلحة رياضة الووشو الحديثة تقع ضمن فئتين واسعتين.

تشتمل الفئة الأولى على أسلحة متنوعة متوارثة منذ القِدَم: الأسلحة الطويلة التي تتضمّن السيف الكلّاب، والشوكة، والفأس؛ وكذلك الأسلحة القصيرة التي تتضمن المسطرة والعجلة، والمطرقة؛ وأسلحة مهجّنة بما فيها سكّين الغزال والوعل، وقلم القاضي، وإبرة ديم ماك. يمكننا أن نضيف إلى هذه اللائحة الأسلحة المخبأة مثل النبلة التي كانت تخبأ داخل الأكمام، والقوس الذي يُحمل على الظهر، وغير ذلك من الأسلحة (الصورة 3-16). تضمّ هذه الأسلحة تشكيلة واسعة، لكن بعضها لم تورثه الأجيال الماضية، وبعضها الآخر امتلك قيمة قتالية عملية. بالرغم من كل ذلك، يمكننا القول إن تلك الأسلحة اقتصر استخدامها الرئيس على الأغراض الدفاعية، وعلى رياضة كمال الأجسام، وأشكال الرياضة الأخرى.

يمكننا هنا أخذ النبلة كمثال فقط، ويُطلق عليها اسم السهم الذي يُطلق من اليد، وهي سلاح مخفي كثُر استخدامه في المعارك التي كانت تجري قديماً. تمتلك النبلة قوة كبيرة تماثل تلك التي تتمتع بها الأقواس والسهام، وبالإمكان استخدام النبلة لإصابة رأس الخصم وكل الأعضاء الحيوية عنده، وغالباً ما تُصنع النبلة من النحاس، لكنها تتمايز عن بعضها بعضاً بحسب حجم المستخدِم وأفضلياته. تمتلك النبلة العادية رأساً مسطحاً ثلاثياً بشكل ألماسة، كما يبلغ طول النبلة عشرة



الصورة 3-17 النبال الصينية التقليدية

بإمكان الشريط المثبت في مؤخر النبلة تعديل اتجاه تحركاتها وجعلها تصيب الهدف بدقة.

سنتيمترات وتزن نحو 300 غرام. يمكننا تقسيم النبال إلى ثلاث فئات. تُدعى الفئة الأولى النبال المذيّلة، حيث تُربط أشرطة باللونين الأحمر والأخضر بمؤخر النبلة، ويبلغ طول الذيل نصف طول النبلة (الصورة 3-17). أما الفئة الثانية فتدعى النبال غير المذيّلة، لكن الفئة الثالثة تدعى «النبال المسمومة» والمحقونة بالسم، أو تلك المطلية بمرهم مسموم. وفي هذه الأيام، إن عدداً قليلاً من الناس يمارس لعبة النبال الصينية التقليدية، لكن عدداً كبيراً منهم يهتم بلعبة النبال الحديثة التي نشأت في المملكة المتحدة، وذلك بدلاً من اللعبة التقليدية. لكن، سواء أكان المرء يمارس لعبة النبال التقليدية أو الحديثة، فإن الأولوية تبقى لرؤية الهدف، والتدرب على التصويب وقوة المعصم.

أما الفئة الأخرى فتشير إلى الأسلحة التي استُخدمت حصرياً في مسابقات الووشو، أي الأسلحة القصيرة؛ بما فيها السكاكين والسيوف والخناجر، وكذلك الأسلحة الطويلة بما فيها الرماح والعصي والسيوف العريضة والرماح ذات الرأسين، والأسلحة المزدوجة بما فيها السيوف المزدوجة والرماح المزدوجة والمطارد المزدوجة، والأسلحة الليّنة بما فيها السياط ذات الأقسام التسعة، والنبال المربوطة بالحبال (الصورة 3-18)، والكرات، وغيرها... لكن، لأن الأسلحة من هذا النوع تتميز بمداها المحدود، وجب تحديد أوزانها وأطوالها وتراكيبها، وذلك لتلبية احتياجات المنافسة من دون تغيير أشكالها وتراكيبها الأصلية. يعني ذلك على سبيل المثال



الصورة 3-18 السهام المفتولة بالحبال

السهام المفتولة بالحبال نوعٌ من أنواع الأسلحة المخبأة أو السرية، وتُعتبر إحدى أنواع الأسلحة الليّنة. تُصنع السهام المفتولة بواسطة ربط سهم حديدي مع طرف حبل. يُمكن رمي هذا السلاح في هجومٍ من مسافة بعيدة، وكذلك في هجومٍ من مسافةٍ قريبة، ويتميّز بسهولة حمله، وإمكانية بدء هجومٍ مفاجئ، وغير متوقّع. يتعيّن على المهاجم أثناء استخدامه السهام المفتولة تحريك كل أقسام جسده بطريقة مناسبة لالتفاف السلاح، وتجهيزه، وانقباضه، وهي الحركات الضرورية لبدء هذا السلاح بالهجوم عن طريق تحويل الحركة الدائرية إلى حركة طولية في أقصر وقتٍ ممكن.

أن طول الرمح يجب ألا يقل عن المسافة بين كعب قدم المتسابق وطرف إصبعه، وذلك عندما يقف منتصباً، وماداً ذراعيه إلى الأعلى بشكلٍ مستقيم. يُضاف إلى ذلك أن الشريط المربوط بذيل الرمح يجب ألا يقل طوله عن 20 سنتيمتراً. ويعني ذلك أن الطول الكلّي لمقبض الرمح أو عصاه يجب ألا يقل عن طول المتسابق أو المتسابقة. أما قطر الرمح والمقبض فيجب أن يتناسبا مع المعايير مرعية الإجراء بالنسبة إلى جنس المتسابق وعمره. أما أشكال السيوف والسيوف العريضة فيتم تحديدها بحسب أطوال المتنافسين، حيث يخضع كل نوع لمعايير الطول والوزن المحددة والصارمة. يُضاف إلى ذلك أن معيار صلابة السيف العريض هو عدم السماح بأن يكون منحنياً عندما يكون متن السيف العريض متميّزاً ببعض المرونة، أو عندما ينوء بثقله. أما معيار صلابة السيف فينص على أن انحناء السيف غير مسموحٍ به عنما يكون متن السيف مستقيماً وينوء بثقله. يُضاف إلى ذلك أنه إذا تعرّض السيف، أو السيف العريض لقوةٍ خارجية فإن انحناءهما يتغيّر ليصبح 90 درجة، لكن لا يحدث لهما أي تشوّهٍ في الصورة في حال استمرت الانحناءة لفترة ثلاث دقائق. لكن، لا حاجة بنا إلى القول إن أسلحةً من هذا النوع فقدت وظيفتها القتالية، أي لم يبقَ منها قيد الاستخدام سوى أسلحة آمنة للمنافسة.

فِرَق الووشو الصينية الشهيرة

تعني كلمة «فِرَق» المدارس التقنية التي تعكس الأساليب المختلفة، وطُرُق التعبير عن الووشو عند ظهورها. إن أسباب هذا الاختلاف معقدة قليلاً، لكنّ تعدد الفرق يُعتبر أحد أوضح ميزات الووشو الصينية. تُظهر الأبحاث والإحصاءات التي أُجريت عن الووشو في الثمانينيات من القرن الماضي وجود ما يزيد عن 100 فرقة، والتي تحتفظ بتقاليد حازمة، ومبادئ واضحة تتعلق بالملاكمة، وكذلك بأساليب مميّزة وسمات فريدة، وهو ما يُعتبر علامة على قوة الووشو الصينية التقليدية.

ظهور فِرق الووشو

بشّر تنوّع الأسلحة واستخداماتها بظهور فِرَق عدةً من الووشو، وهو الأمر الذي كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بظهور الووشو العسكرية. أما في المرحلة الأولى من ظهور الشؤون العسكرية، فقد اندمجت الووشو والووشو العسكرية ببعضهما بعضاً. يُعتبر كتاب المهارات العسكرية الذي ظهر خلال حكم سلالة هان أول بحثٍ عن الووشو، أي أنه مكرّس لشرح مهاراتٍ مثل الرماية، والملاكمة، والمبارزة بالسيف، وغير ذلك من المهارات. كما صنّف الكتاب الووشو إلى فئاتٍ عدة. يمكننا اعتبار تلك المرحلة الأصل الأولي لِفِرق الووشو مثل «فا» و«جيا» اللتين ظهرتا كذلك في أقوال معاصرة حول الووشو، أي مثل هذا القول الذي ورد في كتاب حول الكتابة الأدبية: مقدمة المؤلف: «تعلمت المبارزة بالسيف عندما كنتُ شاباً، وتدربنا على يد عددٍ من معلمي الووشو. لكن أولئك الذين كانوا في العاصمة كانوا الأفضل»؛ وكذلك، «أنا لا أفشل، ولا أنهزم في المبارزة بالسيف. أما عندما يلتقي خصمان، ويكون أحدهما ماهراً، والآخر غير ماهرٍ في المبارزة بالسيف فإن الفائز في المبارزة يتعيّن عليه الالتزام ببعض مبادئ الووشو» (الصورة 3-19). يمكننا بالإجمال القول إن تطوّر الووشو العسكرية في عهد سلالة هان قد ساعد كثيراً على وضع معايير مهارات الووشو وتنوعها، كما مهّد الطريق لتأسيس فِرق أو مدارس الووشو وتطورها.

انقسمت فِرق الووشو بعد عهد سلالة هان بحسب الأدوات التي تستخدمها. وقد أشار ظهور فِرَق الووشو في فترات معيّنة إلى تقدّم تقني لأسلحة الووشو، مثل



الصورة 3-19 إحدى فتيات يوي في نقشٍ حجري من عهد سلالة هان أثناء تقديمها عرضاً للرقص بالسيف

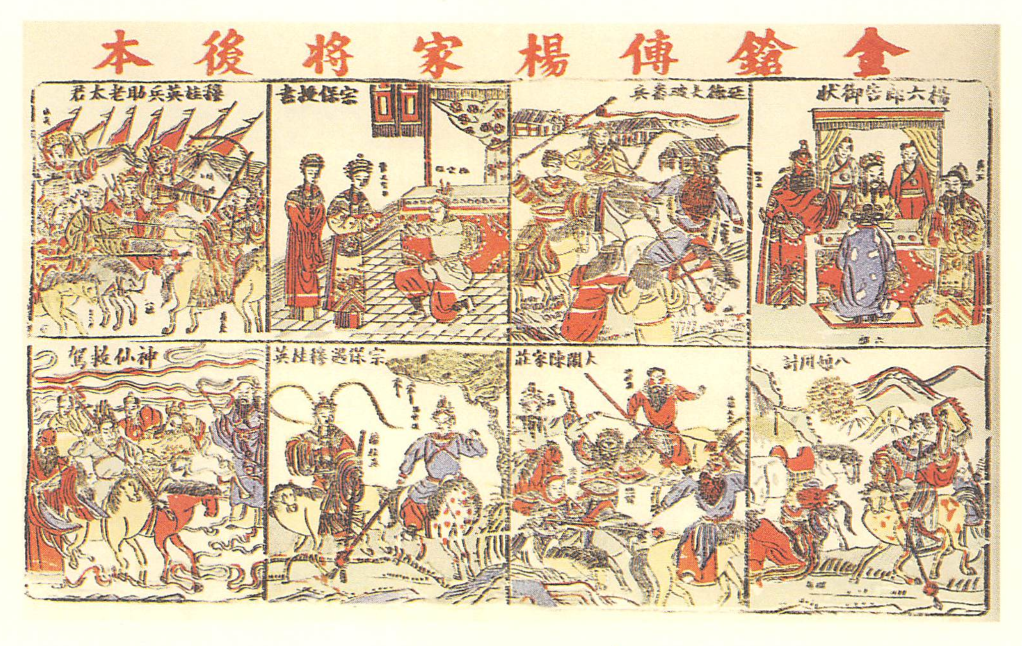
إحدى المحاربات بالسيف من دولة يوي خلال حقبة الربيع والخريف، وذلك أثناء استعراضها أساسيات المبارزة بالسيف النظرية والعملية، والتكتيكية والنفسية، وذلك بحسب المبادئ الواردة في كتاب التحولات من تأليف لاو زي، وكذلك في كتاب فن الحرب، وكذلك العلاقة الديالكتيكية في فن المبارزة بالسيف بين الحركي والساكن، وبين الهجومي والدفاعي، وبين الصحيح والخطأ، وبين القوي والضعيف، وبين ما قبل وما بعد، وبين ما هو داخلي وخارجي، وما هو مناسب وغير المناسب، وبين الشهيق والزفير، وبين الصورة والروح، وغير ذلك، ومبادئ القتال الأساسية مثل الحركة الداخلية والسكون الخارجي، والحركة البطيئة والحركة السريعة، والتركيز، والخفة (السرعة) والتغيّر، والقابلية للتحوّل، والمفاجأة، وغير ذلك.

تقنيات استخدام الرمح؛ بما في ذلك رمح أسرة يانغ (الصورة 3-20)، ورمح أسرة ما، ورمح أسرة شي، ورمح أسرة شا، ورمح أسرة لي القصير، وغير ذلك من الأدوات. تُضاف إلى ذلك تقنيات استخدام العصا، والتدرب عليها بما في ذلك عصا شاولين، وعصا تشينغ تيان، وعصا بازي، وعصا زي واي، وعصا أسرة تشانغ، وعصا تينغ شي، وعصا دونغهاي بيانشينغ، وعصا يو دايو، وغيرها.

لكن مع توسّع مدى الحروب وتغيّر أساليبها في الأزمنة القديمة، تحوّل تقسيم العمل والتعاون بين مختلف الأسلحة إلى عاملٍ حاسم يعتمد عليه النجاح أو الفشل في الحرب. يُضاف إلى ذلك أن الضعف الذي أصاب وظيفة مهارات الووشو الفردية في الشؤون العسكرية أدّى إلى تسهيل اختراقها مهمة حماية البلاد والدفاع الفردي، وتحوّلها إلى هذه الوظيفة. طوّر الأشخاص الماهرون في الووشو هذه الرياضة بصورة تدريجية، وحوّلوها إلى أداة لحماية مصالح رجال القبائل، والحفاظ على الصحة. لكن في المقابل، أدّت الأنماط الاقتصادية الصغيرة في الصين القديمة، والتي تتميز بالسعي للحفاظ على المصالح العائلية والنظام الذكوري، إلى تمكين الووشو من الانتشار داخل القبيلة، وكذلك بين المعلّم وتلاميذه داخل مجموعات معيّنة. وكانت نتيجة ذلك نشوء فِرق ووشو لا حصر لها.

تتالى إنشاء فِرق الووشو بشكلٍ مستمر عن طريق الوراثة والابتكار. وتجلّى تكوّن هذه الفرق ووراثتها بأربع طرق. الأولى، تفرّع أساليب الملاكمة والفِرَق.





الصورة 3-20 قصة الرماح الذهبية: لوحة تمثّل جنرالات عائلة يانغ، وتقنيات استخدام الرمح.

يُقال إن رمح أسرة يانغ كان من ابتكار يانغ مياشين، وهي زوجة لي كوان الذي كان زعيم جيش الرداء الأحمر الثوري الذي ظهر في أواخر عهد سلالة سونغ الجنوبية. أما في عهد سلالة مينغ فإن أسلوب أسرة يانغ كان يُعتبر ممتازاً لاستخدام الرمح، وذلك نظراً للهيبة العالية التي يتمتع بها. يُمكننا العثور على سجلات في بعض الكتب القديمة التي تدور حول فن الحرب مثل مجموعة الفنون العسكرية، والدليل الجديد حول التدريب العسكري، ونشر الجنود استعداداً للمعركة، وغيرها.

تأسّست فرقة تاي جي كوان على سبيل المثال على يد أسرة تشين التي عاشت في قرية تشين جياو غو التي تقع في منطقة ون التابعة لمقاطعة هينان، واستمرت الوراثة من جيلٍ إلى جيل. بقي الأمر على حاله حتى الجيل الرابع عشر، والذي كان يمثّله تشين شانغ جينغ، وعندها انتقلت الزعامة إلى يانغ لو شان الذي لم يكن من عائلة تشين. ومنذ ذلك الحين، انتشرت التاي جي كوان في أنحاء الصين، وهي اللعبة التي تحدرت منها أساليب متعددة مثل التاي جي كوان بأسلوب يانغ، والتاي جي كوان بأسلوب صن، والتاي جي كوان بأسلوب وو، والتاي جي كوان بأسلوب تشين، وغيرها.

ثانياً، تجميع أساليب الملاكمة التي تتمتع بالسمات التقنية ذاتها من أجل

تقوية الفِرق الموجودة. يمكننا أخذ ملاكمة الشاولين على سبيل المثال (الصورة 3-21). تتميز ملاكمة الشاولين بنظامٍ كامل ومفصّل من الأنظمة والتقنيات، وهي التي نشأت عن طريق دمج الأساليب الشعبية، والتوريث المستمر لأساليب الملاكمة وابتكارها. ثالثاً، الاقتباس من النقاط القوية للفرق الأخرى. أما في عهد سلالة تشينغ، فإن أنشطة مثل تكوين الصداقات عن طريق تبادل مهارات الووشو كانت أمراً شائعاً جداً؛ وهو الأمر الذي مكّن بعض الفرق الجديدة من الظهور مثل كايلي فو كوان، وووزوكوان، وغيرها. رابعاً، الدمج والاستعارة من المدارس الأخرى؛ كالمبدأ الذي كان معترفاً به بالإجماع، والذي نشأ عن طريق دمج مهارات الووشو وتشي كونغ والقائل، «إتمام الصيغة من أجل تقوية العمل الخارجي، والتمرّن على تشي من أجل تعزيز العمل الداخلي». أما شين يي ليو هي كوان (ملاكمة مبادئ الانسجام الستة)، وتاي جي كوان، والملاكمة الثمانيّة وغيرها، فتعلّق أهمية كبيرة على التمرّن على تشي، وتسعى إلى التنسيق المنظّم بين الروح والقوة والحركة،

الصورة 3-21 تقنيات الملاكمة كما تظهر في لوحة جصّية في معبد الشاولين





وذلك بهدف التوصّل إلى التطوير الداخلي والخارجي، وتحسين فعالية الووشو في كمال الأجسام.

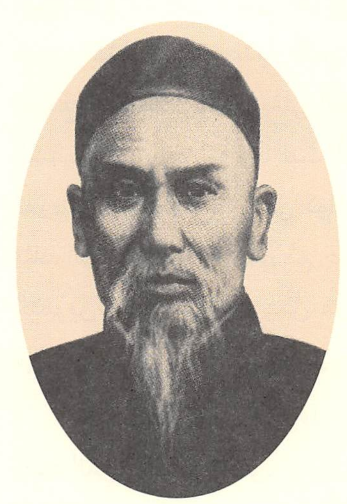
عرفت فرق الووشو هذه بعد تأسيسها التطوير الخاص بها، والتغيّرات المستمرة. لكن بغضّ النظر عن التفاعلات التي تحدث في مهارات الووشو داخل كل فرقة، فإن قدراً قليلاً من التداخل كان يجري مع الفرق الأخرى. لكن كل ذلك لا يتعلّق كثيراً بسمات الووشو ذاتها، وبنقل مهارات الووشو إلى الآخرين والتي كانت تجري سراً. غير أن معلّمي الووشو كانوا يطلبون من تلاميذهم الحفاظ على أسرار مهارات الووشو داخل الفرقة؛ وذلك بهدف الحفاظ على تفوّق الفرقة وعلى مبادئها الخاصة بها؛ الأمر الذي عزّز التطور الذاتي لِفِرَق الووشو. لكنّ نقل مهارات الووشو الصينية كان يجري من المعلّم إلى التلاميذ. وهكذا، إن انتقال المعلّم إلى فرقة أخرى يعني بطبيعة الحال نقل مهارات الووشو إلى أشخاصٍ آخرين، كما أن تجمّع المعلمين من شأنه تعزيز تلاقي فِرق الووشو والابتكار عندها. كانت كانغ تشو مكاناً ليس فقط للاستراتيجيين العسكريين، وتجمّعاً لرجال الأعمال، وإنما كانت أيضاً مكاناً للمجرمين المنفيين، وللأشخاص من أقسام المجتمع كافة، لكن عدداً قليلاً من المغامرين تواجد فيها. وتدريجياً، تحولت كانغ تشو مع مرور الزمن إلى مكانٍ يجتمع فيه عدد من معلمي الووشو، والرجال الشجعان. وكانت نتيجة ذلك أن هذا الواقع الاجتماعي حوّل المكان إلى مركز استقطابٍ للتدرب على الووشو، وتعزيز الروح القتالية.

ميراث فِرق الووشو

شكّلت الووشو قديماً جزءاً لا غنى عنه في مجال حماية الممتلكات والدفاع عن النفس، عدا عن كونها وسيلة لكسب العيش. لهذا السبب، أحرز معلمو الووشو حظوةً عالية وتقديراً كبيراً بين الناس. كانت عملية اكتساب مهارات الووشو صعبةً للغاية، ولذلك قدّر معلمو الووشو مهاراتهم كثيراً، ووضعوا شروطاً صارمة على اختبارات الأهلية والنزاهة الأخلاقية للمتدربين، كما امتنعوا عن تمرير مهارات الووشو إلى الآخرين من دون تمييز وانتقاء.

تتبنى تاي جياو كوان (الفنون القتالية الداخلية) مبدأ «الخمسة الذين لا

يُسمح بتعليمهم»؛ أي الأشخاص ذوي النوايا الشريرة، والأشخاص العدوانيين، والمدمنين على المشروبات الكحولية، والذين يحبّون استعراض قواهم، أو الذين لا يتقيدون بالقواعد الأخلاقية، أو الأغبياء. لكن، بغضّ النظر عن الفئة الأخيرة التي تعكس شرطاً جسدياً بالنسبة إلى الذين يريدون تعلّم الووشو، والذين يريدون تعليمها للآخرين، فإن الفئات الأربع المذكورة أعلاه أي «الخمسة الذين لا يُسمح بتعليمهم» تتعلق بالشخصيات الأخلاقية الفردية. لكن تلك الشروط أصبحت أكثر تفصيلاً. تحدث كتاب دليل تدريب تاي جي كوان بأسلوب يانغ عن وجود «ثماني فئات لا يمكن تعليمها، وخمس فئات يُمكن تعليمها». أما الفئات الثماني التي لا يُمكن تعليمها فتشمل: «أولاً، الأشخاص الذين لا يتمتعون بالولاء والذين لا أقارب لهم. ثانياً، الذين لا يمتلكون معرفة عميقة بالووشو. ثالثاً، الذين يمتلكون نوايا شريرة. رابعاً، الأشخاص المتسرعون والمهملون. خامساً، الأشخاص غير الهيّابين. سادساً، الأشخاص غير المهذّبين والجاحدون. سابعاً، الأشخاص المتذبذبون. ثامناً، الأشخاص الذين يغيّرون اتجاهاتهم بسهولة». يبدو جلياً أن الأسماء الواردة في الفئات الثماني التي لا يُمكن تعليمها ما هي إلا امتداد «للفئات الخمس التي يُمكن تعليمها» والواردة في ناي جياو كوان، والتي لا تُعتبر فقط تجسيداً موسّعاً للمعايير الأخلاقية التي تُعتبر بدورها مدخلاً تدريبياً في الووشو الصينية التقليدية، ولكنها أيضاً انعكاس لتقدير المبادئ الأخلاقية في التراث الصيني التقليدي. تُظهر بعض القصص عن التدرب على الووشو صورة أصيلة عن تراث الووشو الصينية، وأهم هذه القصص هي قصة «زيارات يانغ لوشان الثلاث لقرية تشين جياغو».



الشكل 3-22 يانغ لوشان، مؤسّس تاي جي كوان بأسلوب يانغ

يتحدر يانغ لوشان (الصورة 3-22) من إقليم يونغنيان التابع لمقاطعة هيباي. اضطر يانغ إلى الاشتغال بالأعمال اليدوية في صيدلية تاي هيتانغ الصينية بسبب فقر



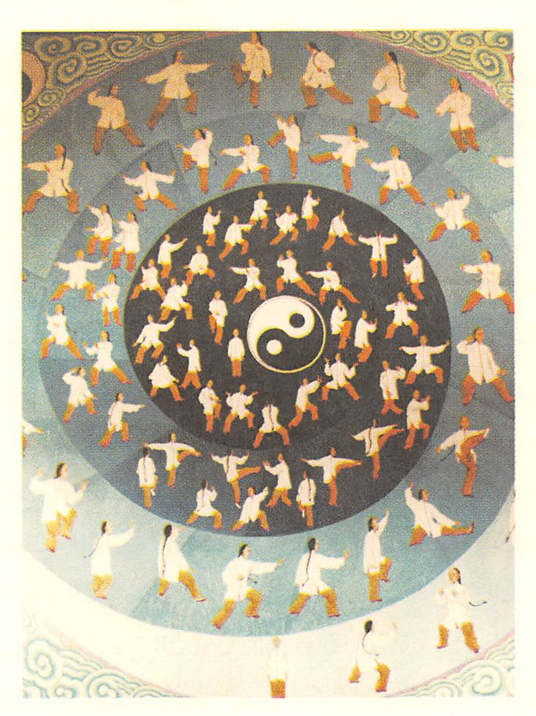
حاله. ولاحظ شين دي هو، رئيس يانغ لوشان، أنه مجتهدٌ في عمله وذكي ويُمكن الوثوق به، ولهذا أرسله إلى العمل في إقليم وِن، وفي جياو زو في مقاطعة هينان. صودف في ذلك الوقت أن تشن شانغ جينغ، سادس معلم في تاي جي كوان بأسلوب تشن، كان يشرح مهاراته أمام تلاميذه في منزل تشن دي هو. لكن بالرغم من أن يانغ لوشان بدأ بالتدرب على الووشو عندما كان صغيراً في السن، وأراد الانضمام إلى الفرقة، إلا أنه كان يخشى أن يُرفض، وهكذا لم يتجرأ على تقديم طلب الانتساب إلى الفرقة. لكن، بينما كان المعلم وتلاميذه من أسرة تشن يتدربون على الووشو اختبأ يانغ، وشاهد حركاتهم وحفظها، وتدرب عليها سراً. تمكّن يانغ أخيراً - ومن خلال التدريب المستمر - من إحراز بعض التقدّم. اكتشف تشن تشانغ جينغ في وقتٍ لاحق ما جرى، فأسرع إلى الثناء على أهليته وامتنع عن تأنيبه، كما تخلى عن تقاليده الاحتكارية، وسمح له بتعلّم التاي جي كوان.

بدأ يانغ لوشان بعد قبوله رسمياً كمتدرب بالتمرّن على التاي جي كوان بجدية بالغة، وكان يتدرب في النهار وفي الليل، وكذلك في الصيف وفي الشتاء. لكن بعد مرور ست سنوات وبعد طول تفكير، عاد إلى إقليم يونغنيان. طُلب منه ذات مرة المشاركة في مسابقة للفنون القتالية، ولكنه لم يحقّق الفوز فيها. رفض يانغ قبول النتيجة، وعاد إلى تشين جياغو لمتابعة دراسة التاي جي كوان. لكن يانغ لوشان تدرب هذه المرة بجدية أكبر من المرة السابقة. واستيقظ ذات ليلة من نومه، وسمع شخصاً ما يتدرب على الووشو في الباحة المجاورة. تطلع يانغ من خلال أحد الشقوق في الجدار، وما لبث أن دُهش عندما رأى معلّمه تشن تشانغ جين أثناء تدريسه أساسيات تاي جي كوان لتلاميذه. اعتاد يانغ منذ ذلك اليوم على مشاهدة تلك التدريبات كل ليلة، ثم صرف كل انتباهه للتمرّن مع لي بوكوي، زميله في التمرين، وهو الذي لم يكن من أفراد أسرة تشن. تمكّن يانغ من تحسين مهاراته في تاي جي كوان كثيراً بفضل جهوده المستمرة.

عاد يانغ لوشان إلى إقليم يونغ نيان بعد مرور ستة أعوامٍ أخرى. وطُلب منه هذه المرة المشاركة في مباراة للووشو ضد معلّمي الووشو الذين يتمتعون بمهارة قتالية ممتازة. استخدم يانغ كل المهارات التي يتقنها، لكنه عجز عن الفوز. لم يدرك يانغ حتى ذلك الوقت أنه بالرغم من تعلّمه التاي جي كوان لأكثر من عشر

سنوات، إلا أنه لم يتعلّم أساسياتها. إثر ذلك، صمّم يانغ على العودة إلى تشين جياغو من أجل تحسين تدريباته. تأثر تشن تشانغ جينغ بمثابرة يانغ، وطيبة قلبه، وتواضعه واجتهاده، فتخلى عن مبدأ «حجب حيلة أو اثنتين»، وهكذا نقل إليه كل مهاراته. لكن بعد مرور عامين، ودّع يانغ لوشان معلّمه وتوجّه إلى بيجينغ، ثمّ جمع عدداً كبيراً من التلامذة من حوله. تمكّن يانغ من رفع تاي جي كوان إلى ذرىً أعلى، ومكّنها من الحصول على شعبية كبيرة بين الجمهور الأوسع. (الصورة 3-23)

كانت القصص من هذا النوع عديدةً جداً في تاريخ الووشو الصينية، وكانت العلاقة التي تربط المعلم مع المتدرب شبيهة جداً بصلة القرابة؛ وهو الأمر الذي ضمن تبادل المهارات التي تمتعت بها كل فِرق الووشو. وكان وجود المتدربين الصالحين ضمانةً لاستمرارية مهارات معلّميها. يمكننا القول إنه في بعض الحالات تجاوزت علاقة المعلم مع المتدرب خلال تبادل مهارات الووشو في الأزمنة القديمة علاقات القرابة.



الصورة 3-23 لوحة جصية عن تاي جي كوان، وهي موجودة في متحف تاي جي كوان الذي يقع في قرية تشين جياغو، في إقليم ونشيان، مدينة جياوتسو، مقاطعة هينان

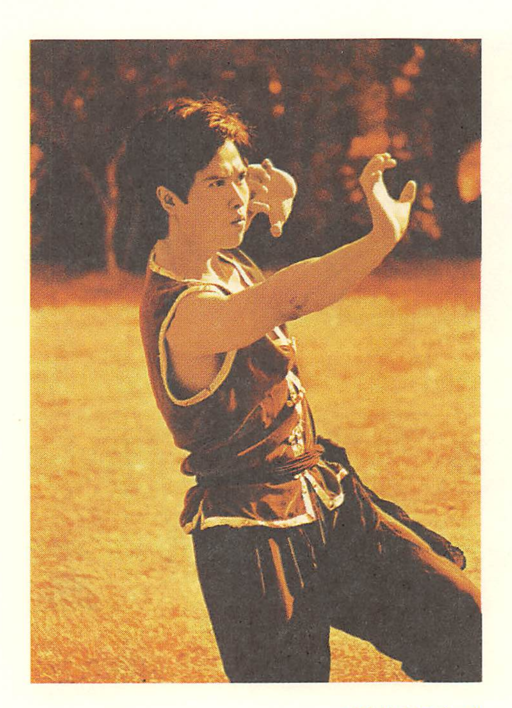
ويمكننا القول كذلك إن التعليم أفاد المعلم والمتدرب بالدرجة ذاتها، وإن المعلم لم يبخل بأي جهد في تلخيص مهارات الووشو في تاولو (سلسلة الحركات الرسمية في الووشو) وذلك بهدف تسهيل تعليم المتدربين، واستخلاص الجديد من القديم. أما من الجهة الأخرى، فإن المتدربين قدّروا هذه الفرصة الثمينة لتعلّم الووشو، وخصّصوا حيواتهم للمحافظة على مهارات فِرقهم وتمريرها للأجيال التالية.

عوامل حاسمة في تكوين فِرق الووشو

تأثّر تكوين فِرق الووشو أيضاً بالعوامل البيئية المعقدة؛ مثل الظروف الجغرافية، والتقاليد القومية، والدّين، وغير ذلك من العوامل.

تتميّز الصين بطبيعة الحال باتساع أراضيها وبيئاتها المناخية المختلفة، وهذا هو سبب اختلاف أساليب الووشو والأسلحة التي ابتكرتها. كان جيو جي فين معلماً عظيماً في دراسة ثقافة جمهورية الصين. وقد قسّم جيو مهارات الووشو إلى فئتين، وذلك بحسب الفروقات القائمة في تكوين بنية الرجال وأمزجتهم، والعائدة إلى تأثيرات المناخ وعاداتهم الغذائية، وهما الأسلوب الجنوبي والأسلوب الشمالي. وهكذا، نرى الشيوع الواسع للدائرة التي تمثّل الفنون القتالية، أي النان كوان (أسلوب الملاكمة في الجنوب) والبي توي (أسلوب الملاكمة في الشمال) وكذلك «الرماية في الشمال والرماية في الجنوب». يساهم عاملان جغرافيان في تكوين «أسلوب الملاكمة في الجنوب وأسلوب الملاكمة في الشمال». ونلاحظ أنه بسبب البرد الشديد الذي يخيّم على المنطقة الشمالية، فإن الأطراف السفلية للرجال تقوم بتمارين جسدية كثيرة. يُضاف إلى ذلك أن الناس في الشمال يتميزون بالطول وقوة البنية، وهكذا نشأت أساليب ملاكمة تشتمل على حركة ذات نطاقٍ واسع، مثل باجي كوان (الحدود الثمانية للملاكمة)، تشو جياو (الأقدام الدافعة) وغيرها. وفي المقابل، وبسبب الطقس الحار الذي يخيّم في معظم أوقات السنة على المناطق الجنوبية، لا يقوم الناس إلا بقدرٍ قليل من التمارين الجسدية. يُضاف إلى ذلك أن معظم سكان الجنوب قصار القامة ولكنهم سريعو الحركة، كما أن مستوى الملاكمة عندهم جيّد ومرِن. وكانت نتيجة ذلك ظهور عددٍ من مهارات الووشو مثل الملاكمة بالأسلوب الجنوبي (الصورة 3-24). أما من الجهة الأخرى، فإن المنطقة الشمالية من البلاد

تتميز باتساع أراضيها، وتقدّم مجالاً أكبر للأنشطة البدنية، وتسهّل التدرب على الووشو على نطاق واسع. لهذا السبب، يمكننا القول إن الملاكمة بحسب الأسلوب الشمالي تشتمل على حركة مذهلة للقدمين. وفي المقابل، يتواجد في الجنوب عددٌ أكبر من الأنهر والبحيرات، لكن مع مساحات أصغر من الأراضي. وقد نشأت نتيجة لذلك تقنيات ووشو مناسبة للقتال القريب بين المتنافسين، وتتمثّل بالاعتماد بشكل أساسي على تقنيات استخدام الأيدي؛ وذلك بهدف التكيّف مع بيئة الأرض غير الثابتة. أما سبب نشوء أساليب «الرماية الشمالية والرماية الجنوبية فيعود في واقع الأمر إلى وجود مساحات هائلة من الصحراء والأراضي العشبية في المناطق الشمالية من الصين، وهكذا يسهل العثور على الطريدة من مسافاتٍ بعيدة، وكذلك يتمكّن الرامي من حيازة ما يكفي من الوقت لتهيئة قوسه ورمي سهمه بطريقة غير متسرعة. لكن في المقابل، إن المناطق الجنوبية تحتوي على غاباتٍ أكثر، وتضاريس معقدة، وأشكال متعددة من الأراضي والمدرجات. وهكذا، لا يُنصح بالرمي من مسافة بعيدة في تلك المناطق، وإنما يُنصح بالكمون على مسافة قريبة. وكانت نتيجة ذلك ابتكار القوس العملي.



الصورة 3-24 نان كوان

نان كوان، والتي تدعى كذلك الملاكمة بالأسلوب الجنوبي كانت نتيجة دمج أساليب الملاكمة المحلية في القسم الجنوبي من الصين. ويتميّز هذا الأسلوب من الملاكمة بحركات صغيرة ومقتضبة وإنما قوية، وحركات بسيطة، وتقنيات ذكية، والمواجهة القريبة بين الخصمين، وحركات ثابتة للقدمين، وحركات هجومية جريئة وقوية، وتترافق على الدوام مع الصراخ من أجل رفع معنويات المحارب.

يمكننا القول إن أماكن العيش، وطُرُق العيش التي تتبعها الأقليات العرقية قد تركت أثراً واسعاً على نشوء فِرَق الووشو وأساليبها. يبرز لدينا الشعب المغولي على سبيل المثال، وهو عبارة عن جماعة عرقية من البدو التي ينشأ أفرادها وهم





الصورة 3-25 مباراة في المصارعة في ساي يان سي شي (رسوم تُظهر المأدبة، والسومو، وأسر الخيول، وسباق الخيل)

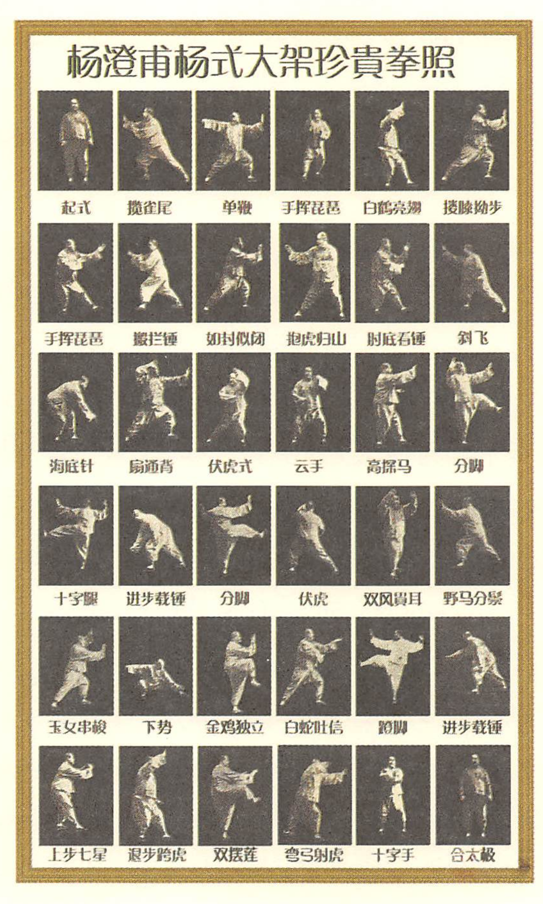
ساي يان سي شي كان نشاطاً سياسياً هاماً حرص على إجرائه أباطرة تشنغ خلال حكم كانغ زي، ويونغ تشنغ، وكوان لونغ. كانت مناسبات المأدبة، والسومو، وأسر الخيول، وسباقات الخيل، والمعارض كثيرة. وقد امتلكت المصارعة أهمية حيوية من بين الفنون القتالية الأربعة. وعلّق أباطرة سلالة تشن أهمية كبيرة على المصارعة. وهكذا تأسّست معسكرات التدريب بهدف تدريب كبار المصارعين، وتحسين قوة الجنود، وتحسين التقنيات القتالية بهدف تحسين القدرات القتالية.

يمتطون صهوات الخيل، وتشتمل تقاليدهم على الرماية والمصارعة منذ الأزمنة القديمة (الصورة 3-25). تستمر حتى هذا اليوم المنافسات التقليدية مثل الرماية، وسباق الخيل، والمصارعة وهي التي تُحفظ كلها في مهرجان نادام. أما جماعة شي الأقلية العرقية التي عاش أسلافها في تشاو تشو الواقعة في مقاطعة غوان دونغ، والتي تعيش الآن في فوجيان، وتشجيانغ، وجيانغشي فقد عانت من الاضطهاد والتمييز، كما عاش أفرادها في مناطق جبلية مشتتين، وفي حالة ترحالٍ دائمة. لكن، بالنظر إلى وضعها الاجتماعي وبيئاتها الطبيعية، اضطرت أقليات شي إلى العيش على الصيد، فتحسنت قدراتها على البقاء تدريجياً، حتى تطورت هذه القدرات إلى أساليب الووشو للدفاع عن النفس. وقد تضمنت أساليب الووشو التي اعتمدها هذا الشعب شي جيا كوان، وجومينغ كوان، وشانغ كون كوان، وكونغ فو

شانغ دانغ، وفاشان كوان، وغيرها. أما نماذج العصي التي استخدموها فاشتملت على عصا كي ماي (عصا على مستوى العين)، وعصا أسرة تشونغ، وعصا شا يوان، وتقنية عمود الكتف، وغير ذلك. يُذكر أن كل نوع منها متميزٌ بحد ذاته، ويمتلك سماته الخاصة.

دخلت الصين العصور الإقطاعية في عهد سلالة تشن، وكانت أنظمة أساسية وذكورية بامتياز في الصين القديمة، وأنظمة استمرت لأكثر من 2,000 سنة. انبثق النظام الذكوري عن النظام الوراثي الذكوري الذي ميّز المجتمع القَبَلي، وكان نظاماً مكّن أقارب الزعيم والأرستقراطيين من توزيع السلطة القومية والإقطاعية بحسب قرابة الدم، وذلك من أجل تأسيس حكمٍ وراثي؛ وهو نظام تميّز بدمج القبيلة الذكورية بالدولة، بشكل ائتلاف بين الزعامة الذكورية والزعامة السياسية.

بإمكان النظام القبلي الذكوري، وبصفته نظاماً أساسياً، المحافظة على الاستقرار الاجتماعي لأنه يضمن تماسك الأفراد داخل القبيلة، ويضمن ردع التهديدات التي تواجهها القبيلة في علاقاتها الخارجية. ولهذا السبب، تُعتبر الووشو وسيلةً ضرورية لحماية القبيلة، أو الجماعة العرقية، ولهذا السبب أيضاً لم تُعلّم مهاراتها علناً أو تتدرب عليها بصورة علنية. يُضاف إلى ذلك أن نقل تقنيات كل فرقة كان متناسباً مع مبدأ «نقل التقنيات داخل القبيلة الذكورية، لكن عدم نقلها إلى خارج أفراد القبيلة مطلقا»، كما كان متناسباً مع مبدأ «تعليم الذكور من الأبناء دون الإناث»، وذلك لأن الفتاة عندما تكبر ستتزوج لتنضم إلى عائلة أخرى، أو إلى عشيرة منافسة. لكن تحت تأثير هذا النظام القبلي الذكوري، اعتمد تطور الووشو على وجود فِرقٍ متعددة، وأساليب ملاكمة متنوعة. يُضاف إلى ذلك أن تبادل المهارات والاندماج بين أساليب الملاكمة وفِرق الووشو كان أمراً نادراً جداً. نلاحظ هنا أن تأثير النظام القبلي الذكوري المباشر على تكوّن أساليب الملاكمة ينعكس على أسمائها. فعلى سبيل المثال، توجد عشرات أساليب الملاكمة التي تأخذ كلمة «رجال» حرفياً كطائفة، بما في ذلك هونغ مين كوان (فرقة هونغ للملاكمة)، وفينغ مين كوان (فرقة فينغ للملاكمة)، وزيران مينغ موان (فرقة زيران للملاكمة)، ولوهان مينغ كوان (فرقة لوهان للملاكمة)، وغير ذلك. يمكننا العثور على أمثلةٍ مشابهة في عشرات أساليب الملاكمة التي تستخدم اسم العائلة، من مثل كاي جيا كوان، ولي



الصورة 3-26 يانغ شينغ فو Yang Chengfu يتدرب على تاي شي

جيا كوان، ومو جيا كوان، ويوي جيا كوان، وتشي جيا كوان، وتاي جي كوان بأسلوب تشن، وتاي جي كوان بأسلوب يانغ، وغيرها. (الصورة 3-26)

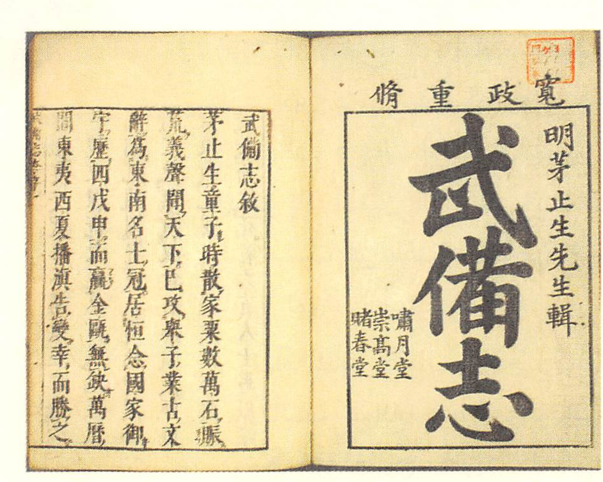
أدت الزراعة، وأنماط العيش المنعزلة المشتقة من النظام القبلي الذكوري، إلى التحوّل البطيء نحو الرياضة عند الووشو الحديثة. ولكن، مع التسارع الذي حدث في دمج الووشو في الرياضة الحديثة، وتزايد التبادل الحاصل بين فرق الووشو التقليدية، ظهرت أساليب لا بد منها، وتناقصت الفروقات الموجودة في أساليب الملاكمة وفرق الووشو. ولكن دمج المهارات ونقلها أصبحا في الوقت الحالي قضيةً هامة تواجه الووشو الحديثة.

الخلاف بين الفنون الخارجية والداخلية

وصل تطور الووشو إلى ذروته خلال عهدَي سلالتَي مينغ وتشينغ، وذلك عندما ظهرت فرقٌ لا حصر لها بأساليبها المميزة، وكذلك عند ظهور عدد كبير من الكتب عن الووشو، مثل كلاسيكيات السيف، وكتاب جديد عن التدريب العسكري، ومجموعة الفنون العسكرية، ومهارات الووشو في فترة الركود، والتأهب للقتال، ومجموعة من الكتابات العسكرية المبوبة (الصورة 3-27)، والأعمال المجمّعة للتدريب على الووشو، وكتاب أسرة شانغ حول مهارات الووشو، وغير ذلك من الكتب. تضمّنت معظم الأعمال مناقشات حول مدارس الووشو وفرقها، وكان ذلك في فترة انقسمت فيها أساليب الملاكمة إلى فئتين: داخلية وخارجية؛ وهو الأمر الذي سرعان ما اكتسب شعبية كبيرة في دوائر الووشو، كما أثار قدراً كبيراً من الجدل.

السجلات الأولى

عُثر على أولى السجلات عن الفنون الداخلية والخارجية للووشو في كتابات إلى وانغ تشنغ نان التي جمعها هوانغ تسونغ شي، وتُعتبر هذه الكتابات أساس مدرسة زهي دونغ (مدرسة تشجيانغ الشرقية)، والتي ظهرت في السنة الثامنة من حكم الإمبراطور كانغ (1669). «تشتهر الشاولين بالملاكمة. لكن بالرغم من تفوّقها


寛政重脩
明茅止生先生輯
武備志
嘯月堂
崇高堂
睹春堂

武備志敘
茅止生童子時散家粟數萬石賑
荒義聲聞天下已攻舉子業古文
辭爲東南名士冠居恒念國家御
宇歷四戊申而贏金甌無缺萬曆
間東夷西夏播濵告變幸而勝之

الصورة 3-27 الكتابات العسكرية المبوبة

تشرح الكتابات العسكرية المبوبة التي ألّفها ماو يوان يي الذي عاش في عهد سلالة مينغ، تقنيات القيادة عند الجنرالات. وتشمل هذه التقنيات استخدام الأسلحة العسكرية، وبناء جدار حول المدينة، والتحصينات القتالية، والتدمير، ومعرفة جيدة بأحوال الطقس، والمناخ، والجغرافيا، والتوقع، والاستجابة للحالات الطارئة، ورفع معنويات الجنود. وتشرح هذه الكتابات أيضاً كل القضايا العسكرية التي يتعيّن على كل جندي الإلمام بها بالتفصيل. يتضح هنا أن شروحات هذا الكتاب - وعلى الأخص ما يتعلق منها بالأسلحة - والرسوم العديدة الملحقة بالكتابات، والاستعراض الشامل لمخزونات مجموعات الأسلحة، تتجاوز كثيراً كتاب المبادئ العسكرية العامة.



في القتال كانت تعطي الخصوم فرصة. وكان هناك أحد متدربي ناي جيا كوان، وهو الذي كان يتفوق على الحركة بالسكون، وكان بإمكانه رمي خصمه أرضاً عندما يرد على الهجوم. نتيجة لذلك، يمكننا القول إنها تختلف تماماً عن ووشو الشاولين، ولذلك تُعرف باسم الفنون الداخلية التي أطلقها تشانغ سان فينغ، وهو الذي كان خيميائياً في جبل وودانغ. استدعاه الإمبراطور هوي زونغ في وقتٍ لاحق، ولكنه رفض الحضور. لكن ما إن تعلّم تشانغ سان فينغ مهارات الووشو من الإمبراطور شوان دي، حتى قتل في اليوم التالي ما يزيد عن 100 من أعدائه بمفرده». وكان معلم ووشو في الفترة الانتقالية التي فصلت بين سلالة تشينغ وجمهورية الصين. كانت كل الأعمال الأخرى حول الفنون الداخلية والخارجية تعتمد على هذه النسخة التي تتضمن علوم تاي جي كوان من تأليف سون لوتانج (الصورة 3-28)، وكذلك حوليات نينغبو: سيرة تشانغ سونغ زي التي كُتبت في السنة الثالثة عشرة من حكم سلالة تشينغ (1735)، وتاريخ الرياضات الصينية الذي كان من تأليف كو زي فين، والذي نُشر في السنة الثامنة لتأسيس جمهورية الصين، وكذلك الأعمال التي نُشرت في الفترة المعاصرة في تاريخ الووشو الصينية.



الصورة 3-28 سون لوتانغ محارب الفنون القتالية المميز

سون لوتانغ (1860-1933) كان اسمه فو كوان ولقّب لوتانغ. في أواخر أيامه، حمل اسم هان تشاي، وتميّز بمهارته في الفنون القتالية، وكان شهيراً داخل البلاد وخارجها. عُرف سون لوتانغ لوقتٍ طويل على أنه معلم الووشو الشبيه بالنمر، و«حكيم الووشو». تعلّم سون شينغ يي كوان من لي كي يوان وجيو يو شين، كما تعلّم الملاكمة الثمانية من شينغ تينغ هوا، وتعلّم تاي جي كوان من هاو وي تشن. أسّس سون بعد ذلك التاي جيا كوان بأسلوب سون استناداً على تاي جي كوان بأسلوب هاو، وقد فعل ذلك عن طريق توليف خلاصات شينغ يي كوان، أي بالجمع بين الملاكمة الثمانية وتاي جيا كوان بأسلوب هاو.

أما كتاب تقنيات ناي جيا كوان من تأليف هوانغ بايجيا، وهو ابن هوانغ تسونغ زي، فأورد ما يلي:

«تفاخر الفنون الخارجية - بما فيها ووشو الشاولين - بمهارات الووشو الرائعة. أما تشانغ سان فينغ، وهو الماهر في ووشو الشاولين، فقد استخلص الجديد من القديم، وهو الذي كان معلماً ذائع الصيت في الفنون الداخلية. لكن، إذا تعلّم المرء قدراً قليلاً من الفنون الداخلية فسوف يكون ماهراً بما يكفي لتجاوز ووشو الشاولين. تعلّم السيّد وانغ تشنغنان كل مهاراته من شان سينان». يمكننا أن نلاحظ من كل ذلك أن ناي جيا كوان (الفنون القتالية الداخلية) قد تأسست على يد تشانغ سان فينغ؛ وهو الذي كان ماهراً جداً في ووشو الشاولين. بكلماتٍ أخرى، يمكننا القول إن ناي جيا كوان تطورت من ملاكمة الشاولين.

تتفاوت الآراء كثيراً بشأن اسم شانغ سان فينغ، وتاريخ ميلاده، ومكان ولادته. غير أن الأمر وصل أخيراً إلى استنتاج إجماعي. لكن، هل تعلّم شانغ سان فينغ ملاكمة الشاولين في معبد الشاولين؟ أما إذا وضعنا جانباً ما قاله عنه هوانغ باي جيا بصراحة تامة عن «مهارات ووشو الشاولين» في كتاب مجموعة الملاكمة بالأسلوب الشمالي، فسوف نتمكّن من القول إن «سان فينغ كان تلميذاً في شاولين». لكن تانغ هاو - وهو مؤرخ الووشو في أيامنا هذه - لا يوافق على هذا القول، بل يقول «بما أن الفرق بين البوذية والطاوية كبير جداً، أي مثل الفرق الذي يفصل جانبَي بوابة كبيرة، فكيف يمكن لأحد الطاويين أن يصبح تلميذاً في شاولين؟ يُمكن لأي شخصٍ يتمتع بفطرة سليمة التفريق بين الحقائق والشائعات في هذا المجال». أراد تانغ هاو دعم نظريته، فقام بزيارة معبد شاولين. وقرأ تانغ جميع الكتابات التي نُقشت في عهود سلالات سونغ، ويوان ومينغ، غير أنه لم يعثر على أي سجلٍ يتحدث عن ممارسة شانغ سان فينغ للووشو. استشار تانغ في وقتٍ لاحق حوليات رهبان الشاولين الذي كتبه المعلّم ديكيان، لكنه لم يعثر عن أي شيء يتعلق بشانغ سان فينغ.

يمكننا الاستنتاج من كل هذا أن فرضية كون شانغ سان فينغ تلميذاً في شاولين ما هي إلا إشاعة. لكن، بما أنه لم يتم العثور عن أي شيء يتعلق بتعلُّم شانغ سان فينغ الووشو في معبد شاولين، فلماذا يعطي الناس الفضل بتأسيس ناي جيا كوان إلى شانغ سان فينغ، وهو الذي كان يُقال عنه إنه «ماهرٌ في ووشو الشاولين»، وإنه «استخلص الجديد من القديم»؟. أما إذا كانت ناي جيا كوان قد استُخلصت من ووشو الشاولين، فمَن بحق السماء مؤسس الناي جيا كوان؟ لم يجد

هذا السؤال جواباً شافياً حتى هذه الأيام.

تختلف الافتراضات حتى الآن في ما يتعلق بمؤسّس الناي جيا كوان. ويُحتمل أن الغموض الذي يحيط بمؤسّس الناي جيا كوان هو الذي فتح الطريق أمام التخيلات والافتراضات، وهي التي وجدت تجسيداً لها في عددٍ من الروايات والأفلام السينمائية والمسلسلات التلفزيونية، وفي بطولات الفنون الداخلية والخارجية، وهي كلها تثير مخيلة الأجيال التالية، وتدفع الأبحاث المستمرة حول الفنون الداخلية والخارجية إلى ذرى جديدة.

تاريخ الفنون الداخلية

بالرغم من أن الفنون الداخلية والخارجية تعود إلى أصلٍ ضاع في متاهات التاريخ القديم، إلا أن تركتها متميزة نسبياً، كما أنها امتلكت سجلات موثوقة عن مساراتها. أما يو تشي جون، وهو خبير معاصر في أبحاث الووشو، فيرسم لنا صورة واضحة عن ووشو الشاولين في كتابه تاريخ الووشو الصينية التقليدية، وهو كتاب يُظهر أن الناي جيا كوان مشتقة من ملاكمة الشاولين. لكن يمكننا القول إنه لا يمكننا العثور على الصيغة الأصلية من الناي جيا كوان. يُضاف إلى ذلك أن الرسم يوضح أن التاي جيا كوان، وتشينغ يي كوان، والملاكمة الثمانيّة، تندرج جميعها تحت الناي جيا كوان. ويوضح لنا هذا الرسم أنه من الصحيح القول إن كل فِرق الووشو تحدرت من الشاولين. لا تشتمل ووشو الشاولين التي تمتلك تاريخاً عظيماً ونظاماً شاملاً ومفصلاً على أساليب الملاكمة الخاصة بها فقط، وبعض أساليب الملاكمة الغريبة عنها، ولكنها تعطي كذلك دفعاً للناي جيا كوان (الصورة 3-29). يتناسب هذا كلياً مع رؤية مرثية إلى وانغ تشينغنان التي كتبها هوانغ زونغ زي.

لم يتفق بعض الباحثين مع فرضية أن تاي جيا كوان، وشينغ يي كوان، وكذلك الملاكمة الثمانيّة تقع كلها تحت تصنيف ناي جيا كوان. وأشار تانغ هاو في كتابه ناي جيا كوان إلى أنه «لم يُعرف أن تاي جيا كوان فرع من ناي جي كوان إلا في السنوات العشرين الأخيرة. وعلى أي حال، لم يسمع أحد عنها إلا قبل تأسيس جمهورية الصين». وأضاف بعد ذلك: «من المضحك القول إن شينغ يي كوان، والملاكمة الثمانيّة، مشتقتان من ناي جي كوان». لكن بسبب واقع أن ثلاثة معلمين مشهورين



الصورة 3-29 رهبان الشاولين يقدمون عروضاً في الووشو بأيديهم العارية كما ظهروا في لوحة جصية في معبد شاولين

هذه اللوحة الجصية الضخمة الموجودة في قاعة بابي في معبد شاولين، رُسمت في أواسط عهد سلالة تشينغ. وتغطي هذه اللوحة مساحة أكثر من 100 متر مربع، وهي الدليل الحسي الوحيد الذي يسلط الضوء على جوهر ووشو الشاولين، وهي من بين 30 لوحة جصيّة موجودة في معبد شاولين. تُظهر هذه اللوحة وبوضوح الحركات المختلفة لرهبان الشاولين أثناء تدريباتهم، وتُظهر اللوحة 118 تاولو أساسية، أو سلسلة التمارين لملاكمة الشاولين.

في الووشو وهم يانغ لوشان، ودونغ هاي شوان (الصورة 3-30) ولي ليون نينغ قد اجتمعوا في العاصمة، يمكننا القول إن تاي جي كوان، والملاكمة الثمانية، وشينغ يي كوان، وهي التي تطورت بسرعة في عهد سلالة تشينغ، وهكذا لقيت هذه الأنواع اعترافاً شاملاً وثناءً كبيراً، واعتُبرت تدريجياً على أنها ثلاثة أساليب من ناي جيا كوان. كانت نتيجة ذلك أن ناي جيا كوان المنهجية تشكلت مع تاي جي كوان، والملاكمة الثمانيّة، وشينغ يي كوان لتكون كلها رموزاً لأواخر عهد سلالة تشينغ. أما شين شو الذي كان باحثاً شهيراً للووشو فقال إنه في الثمانينيات من القرن الماضي لم تكن لتاي جي كوان، وشينغ يي كوان والملاكمة الثُمانيّة أي علاقة مع ناي جيا كوان التابعة لمدرسة تشجيانغ الشرقية. لكن أساليب الملاكمة التي تتوافق مع مبادئ ملاكمة ناي جيا كوان، بما في ذلك ميان كوان وبين جين كوان القديمة، وداشينغ كوان في

الأزمنة الحديثة تنتمي كلها إلى ناي جيا كوان. لكن بما أن المبدأ الأساسي ومجال الناي جيا كوان قد شهدا تغيّرات عظيمة، واستوعبا التقنيات من أساليب الملاكمة الأخرى، فإن ناي جيا كوان تحتضن في طياتها حيوية وشمولية مرعبتَين.



الصورة 3-30 رسم يمثّل دونغ هاي شوان

كان دونغ هاي شوان (1797-1882) - والذي كان اسمه عند ولادته دونغ مينغ كو - مؤسس الملاكمة الثمانيّة وأكبر مروجٍ لها. كان الرجل طويلاً وقوياً وذا ذراعين طويلتين وراحتين واسعتين، وكان يمتلك قوة جسدية استثنائية، وكان ملماً جداً بفن الهجوم والدفاع. يُقال كذلك إنه التقى «المعلم يون بان»، ومنه تعلّم الووشو وابتكر الملاكمة الثمانيّة.

إذاً، كيف كان مسار نقل المهارات عند الناي جيا كوان؟ يمكننا القول اعتماداً على مرثية إلى وانغ تشينغ نان، إن شانغ سان فينغ نقل مهارات الووشو التي كان يتمتع بها إلى وانغ تسونغ في إقليم شنشى. لكن إلى مَن نُقلت هذه المهارات على مدى الأعوام المئة التالية؟ يبقى الجواب على كل ذلك غير واضح. نقل وانغ تسونغ بعد ذلك مهاراته إلى تشن تونغ في ون تشو، وهو الذي قام بنقلها بعد ذلك إلى رفاقه القرويين. يمكننا الاستنتاج من كل ذلك أن تشين تشو تونغ كان شخصية أساسية في نقل الناي جيا كوان. يُضاف إلى ذلك أن المرثية أوردت أن شانغ سونغ تشي كان لديه ثلاثة أو أربعة تلاميذ. لكن بغض النظر عن كتاب يي جي ماي في سي مينغ الواقعة في إقليم تشي جيانغ، لم يُعثر على أي سجلّ يدل على التلميذين، أو التلاميذ الثلاثة الآخرين. لكن منذ يي جي ماي يصبح خط الوراثة أكثر وضوحاً رويداً رويداً.

يُضاف إلى كل ذلك أن الأماكن التي نُقلت فيها الناي جيا كوان كانت: شان زي (وانغ زونغ)، ون تشو (شين تشو تونغ)، سي مينغ (يي جي ماي)، نينغبو (وانغ شينغ نان). إن مرثية إلى وانغ شينغ نان و تقنيات ناي جيا كوان، ومحارب شانغ سونغ زي من تأليف شين يي غوان الذي كان وزيراً خلال حكم سلالة مينغ، وسيرة حياة تشانغ سونغ زي التي كتبها ابن شقيق وانغ سي تونغ؛ وهو مؤرخ عظيم في زي جيانغ الشرقية، كلها ستملأ الفجوة الموجودة في المعلومات المتعلقة بناي جي كوان، وهي المعلومات التي ألّفها هوانغ زونغ زي وابنه. تُعتبر هذه أهم مادة مرجعية في

ملاحظة مسار انتقال مهارات ناي جيا كوان، ودراسة هذا المسار. يُضاف إلى ذلك أن تانغ هاو يورد - وبتفصيلٍ كبير - في سرده عن ناي جيا كوان مسار انتقال مهاراتها.

يمكننا هنا أن نطرح السؤال التالي: كيف انتقلت الناي جيا كوان بعد ذلك؟ أعرب هوانغ بايجيا عن أسفه في كتابه تقنيات الناي جيا كوان الذي كتبه في السنة الخامسة عشرة من حكم الإمبراطور كانغ زي، عندما كتب: «تحولت الناي جيا كوان إلى نهاية علمٍ عظيم». واستنتج هوانغ أن الناي جيا كوان فشلت في تأمين انتقالها في أوائل حكم سلالة تشينغ. أما في أوائل عهد جمهورية الصين فقد قام تانج هاو بزيارة إلى نينغ بو برفقة صديقه فانج مينغ جياو بهدف دراسة إرث الناي جيا كوان، وما لبث أن تأسف في وقتٍ لاحق، «لأن الناي جيا كوان فشلت في عملية نقلها في أوائل عهد سلالة تشينغ». لكن السيّد تشو ليو شن في معرض حديثه المؤثر عن الأيام التي كان يتعلّم فيها في اتحاد شانغهاي شين وو الرياضي، أكّد حديثاً على أنه، «لم تتعرض الناي جيا كوان للضياع؛ لأنه بإمكاننا العثور عليها في نان شونغ، وإقليم سيشوان». كان السيّد تشو ليو شن معلماً شهيراً في الووشو، ورئيساً سابقاً لاتحاد الووشو الصينية.

لكن حتى لو كان ما قاله هوانغ باي جيا وتانغ هاو صحيحاً، فإن ذلك يعني أن فرعاً واحداً من فروع هوانغ باي جيا قد ضاع. لكننا لا نعرف، سواء أكان تلاميذ سونغ زي اثنين أو أربعة، ما إذا كانوا قد استقوا مهاراتهم مِمّن سبقوهم أم لا. يُضاف إلى كل ذلك وبحسب ما أضاف يي جي ماي أن الناي جيا كوان اجتذبت المزيد والمزيد من الأتباع. ويعني ذلك أنه من الخطأ استنتاج أن الناي جيا كوان قد اختفت، لا لشيء إلّا لأن هوانغ باي جيا وتانغ هاو استنتجا ذلك من دون ملاحظة الفروع الأخرى غير فرع وانغ تشينغ نان أو دراستها.

الخصائص التقنية للفنون الداخلية والخارجية

أورد كتاب حوليات نينغ بو: سيرة حياة تشانغ سونغ زي ما يلي: «تقع قوة الووشو في فئتين؛ الأولى فنونٌ خارجية، والأخرى فنون داخلية. تُعتبر الشاولين الفضلى بين الفنون الخارجية. لكن بالرغم من أن ووشو الشاولين تركّز على رمي الخصم أرضاً، إلا أنها تقدم له في أحيانٍ كثيرة فرصاً بسبب عدم الاكتراث، أو الأخطاء التي تشوب حركات المتدربين (الصورة 3-31). لكن مقارنة مع ذلك، يمكننا القول إن





الصورة 3-31 رفسة كونغ فو الشاولين الطائرة

الفنون الداخلية تركّز على المنع، وعدم الرد إلّا عندما يكون ذلك ضرورياً جداً؛ هذا إذا أخذنا مهارات سونغ زي على أنها التعليمات الحقيقية في هذه الرياضة. لكن، ما إن يردّ المتدرب الضربة حتى يضع كل جهده لإيقاع الهزيمة بخصمه؛ من دون ارتكاب أي هفوة، ومن دون أن يترك أي ثغرة تسمح بقيام الخصم بأي هجوم معاكس. هذا هو السبب الذي يجعل الناي جي كوان أفضل». يتضح من ذلك أن الغاية الواضحة من هذا الكلام هي الترويج للناي جيا كوان، لكنه يوضح في الوقت ذاته - وإلى حدٍّ ما - الفروق بين الفنون الداخلية والخارجية. لكن من منظور محتوى ومزايا تقنيات القتال ومبادئه، يمكننا القول إن الفنون الداخلية والخارجية تختلف اختلافاً كبيراً عن بعضها بعضاً.

تشتمل واي جيا كوان على ملاكمة الشاولين، ويونغ شون كوان، وتانغ لانغ كوان، وفان زي كوان، وبيكوا كوان، وداهونغ كوان، وشياهونغ كوانغ، وكاي ليفو كوان، والتاولو الحديثة، والقتال الحر للرياضة. أما ناي جيا كوان فتشتمل على ناي جيا كوان السونغ زي، وناي جيا كوان سي مينغ، وتاي جي كوان، وشينغ يي كوان،

والملاكمة الثمانية، وملاكمة الوودانغ، وماي هوا كوان (صفوف الأعمدة) (الصورة 32-3)، وتونغ باي كوان، وميان كوان القديمة، وينجن كوان، وداشنغ كوان في العصر الحديث، وغيرها.

أما بالنسبة إلى التقنيات والمبادئ القتالية فإن واي جيا كوان تشدّد على الهجوم المباغت. وتشتمل الواي جيا كوان على إيقاعٍ واضح وقوةٍ ضخمة، وهي تظهر بشكلٍ خاص عندما تكون بسيطةً ودقيقة ومرنة. يعني ذلك أنه عند البدء بالهجوم ينبغي التقدم إلى الأمام، والتراجع على الخط ذاته. تشدّد الواي جيا كوان على تقوية الجسم، لكن ناي جيا كوان تشدّد في المقابل على اعتبار الدفاع أولوية، والذي يجب أن يتميّز بالتغلب على الحركة بالسكون، والتغلب على الزخم بالهمود، وأخيراً توجيه الضربة القاضية إلى الخصم. وبالرغم من توجيه تلك الضربة بعد هجوم الخصم، إلا أن المحارب يتمكّن عن طريق الانتظار واكتشاف نقطة الضعف التي أظهرتها قوة خصمه، من قهر عدم الإذعان بالإذعان، والتغلب على الحزم باللّين، وتحقيق النصر على قوىً أكبر. وهي تشدّد كذلك وبشكلٍ خاص على المحافظة على الصحة، وتعزيز موارد المرء الداخلية.



الصورة 3-32 ماي هوا كوان

تدعى الماي هوا كوان كذلك أعمدة كوين كونشيال، وهي أحد أبرز أساليب الملاكمة. جرت العادة على أن يتم التدرب على ماي هوا كوان في الهواء الطلق. ظهرت هذه الرياضة في أواخر عهد سلالة مينغ، واكتسبت شعبية كبيرة خلال حكم كيان لونغ من سلالة تشينغ. تشتمل أنماط الأعمدة على أعمدة مغروزة كبيرة، وأعمدة التلال الصغيرة الثلاث، والأعمدة الملتمعة، والأعمدة الضخمة، وثمانية أعمدة ثلاثية الأحرف. توجد هناك خمسة مصفوفات من الأعمدة، أي داشي، وشون شي، وشياو شي، وآو شي، وباي شي. أما التاولو الخاصة بها فطبيعية وناعمة، أي مثل السحب الطافية في السماء والمياه الجارية، فهي سريعة ومنظمة وجميلة.



يمكننا هنا أن نأخذ مبدأ «انتظر، وراقِب، وأظهِر الضعف» كمثال. يعطي هذا المبدأ - بوصفه تكتيكاً قتالياً - الأهمية القصوى للتغيّرات الانتقالية بين الهجوم والدفاع، كما يشدّد على الرشاقة والمرونة وسرعة الحركة والقوة في الهجوم المعاكس. لكن هذه هي التكتيكات ذاتها التي يقترحها سون - تزو في كتابه فن الحرب: «تمويه نقاط القوة بنقاط الضعف»، و«اهجم عندما لا يكون خصمك جاهزاً»، و«اضرِب العدو في أضعف نقاطه». لكن، إذا أردنا أن نكون أكثر دقة، وبالمقارنة مع أبرز ثلاثة أساليب للناي جيا كوان، لا يمكننا القول إن أحدها أسلوب هجومي في المعنى الحقيقي. ويبرز من بينها شعار شينغ يي كوان: «حاول جاهداً تنفيذ الحركات الهجومية»؛ وهو شعار يعطينا الانطباع بأن شينغ يي كوان تشدّد على الهجوم، أي مثل الفنون القتالية الخارجية. لكن الواقع هو أن متدربي شينغ يي كوان يحاولون تنفيذ الحركات الدفاعية قبل تنفيذ الهجوم، مثل القبض على الخصم وليّ ذراعيه قبل التقدم لتسديد لكمةٍ نحوه، والضغط على راحة اليد قبل تحريكها في الاتجاه المعاكس، وملاكمة الدفع مع حماية القسم الأعلى من الجسم. تُعتبر كل هذه الحركات بالفعل هجومات معاكسة، والتي تنفّذ بعد معاناة من الهجوم الأولي للمهاجم. ويتطلب ذلك من المتدرب إجراء تقييم دقيق يتعلق بحركات الخصم. أما مبدأ «انتظِر لترى ما سيحدث»، فيشير إلى تكيّف نفسي معتدل، والحفاظ على ضبط النفس خلال ظروف المواجهة؛ وهو الأمر الذي يتطلب من المحارب الملاحظة الهادئة، والتكيّف بحسب ما تفرضه تلك الملاحظة بهدف إلحاق الهزيمة بالخصم بضربات سريعة ودقيقة، أي بدلاً من المفهوم البسيط الذي يدعو إلى الانتظار بسلبية حتى مجيء الخصم. أما مبدأ «أظهِر الضعف»، فيعني أنه على المحارب البقاء ثابتاً مع حالة انتباه ذهنية حيوية وسط مرونة الحركات، والحركات المضادة التي تستدعيها المعركة، وذلك مع الاعتراف الكامل بأنه يتعيّن على المهاجِم بذل طاقته القصوى، والتمكن من الحفاظ على موضعه خلال فترة الهجوم؛ وهو بذلك يقوم بتكوين نقاط ضعفٍ من دون قصد بمجرد القيام بالهجوم بحد ذاته. يعني ذلك أن المهاجم يخدع خصمه عندما يكشف عن نقاط ضعفه؛ حيث ينخدع ويُهمل الهجوم، ثم يعمد المهاجم بعد ذلك إلى انتهاز الفرصة المناسبة لتوجيه ضربةٍ قوية في سياق الهجوم المعاكس. يمكننا

إطلاق تسمية «ضربة» على هذه الحركة خلال القتال ضد العدو، و«ممارسة» خلال التدرّب على الووشو، و«تعزيز القوى» في المناهج التدريبية الشاملة. أما المبدأ الرئيس «لدمج الضربات، والممارسة، وتعزيز القوى» فهو الموضوع الذي يتردد خلال نظام تقنيات ناي جيا كوان.

لكن يمكننا القول عموماً إن واي جي كوان تشدّد كثيراً على التعزيز الأخلاقي، بينما الناي جيا كوان تقدّر المحافظة على الصحة. وتشدد واي جي كوان على تدريب ما هو خارجي، أي من خلال التدرّب الجسدي بهدف تقوية العضلات والعظام وحماية الأعضاء الداخلية للجسم، وذلك بهدف ردع العدو. تحرص الواي جي كوان على تأمين عناية خاصة بتعزيز القوة والسرعة بهدف إخضاع العدو، وتعيين أولويات الحركات. وفي المقابل، تشدّد الناي جيا كوان كثيراً على تدريب ما هو داخلي؛ بما في ذلك فهم العدو بعمق أثناء المواجهة. وهي ترفق ذلك بتقوية الأعضاء الداخلية من خلال التدرب الجسدي، وذلك من أجل التوصل إلى هدف الحفاظ على الصحة، وإطالة العمر، والمقاومة الشاملة للعدو. يعتمد المتدرب على الملاكمة «الداخلية» على العقل، والإدراك، والانعكاس اللا - إرادي لتوجيه حركات الجسم. وتُظهر كل حركةٍ من هذه الحركات حزماً طاغياً عن طريق الليونة، ويلاحظ المتدرّب خصمه، وينتظر بهدوء فرص التحرك، ثم ينفذ هجومه في وقتٍ لاحق، ولكنه يحقق غايته في وقتٍ أبكر. ينتج كل ذلك عن الفرق ما بين واي جي كوان، وناي جيا كوان بالنسبة إلى دمج المبادئ الأساسية للثقافة الصينية التقليدية، والتي يستوعبها المرء في سياق مراحل تطوره المتعاقبة.

لكن الواي جي كوان، والناي جيا كوان تمتلكان شيئاً مشتركاً. أولاً، وفي الأساس، إن الناي جيا كوان مشتقةٌ من الواي جي كوان. وتشتمل الناي جيا كوان على حركاتٍ وأفعالٍ داخلية وخارجية، وعلى الحزم واللين مجتمعَين. يصدق الأمر ذاته على واي جي كوان. ويعني ذلك أن الفرق ليس مطلقاً، ولكنه يمتلك أهمية نسبية. ثانياً، إن واي جي كوان وناي جيا كوان تشتملان على تقنيات ملاكمة فيها تقليد للحيوانات، مثل قبضة فرس النبي (الصورة 3-33) التي تعتمدها الواي جي كوان. تستعير حركة قبضة فرس النبي من هذا الحيوان سلوكه، وأشكاله، وطريقة قتاله، وتتبنى قوى تقنيات قتالية أخرى بشكلٍ شامل ثم تدخلها في نظام الهجوم والدفاع،



الصورة 3-33 متحمسون أجانب للووشو أثناء تلقيهم درساً في ملاكمة المانتيس (فرس النبي)

تعود ملاكمة المانتيس - وهي أسلوب تقليدي من أساليب الووشو الصينية التقليدية - بجذورها إلى شان دونغ التي تستند على الأسلوب القتالي للمانتيس المتعبدة، أي أنها تنتمي إلى شيانغ شينغ كوان. وتتميز ملاكمة المانتيس بالسرعة، وهي مليئة بالشرف والكبرياء والتصميم والحزم وعدم الخوف، كما تتضمن الهجوم من الأمام، وشنّ هجوم من الجانب، وتجمع بين الزائف والحقيقي، والقصير والطويل، واللين والحزم. يقاتل المحارب بكلتا يديه وكلتا قدميه، ويجعل من نفسه غير قابلٍ للتوقّع بالنسبة إلى خصمه. يُضاف إلى ذلك أنه يقوم بسلسلة من الحركات الهجومية والدفاعية بشكلٍ مستمر حيث يعجز الخصم عن التقاط أنفاسه.

أي مثل الين واليانغ، والصلابة والنعومة، والتقدم والتراجع، وغير ذلك. يمكننا القول إن طريقة شينغ يي كوان مشابهة - وهي أحد أساليب الناي جيا كوان - تقوم بتقليد الأسلوب القتالي لتحركات 12 نوعاً من الحيوانات، وترفق ذلك بإيماءاتٍ حيوية وتقليد مهارات الهجوم للحيوانات على وجه الخصوص. ثالثاً، يمكننا القول إنه استناداً إلى أحد مبادئ الثقافة الصينية التقليدية - وهو «الاحترام والتحمّل» -

إن النوعين يتجهان نحو الدفاع عن النفس، ويهدفان إلى إرعاب العدو، وردعه من خلال التدرّب الجسدي، مع الحرص على عدم إيذاء الآخرين والخصم نفسه أثناء المواجهة.

لكن ذلك الفرق الحاد في النظام العقائدي، وفي تقنيات القتال، والذي يفصل بين الفنون القتالية الخارجية والداخلية، هو الذي أطلق جدالاً واسعاً في أوساط الووشو حول أيهما الأفضل من بينهما. لكن الواقع هو أنه لا جدوى من الجدال حول الفرقة الفضلى، كما أن ذلك ليس ضرورياً إطلاقاً. يمكننا القول إن الناي جيا كوان والواي جي كوان يكملان بعضهما بعضاً، كما أن ظهور الناي جيا كوان، والواي جيا كوان أشار إلى نضوج نظام الووشو التقني والنظري في سلالتَي مينغ وتشينغ، كما كان تجسيداً لواقعٍ أكبر يشير إلى أن معرفة الناس بالووشو تقدمت ممّا هو حسي إلى ما هو عقلاني، وشكّلت تغيّراً كمياً في النظر إلى الحركيات الجوهرية للقتال بوصفها كلاً قابلاً للفهم.



الفنون القتالية
الووشو الصينية

الفصل الرابع

الووشو وأماكن الووشو المقدسة

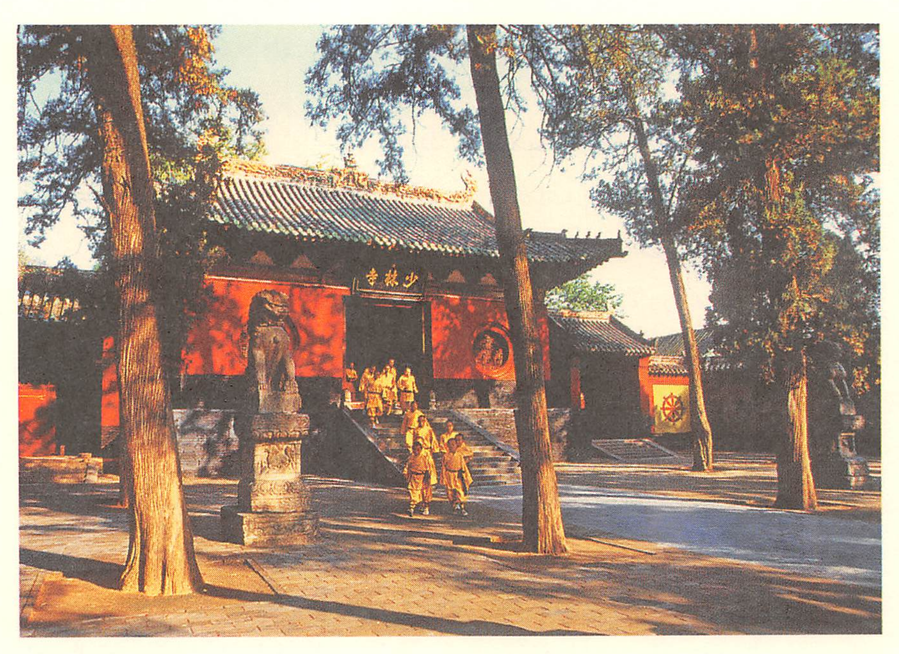
الروح القتالية للشاولين

يظن المرء للوهلة الأولى عند حديثه عن معبد الشاولين أن الأمر يتعلّق بووشو الشاولين بدلاً من «معبد بوذية الزن القديم». يُضاف إلى ذلك أن الغرباء يعتبرون ووشو الشاولين صنواً للكونغ فو الصينية، كما أن عدداً من الأصدقاء الأجانب يأتون من أماكن بعيدة فقط ليروا بأعينهم فخامة الووشو الصينية وروعتها. يمكننا القول إن النفوذ العظيم لمعبد الشاولين لا يمكن فصله عن تاريخه أبداً.

بادرا يؤسس معبد شاولين

شيّد كاهن يدعى بادرا معبد شاولين خلال حكم الإمبراطور شياو ون من سلالة وي الشمالية. ويُدعى هذا البناء شاولين سي (معبد شاو لين)، وذلك بحكم موقعه وسط الغابات الكثيفة التي تحيط بجبل سونغ. يتحدث كتاب كتاب وي الشمالية: حوليات البوذية والطاوية عن بادرا ومعبد شاولين على هذا النحو: «سافر معلم بوذا بادرا، وكان أحد معلّمي التأمل الهنود، والذي يُعرف كذلك باسم «باتو» في الصينية، في أنحاء الأقاليم الغربية، ونشر البوذية في الصين. كان وصوله موضع ترحيب حاراً من جهة الإمبراطور شيا ون، وهو الذي شيّد في تلك الفترة معبد الشاولين وسط جبال شاو شي لكي يتمكن بادرا من التبشير بعقيدته». أما كتاب «تتمة سيرة حياة الراهب ذائع الصيت، والذي كتبه شي داو شوان، فيتضمن سجلات أكثر أهمية عن بادرا. تمكّن بادرا الذي يدعى بوذا أيضاً، من إقامة صداقة مع خمسة أصدقاء خلال مكوثه في الهند، وما لبثوا أن تحولوا معاً إلى البوذية. نجح الأصدقاء الخمسة محلياً ما عداه، لكن أحد أصدقائه قال له عندما لاحظ مدى حزنه: «يعود السبب الأكبر في كل ذلك إلى القَدَر. لكن ما إن تحين الفرصة المناسبة حتى يلاقيك النجاح من حيث لا تدري، والصين فرصتك، وسوف تعثر على اثنين من أتباعك، وهناك سوف تثمر جهودك». عمل بادرا بنصيحة صديقه، وانطلق في رحلة طويلة إلى بينغ شينغ، وهي عاصمة سلالة واي الشمالية. كان الإمبراطور شياو ون في ذلك الوقت قد بدأ لتوه في ترسيخ حكمه، كما عبّر عن إعجابه الكبير بذلك الراهب الهندي، وأمر بتشييد معبدٍ بوذي من أجله. أما عندما





الصورة 4-1 معبد شاولين في جبل سونغ

نقل الإمبراطور شياو ون عاصمته إلى لوه يانغ فقد أحضر بادرا معه. لم يكن بادرا مستعداً بعد وصوله إلى العاصمة للعيش في تلك المدينة، لكنه فضّل بدلاً من ذلك الحياة المنعزلة في جبالٍ بعيدة وأودية سحيقة، ثم توجّه إلى جبل سونغ مراتٍ عديدة. لاحظ الإمبراطور الأمر، فأمر بتشييد معبد شاولين في جبل سونغ خصيصاً لبادرا. (الصورة 4-1)

أحرز معبد شاولين شهرةً كبيرة منذ بداية تشييده، مع نيل بادرا حظوة كبيرة من الأسرة المالكة. ونتيجة لذلك، توافد أتباع البوذية إلى ذلك المعبد. في تلك الفترة، انشغل بادرا بوعظ حشود الناس التي تقاطرت إلى معبده، وترجمة الكتب المقدسة البوذية من اللغة الهندية إلى اللغة الصينية. بعد ذلك، تحوّل معبد شاولين تدريجياً إلى مكانٍ مقدسٍ للبوذية. أما الطريقة التي مارس فيها بادرا عقيدة الزن، ودعا إليها، فتدعى «زن تريبيتاكا». وتشير تريبيتاكا إلى ثلاث مجموعات أساسية من الكتب التي تؤلف عقيدة الدعوة البوذية، بما فيها سوتا بيتاكا، وفيناي

بيتاكا، وأبيداما بيتاكا. أما سوتا بيتاكا فتشير إلى أهم الكتب البوذية، مثل سوترا دياموند (الصورة 4-2)، ونيرفانا سوترا، وغيرها من الكتب. وهي كلها ترجمات للكتب الأصلية في الهند. أما فيناي بيتاكا فتشير إلى تعاليم البوذية. ونلاحظ هنا أن إنكار الذات والقواعد أمران يختلفان عن بعضهما بعضاً. يشير إنكار الذات إلى البنود التي يتعيّن على البوذي التقيّد بها، بما فيها بنود العقاب وطرقه. لكن القواعد تعني التعليمات المطلوبة لتنظيم سلوكيات الكهنة. أخذ «إنكار الذات» و«القواعد» اسماً مشتركاً بعد ذلك وهو «التعاليم». تشير الأبيداما بيتاكا إلى تفسيرات أهم كتب البوذية، أي تفسيرات الكهنة الصينيين لأهم الكتب البوذية. طلب بادرا من أتباعه عدم الاكتفاء بإنشاد «تريبيتاكا»، بل الجلوس في حالة تأمل مع التركيز بشدة،

الصورة 4-2 غلاف سوترا دياموند

يُظهر هذا الغلاف بوذا متحدثاً مع أتباعه. سوترا دياموند من أهم النصوص الدينية في بوذية الزن الصينية، وتشتمل على ست صيَغٍ مختلفة ظهرت في فترات مختلفة؛ بدءاً من حكم سلالة جين الشرقية ووصولاً إلى عهد سلالة تانغ. لكن أشهرها كان سوترا فيارشيديكا والتي ترجمها كوماراجيفا. أما سوترا دياموند فقد اكتُشفت في دون هوانغ في أوائل القرن العشرين، وهي واحدة من النقوش الأولى. كما أنها الآن جزء من مجموعة المكتبة البريطانية.





وذلك من أجل التوصّل إلى فهمٍ متنورٍ لهم. تعود طريقة بادرا في اتباع طقوس الزن إلى الطريقة الهندية التقليدية؛ وهي الطريقة التي كانت شائعة جداً في تلك الحقبة. أما في سنواته الأخيرة، فلم يشارك بادرا في أنشطة المعبد، بل عثر على مكانٍ منعزل يمكنه الجلوس فيه للتأمل حتى الوصول إلى باري نيرفانا، أو الارتقاء الروحي. وكان ذلك هو السبب في عدم العثور على مدفنه، أو حتى الباغودا (المعبد) الخاص به. (الصورة 4-3)

الصورة 4-3 غابة باغودا الشاولين

كانت غابة باغودا الشاولين مجموعة من مقابر رهبان الكهنوت على مدى السلالات المتعاقبة. وكان رماد العظام أو الهياكل العظمية الخاصة برهبان الشاولين البارزين توضع في تلك المدافن التي تشيّد فوقها الباغودا للتركيز على فضائلهم وكراماتهم. أما ارتفاع الباغودا، وحجمها، وعدد طبقاتها فتحدد إنجازات المتوفى في طقوس عبادات البوذية، بالإضافة إلى هيبته ومزاياه وفضائله.

قام بادرا أثناء إعطائه تلاميذه المواعظ بتدريب اثنين منهم. وكان سينغ تشو أحدهما، أما الآخر فكان هوي غوانغ. جرت العادة في ذلك الوقت على عدم قبول أي شخص كمتدرب ما لم يُلحَظ لديه «جذر الحكمة». وكان سينغ تشو قد قرأ عدداً وفيراً من الكتب منذ نعومة أظفاره، وهكذا استخدم معرفته في نيل منصب معلم في الأكاديمية الملكية. تحوّل سينغ إلى البوذية في وقتٍ لاحق، وتلقّن التعاليم، ثم توجّه إلى معبد الشاولين ليتعلم طرق ممارسة الزن من بادرا. بدأ سينغ تشو بإلقاء العظات بعد باري نيرفانا بادرا، وحاز على 100 من الأتباع، وهكذا لقي التكريم من العائلة المالكة، ونال حظوةً عندها. أمضى سينغ أواخر أعوامه في معبد الشاولين، ومات فيه. بعد ذلك، أصبح هوي غوانغ معلماً عظيماً للمعارف البوذية، كما قدّم إسهاماتٍ كثيرة لتطوير التعاليم البوذية الصينية، وأسّس مذهباً صينياً من البوذية، وهكذا لقي تكريماً كبيراً، واعتُبر «البطريرك الخامس للبوذية». شاعت في ذلك الوقت أسطورة عن هوي هوانغ في معبد شاولين. تقول الأسطورة إنه عندما كان هوي هوانغ شاباً تمكّن من ركل الطابة المتأرجحة في الشارع 500 مرة. تعجّب كل الحاضرين من هذا المشهد، لكن عند مرور بادرا ورؤيته موهبة هوي كوانغ المذهلة سارع في دعوته ليكون تلميذاً له.

حرص بادرا في الأيام الأولى لتأسيس الشاولين على اختيار تلاميذه من الذين يمتلكون «جذر الحكمة»؛ وذلك من أجل استمرارية العقيدة البوذية، والترويج لها، وتعزيز نفوذ معبد الشاولين في الأوساط البوذية. تمكّن بادرا من نقل طريقة ممارسته لمذهب الزن إلى تلاميذه، وهم الذين ساهموا بدورهم بالترويج لتلك الطريقة. لكن من جهة أخرى، ساعدت مساهمات تلاميذه معبد الشاولين على التوصل إلى مركز أعلى في الأوساط البوذية. كان بادرا وتلميذاه المفضّلان عنده - هوي هوانغ وسينغ تشو - أكثر الرهبان شهرة في معبد شاولين، وحتى في تاريخ البوذية الصينية بشكلٍ عام. وضع هؤلاء الرهبان أساساً متيناً لتطوير معبد شاولين وترسيخ مكانته. لكن مما يدعو للأسف أن ووشو الشاولين كان يعمل على نطاقٍ صغير في تلك الحقبة.



رهبان العصا الثلاثة عشر

ساعد معبد شاولين منذ ذلك الحين، ومن خلال ترويجه للعقيدة البوذية، وبوذية الزن، وطريقة العيش الفريدة بتسهيل تطور ووشو الشاولين. وهكذا، أخذت ووشو الشاولين المنهجية بالتطور تدريجياً على يد أفراد الشاولين الأوائل. غير أن الشاولين عُرفت بين الناس للمرة الأولى خلال حرب الفلاحين التي جرت في أواخر سلالة سوي. ولعب رهبان الشاولين دوراً هاماً في هذه الحادثة التاريخية.

كانت الطبقة الحاكمة في غاية القسوة والفساد في أواخر أيام سلالة سوي، كما انشغلت بحروبٍ عدوانية. ونتيجة لذلك، قامت ثورات مسلحة؛ الواحدة تلو الأخرى، في أنحاء البلاد كافة. وفي تلك الفترة، قام لي يوان - وكان ضابطاً كبيراً في جيش سوي - بإرجاع جنوده نحو العاصمة بعد أن كان متمركزاً على حدود تاي يوان. ظهر في تلك الفترة بالذات عددٌ كبير من أمراء الحرب في أنحاء إمبراطورية سوي كافة، واحتفظ كلٌّ منهم بجيش خاصٍ به، كما قاموا بتحدّي أوامر الإمبراطور، ومحاربة بعضهم بعضاً سعياً وراء السلطة. وكانت نتيجة هذه الحروب تشريد الناس من بيوتهم، وتعرّضهم لمعاناة لا توصف. كان وانغ شي شونغ في لو يانغ، وداو جياند في شان دونغ اثنين من أولئك الأمراء، ومن أكبر أعداء لي يوان. أراد لي يوان القضاء على الخطر الذي يمثّله أمراء الحرب وتوحيد الصين، فأرسل ابنه لي شيمين في مهمة استطلاع إلى جهة الشرق؛ بهدف القضاء على وانغ شي شونغ في لو يانغ.

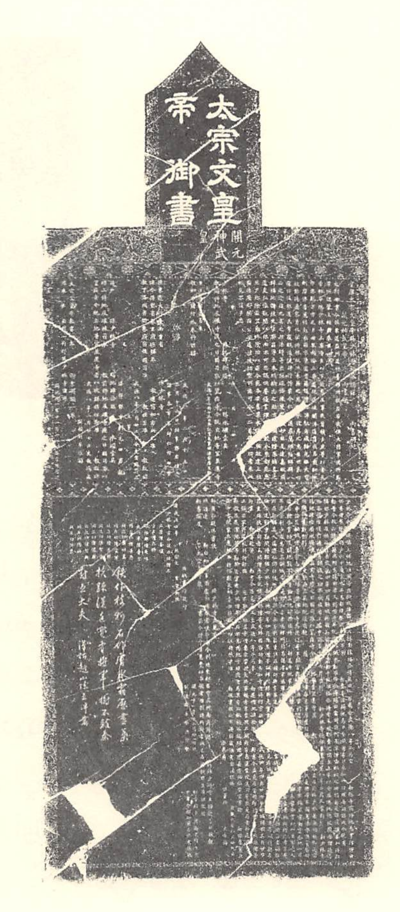
أما في سنة 621 بعد الميلاد (السنة الرابعة لحكم وود من سلالة تانغ)، فقد قاد لي شيمين جنوده بهدف محاصرة مدينة لو يانغ. لكن، وبالرغم من أن جنود تانغ شنّوا هجمات متكررة، إلّا أنهم فشلوا في الاستيلاء على المدينة بسبب قلعتها المحصّنة جيداً. يُضاف إلى ذلك أن وانغ شي شونغ طلب المساعدة من داو جياند في شان دونغ، وما لبث الأخير أن وافق، وكان على وشك إرسال 100,000 من أفضل جنوده المدرّبين جيداً من أجل إنقاذ وانغ شي شونغ. لكن في تلك اللحظة الحرجة، عمد ثلاثة عشر راهباً من رهبان شاولين، والذين كانوا برئاسة معلم الكونغ فو تان تسونغ، وبمساعدة ضباط وجنود في يوان إلى شنّ هجوم مفاجئ ضد وانغ رينزي في بوغو وو. تمكّن الرهبان أخيراً من شنّ هجومٍ مفاجئ ضد وانغ رينزي في بوغو



الصورة 4-4 نقش يمثّل رهبان العصي الثلاثة عشر أثناء إنقاذهم إمبراطور تانغ في معبد شاو لين

وو، كما تمكّنوا أخيراً من إلقاء القبض على وانغ رينزي حياً، وهكذا أحرزوا نصراً كاملاً (الصورة 4-4). كانت لهذه المعركة أهمية بالنسبة إلى نظام حكم تانغ. في هذه الأثناء، زحف وانغ رينزي، وهو أحد أقرباء وانغ شي شونغ إلى بوغو وو التي لم تكن نقطة استراتيجية في الطريق إلى ليو يانغ فقط، بل كانت كذلك أهراء القمح بالنسبة إلى شي شونغ. لكن بالنظر إلى أن رهبان العصي الثلاثة عشر في شاولين استولوا على بوغو وو وأعلنوا ولاءهم لأسرة تانغ، فقد تمكّن لي شيمين من التخلص من خوف تعرضه لهجوم من الخلف، وبدأ بالقتال بكل ما أوتي من قوة ضد التعزيزات التي أرسلها داو جياند. وكانت النتيجة أن داو جياند قد هُزم وألقيَ القبض عليه وهو حي. لم يكن أمام وانغ شي شونغ المحاصر في ليو يانغ أي خيارٍ غير الاستسلام، وذلك بعد أن فَقَد أي أمل لديه بتلقي تعزيزات؛ هذا بالإضافة إلى عدم توافر الأطعمة. وفي النهاية، أحرزت قوات تانغ نصراً كاملاً ضَمِن لها عرش سلالة تانغ.

كتب لي شيمين بعد هذه المعركة الحاسمة رسالةً إلى معبد شاولين أثنى فيها على شاولين بوصفه، «الطريق إلى الأرض الطاهرة». ويُضاف إلى ذلك أن لي شيمين قام بإعادة أراضي شاولين التي كانت محتلة على يد وانغ رينزي، و«منح 40 جينغ من الأراضي بالإضافة إلى ناعورة مياه». باستطاعة المرء - وحتى في هذه الأيام - رؤية بقايا برج أسطواني الشكل لمعبد شاولين في نقشٍ حجري تضمن ثناءً على المساعدة التي قدّمها معبد شاولين (الصورة 4-5). لكن بفضل هذا الثناء والمنح التي قدّمها الحكام، شهد معبد شاولين تحسينات كبيرة؛ الأمر الذي



الصورة 4-5 يُظهر هذا الرسم الناتج عن حك نقوش لوحٍ حجري الثناء على فضل الشاولين

ساعد على الترويج للعقيدة البوذية. أما بعد مرور أكثر 100 عام، ومع ازدهار إمبراطورية تانغ، فقد شهد معبد شاولين تطوراً هائلاً. أدّى العمل البطولي الذي قام به رهبان العصي الثلاثة عشر عندما أنقذوا إمبراطور تانغ إلى حصولهم على ثناءٍ شعبي كبير. وقد أدّى كذلك إلى إعطاء حماة معبد الشاولين حقوقهم، وإلى إنقاذ البلاد والناس، كما جعل ووشو الشاولين معروفة للعالم للمرة الأولى. وكانت نتيجة ذلك أن أصبحت عصا الشاولين معروفة للعالم.

القتال ضد القراصنة اليابانيين

أحرز معبد شاولين مكاسب ملحوظة خلال الحرب ضد وانغ شي شونغ، كما دخل عصره الذهبي في مراحل تطوره بعد تأسيس حكم سلالة تانغ. لكن، مما يؤسف له أنه مع انحطاط إمبراطورية تانغ توقف تطور ووشو الشاولين. أما بعد استيلاء تشاو كوانغ ين - الإمبراطور المؤسّس تاي زو من سلالة سونغ - على السلطة بالقوة المسلّحة، فقد طبّق سياسة «إعلاء شأن القلم وكبح السيف»، وذلك بهدف فرض قيود صارمة على تطوير الووشو بين الناس. ولهذا السبب، لم يتجرأ رهبان معبد الشاولين على ممارسة الووشو علناً بين الناس. وبدأ أولئك الرهبان بدلاً من ذلك بممارسة الووشو في منتصف الليل فقط، أو في البرّية. يُضاف إلى ذلك أنه بينما اقترحت الكونفوشيوسية الجديدة (المدرسة الكونفوشيوسية ذات الفلسفة المثالية لسلالتَي سونغ ومينغ) «جعل مسار الطبيعة يقوى ويظهر، بينما تتلاشى الرغبات البشرية»، كما طلبت من الناس

كبت فردانيتهم، تم منع الناس من إظهار حماستهم لممارسة الووشو، وذلك انطلاقاً من قناعاتٍ عقائدية.

وبعد تأسيس سلالة يوان الحاكمة، فرض الحكام قيوداً صارمة على ممارسة شعب الهان للووشو؛ وذلك بهدف منعهم من الثورة. ولم تكن ووشو الشاولين استثناءً من هذا المنع. لكن لحسن الحظ، وبالرغم من الحظر الذي فرضه حكّام سلالتي سونغ ويوان استمرت ووشو الشاولين، بل على العكس من ذلك، بسبب المنع الذي فرضه الحكام على الووشو القتالية بدأت تقنيات كمال الأجسام المكملة في معبد شاولين بالتطور؛ وهو الأمر الذي ساهم كثيراً في تحسين ووشو الشاولين بعد مرور عدة سنوات. (الصورة 4-6)

شهدت أواسط فترة حكم سلالة مينغ وأواخرها بداية ظهور التأثير الساحر لووشو الشاولين، وبداية دخول الووشو الصينية حقبة أخرى من التطور العظيم. ومن الناحية التاريخية، يمكننا القول إن عهد سلالة مينغ كان فترة تداخل التراث


الصورة 4-6 رهبان الشاولين يمارسون الووشو





التقليدي للأمة الصينية، كما أن تلك الفترة شهدت ذروة التراث الصيني، أي عند ظهور الأعمال الكلاسيكية العظيمة الثلاثة بالترافق مع يونغل كانون الذي يعدّ أعظم كتاب مرجعي لتلك الفترة. يُضاف إلى ذلك أنه بفضل التبادلات المتكررة مع العالم الخارجي، والاتجاهات الثقافية المختلفة، وعلم الفلك، والطبوغرافيا، وعقيدة الين واليانغ، والطب، والعرافة، والبوذية، والطاوية، والحِرَف، وغير ذلك من الفنون، تداخلت كل هذه العناصر معاً، وساعدت على تقدّم كل منها. لم تُضِع الووشو وقتاً في استيعاب أساسيات مهارات الووشو التي ظهرت في عهود السلالات السابقة وإدماجها. وكانت نتيجة ذلك ظهور أبرز فرقتين من الووشو مع استفادتهما من البوذية والطاوية. يُضاف إلى كل ذلك أن الووشو في تلك المرحلة تطورت إلى مجموعة مهارات نظرية ومنهجية متأثرةً بالتاولو، كما أصبحت فنوناً قتالية بالمعنى الحقيقي، وتميزت بدمج النظرية مع الممارسة.

اكتسبت ووشو الشاولين شهرة كبيرة في تاريخ الووشو، وعلى الأخص للأسباب التالية: أولاً، كانت ووشو الشاولين غنّية بمحتوياتها، ومتنوعة في التاولو. كانت ووشو الشاولين في أواخر حكم سلالة مينغ مجزأةً في ما يتعلّق بخصائصها إلى عملٍ داخلي وعمل خارجي، وفنون قاسية، كينغ كونغ وكي كونغ، وغيرها. يشدّد العمل الداخلي عموماً على تطوير جينغ وتشي للمتدرب. أما العمل الخارجي والفنون القاسية (الصورة 4-7) فتساعد على تعزيز قوة جزءٍ معين من الجسم. تساعد كينغ كونغ على تطوير مهارات القفز العمودي والقفز الأفقي، بينما تشتمل كي كونغ على تعزيز تشي وتغذيتها. أما في ما يتعلق بميزات التقنيات القتالية، فإن ووشو الشاولين تنقسم إلى ما يزيد عن 100 تقنية بما فيها تقنيات الملاكمة، وقتال العصي، والرمح، والسيف العريض، والسيف، والقتال بالأيدي، وتمارين استخدام الأسلحة، والهجوم والدفاع، وغير ذلك.

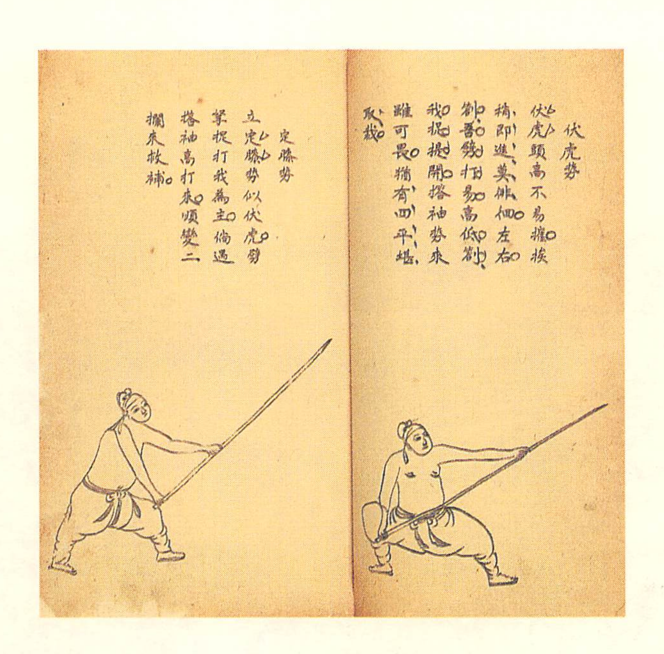
يضاف إلى ذلك أنها ناتجة عن أعمال ووشو الشاولين. تعلّم تشينغ زونغ يو مهارات الووشو في معبد شاولين لفترة تزيد عن عشر سنوات، وكان معلماً عظيماً للووشو أثناء حكم سلالة مينغ، وما لبث أن ألّف كتاب تفاصيل تقنيات عصا الشاولين (الصورة 4-8)، وهذا الكتاب يشكّل أول دراسة عن ووشو الشاولين. ويتضمن هذا الكتاب ملخصاً عن تقنيات عصا الشاولين. يُضاف إلى ذلك أن كتاب



الصورة 4-7 الفنون القاسية لووشو الشاولين

تقنيات الرمح مينغ لوتانغ الذي ألّفه هونغ تشوان، الراهب ومعلّم الووشو، تمكّن من إدخال تقنيات استخدام الرمح في ووشو شاولين. ومن الجدير بالذكر أن ظهور الدراسات حول ووشو الشاولين ترافق مع تطورها المنهجي في النظرية، والتاولو، والفرق التي انبثقت عنها. ويمكننا القول إن ووشو الشاولين تقف بأساليبها المميزة كمنارة عظيمة في العالم.

ظهرت بعد ذلك مواد تاريخية وفيرة حول ووشو الشاولين، وكان من الصعب قبل عهد سلالة مينغ العثور على أية معطيات، ومواد تاريخية حول ووشو الشاولين ورهبانها، والتي يُمكن العثور فيها على مهارات الووشو. لكن توافرت بعد ذلك، أي بعد عهد سلالة مينغ الوسطى نصوص مفيدة وكثيرة، وكان عدد منها بمثابة سجلات حول مشاركة رهبان الشاولين في المعارك. وقد أورد كتاب تاريخ سلالة مينغ: فن الحرب أن «أربعين جندياً من الرهبان من معبد شاولين التحقوا بالجيش ضد القراصنة اليابانيين، وكانوا يحققون النصر على الدوام». لقيت مشاركة الجنود



الصورة 4-8 صفحة داخلية من كتاب تفاصيل تقنيات عصا الشاولين

الرهبان في الحروب ضد القراصنة اليابانيين اهتماماً كبيراً في تراث سلالة مينغ الشعبي. تواجد رجال ميليشيا وجنود من الرهبان على جميع مستويات النظام العسكري في سلالة مينغ؛ وهو الأمر الذي لم يقتصر على تسهيل تطوير الووشو كثيراً بين الناس العاديين، ولكنه مكّن ووشو الشاولين من التحرّك خارج المعبد لتلعب دورها في «حماية البلاد والشعب». ويورد كتاب ري تشي لو (سجلات بعض الأفكار اليومية) الذي ألّفه غو يان وو - وكان مفكراً عظيماً من أوائل عهد سلالة كينغ - بعض السجلات عن الجنود الرهبان، ومنها: «أُرسِل يوي كونغ، وهو أحد رهبان معبد شاولين، خلال حكم جيا جينغ لمحاربة القراصنة اليابانيين. قاد يوي كونغ ما يزيد عن 30 من أتباعه لقتل القراصنة اليابانيين بقضبانٍ حديدية. وقُتل في نهاية هذه المعركة جميع الرهبان الجنود كما يموت الأبطال». أما غو يان وو فقد كتب قصيدة رثاء بعنوان «معبد شاولين». تحدث الشاعر بعاطفة عميقة عن مشاعر رهبان الشاولين أثناء دفاعهم عن بلادهم: «رهبان الشاولين على معرفة بأهم كتب البوذية، ويلتزمون بتعاليمها... وقد امتلكوا خبرة كبيرة في الووشو... ومضوا من دون تردد إلى ميادين المعركة... وقاتلوا ببطولة من أجل حماية سيادة بلادهم».

عُثر في معبد شاولين على سجلاتٍ كثيرة على شكل نقوشٍ حجرية، وتتعلق برهبانٍ من الشاولين يتمتعون بمهارات ووشو، والذين استدعاهم البلاط الإمبراطوري من أجل إخماد حركات التمرد ومحاربة القراصنة اليابانيين. تتواجد حتى هذه الأيام 14 مجموعة من اللوحات التي تُظهر رهبان الشاولين الذين يتمتعون بمهارات الووشو، وذلك في قاعة شي لاي التابعة لمعبد شاولين، والتي تسمى كذلك «قاعة شوي بو». كما تتواجد بين تلك اللوحات المجموعتان الثانية عشرة والثالثة عشرة. ويظهر في تلك اللوحات راهبان (أحدهما يدعى شياو شان، والآخر يُدعى يوي كونغ) أثناء قيادتهما رهبان الشاولين من حاملي العصي أثناء قيامهم بمهماتهم. لم تقتصر مشاركة الرهبان في مقاومة القراصنة اليابانيين على تسهيل ترويج ووشو الشاولين بين الناس، ولكنها أكسبت المعبد شهرة كبيرة، ورفعت منزلته الاجتماعية. يُضاف إلى ذلك أن المشاركة في المعارك مكّنت ووشو الشاولين من تجربة المشاركة الفعلية في القتال، كما ساعدت على تعزيز تبادل الخبرات بين ووشو الشاولين والفِرق الأخرى؛ وهو الأمر الذي أعطى دفعاً ساعد على ازدهار الفنون القتالية الصينية وتطويرها.

الروح القتالية لدى تلاميذ الشاولين

شهدت حقبة جمهورية الصين اضطرابات اجتماعية، ونزاعات بين عددٍ من أمراء الحرب. وخلال هذه الفترة، احترقت القاعة الرئيسة لمعبد شاولين، ومكتبة الكتب المقدسة، وبضعة مبانٍ أخرى تابعة لمعبد شاولين. وكانت نتيجة ذلك أن معبد شاولين عانى من أضرارٍ كبيرة. لكن منذ العام 1949، علّقت الحكومة أهمية عظيمة على تطوير معبد شاولين، ولهذا رُمّمت المباني المهدمة واللوحات، وبذل المختصون والباحثون - وكذلك الشخصيات الدينية الأخرى - في تلك الفترة جهوداً متواصلة لحماية الآثار القديمة، والكتب الدينية البوذية الهامة. لم تسفر هذه الإجراءات عن حماية التراث الثقافي لمعبد شاولين بفعالية فقط، وإنما ساعدت أيضاً على إعادة الحيوية للشاولين وتعزيز ثقافته. يُضاف إلى ذلك أنه تمّت إقامة مهرجان ووشو الشاولين الدولي (الصورة 4-9) عدة مرات، كما اجتذب هذا المهرجان عدة منظمات وأفراد من داخل البلاد وخارجها، وذاعت شهرته كثيراً في بلدان بعيدة.



الصورة 4-9 العرض الافتتاحي لمهرجان ووشو الشاولين الدولي

منذ العام 1991، أحرز مهرجان ووشو الشاولين الدولي منذ بدايته في تشنغ تشو في الصين نجاحاً كبيراً ورائعاً على مدى ما يزيد عن عشرين عاماً؛ وذلك بسبب التزامه بعقد الصداقات من خلال الووشو بهدف إحراز تقدمٍ متبادل لكل المشاركين. ويشتمل هذا المهرجان العظيم على أنشطة غنية ومتنوعة، وعلى الأخص منافسات الووشو، واختبارات نظام ووشو الدوان الدولية، والتدريبات على مهارات الووشو الصينية.

تحوّل معبد الشاولين في هذه الأيام إلى موقعٍ هام للتبادل الثقافي الدولي، كما أن ووشو الشاولين يلعب دور الرابط الأهم للتبادل الثقافي بين الصين والبلدان الأجنبية. يتساءل عدد كبير من الناس عن السبب الذي يجعل من معبد شاولين، ووشوو الشاولين يشهدان الازدهار مع مرور الأيام، حتى إنهما أحرزا زخماً وشهرة كبيرين في أنحاء العالم كافة؛ وذلك بالرغم من كل تقلبات الحياة التي مرّت عليهما. تمكن معبد شاولين من الاستمرار، وتمرير تراثه الثقافي حتى هذه الأيام، وذلك بغض النظر عن خلفيته التاريخية الفريدة، وبسبب الروح القتالية المستمرة التي تمتع بها تلاميذه، والتي تجدّدت وانتعشت على الدوام عبر القرون. أورد معلم الزن ديشينغ في شاولين في كتابه أخلاقيات الشاولين وقوانينها: «تخدم الملاكمة الجنوبية، والملاكمة الشمالية، ومهارات عصا الشاولين في الدفاع عن البلاد وتقوية الجسم. ويتميز أتباع الشاولين كذلك بالفضائل الميدانية والقتالية، وبمحبة بلادهم،

وبالمحافظة على إيمانهم؛ وهي كلها تمثّل روح الشاولين. تسعى الشاولين وراء التحفظ والانسجام، أما المبدأ الأساسي لها فهو مكافأة اللطف ومعاقبة الشر. يُضاف إلى ذلك إقناع الناس عن طريق التحلي بالفضيلة وتجنّب الغضب وتقييد الرغبات، وعدم توجيه الضربة إلا بعد أن يوجّه الخصم ضربته أولاً، وكذلك احترام الكبار والصغار في السن، واحترام الوالدين، وإطاعة القوانين، والمحافظة على التعاليم؛ ويمثّل كل ذلك السعي المستمر للشاولين. أما الترويج للعقيدة البوذية عن طريق الزن وممارسة الووشو فيمثّل روحية جميع أتباع الشاولين». كان ذلك كله هو ما سعى إليه شعبنا الصيني على الدوام. ويعود ذلك إلى أن ما يقف وراء هذا السعي أخلاقٌ نبيلة ومتسامحة ومدهشة، وأمة دأبت ووشو الشاولين على تطويرها ودفعها قدماً (الصورة 4-10). أما في هذه الأيام، وبفضل سياسة الدولة التي تقضي بإنعاش البلاد عن طريق التنمية الثقافية، فإن معبد شاولين - ذلك المكان المقدس الذي يمتلك تاريخاً راسخاً - يقوم بدمج ثقافات بوذية الزن والووشو، كما يتطلع قُدُماً إلى مستقبلٍ أكثر إشراقاً.

الصورة 4-10 ووشو الشاولين

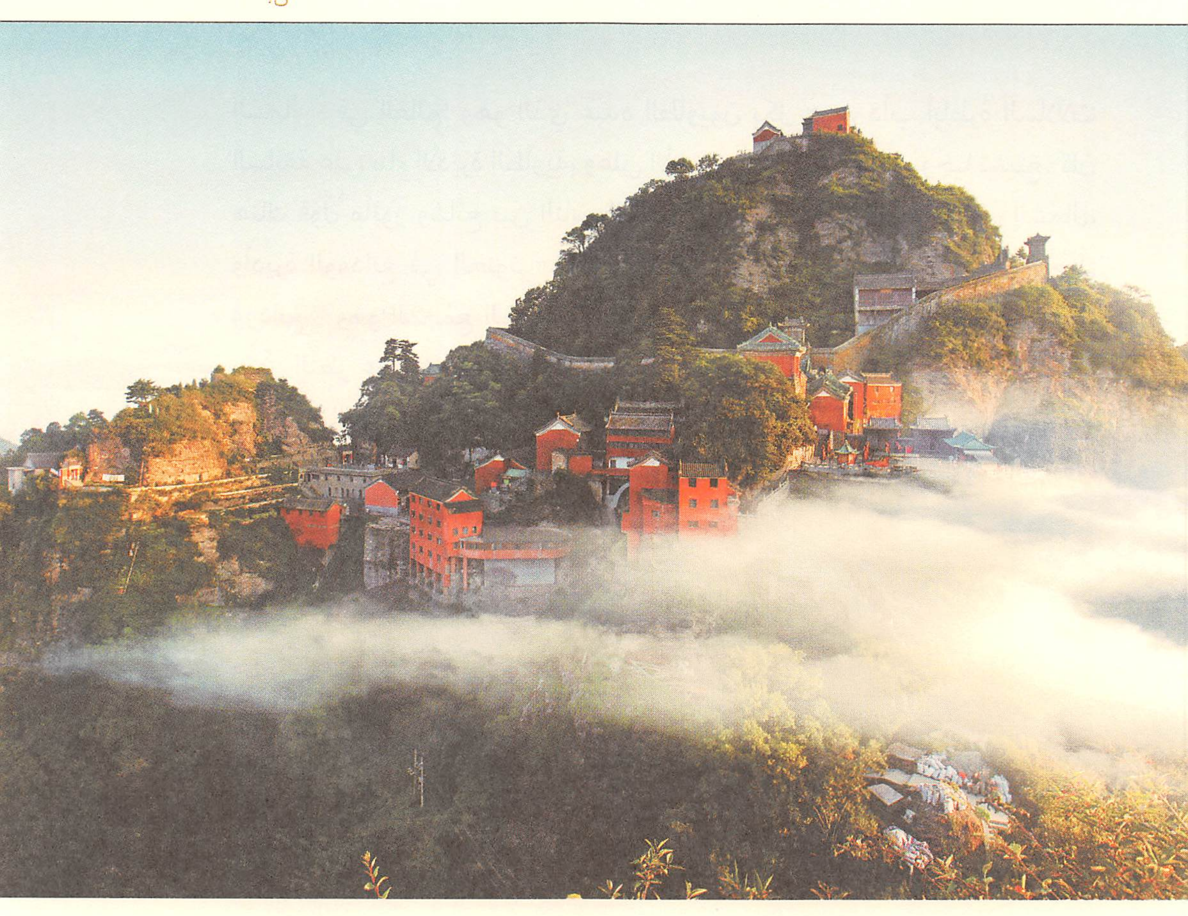


سحر وودانغ الدائم

هناك قول مأثور تردد على مدى قرنٍ من الزمن في تاريخ الووشو الصينية، «ووشو الشاولين هي سلف فِرق الووشو الشمالية، بينما الوودانغ مثال فِرق الووشو الجنوبية». تتنافس الشاولين والوودانغ؛ الأولى في الشمال والثانية في الجنوب، لكن كل واحدة منهما تحتفظ بمزاياها الخاصة.

جبل الطاوية المقدس

يمتد جبل وودانغ على ما يزيد عن ثمانمئة لي، ويقع في الجهة الجنوبية الغربية لمدينة دان جيانغ كو التي تقع في إقليم هوباي، كما يبلغ ارتفاع أعلى قمة فيه (قمة تيان تشو) 1,612 متراً. يُطلق على جبل وودانغ لقب، «الجبل الساحر رقم واحد تحت السماء؛ وذلك بفضل مناظره الرائعة التي لا تجد مثيلاً لها». لقي ذلك الجبل تكريماً هائلاً بوصفه «الجبل الساحر» و«جبل الطاوية (الصورة 4-11). يجاور ذلك الجبل شاندونغ وهينان في الشرق، وسيشوان في الجنوب، وشان شي في الشمال. وهو بذلك يتمتع بوسائل مواصلات مناسبة سواء أكانت في البر أم في الماء. عاشت أعداد كبيرة من الناس في تلك المنطقة بسبب البيئة الجغرافية الملائمة والمناخ الحسن، وذلك منذ فترتَي الربيع والخريف والدول المتحاربة، كما تمكنوا من التوصّل إلى مستوى عالٍ من الإنتاجية. عاش في تلك المنطقة عدد من الأقليات العرقية. وكانت النزاعات تندلع تكراراً بين تلك الأقليات، ويكون سببها غالباً التنافس على موارد الطعام. وهكذا، أصبحت الحروب الوسائل الفضلى لحل التناقضات الناشبة بينها. ولهذا السبب، تحولت منطقة وودانغ، والمناطق المجاورة لها إلى جبهة أمامية لدولة تشو لتدافع منها عن دول با، ويونغ، وجُن، وغيرها. أما في منتصف وأواخر حقبة الدول المتحاربة، فقد أصبحت هذه المنطقة نقطة وصلٍ بين دول تشو وتشين وهان، كما كانت أفضل طريق مائية لدولتي هان وتشين لشن هجوم ضد دولة تشو. ولهذا السبب، ملأت تشو هذه المنطقة بالجنود من أجل الدفاع عن دولة تشين. ويعني اسم وودانغ المقاومة بواسطة القوة، وهذا ما أعطى الجبل اسمه.



الصورة 4-11 وودانغ - مكان ساحر في الأرض

اكتسبت وودانغ اسمها في فترة ما قبل حكم سلالة تشين، كما اكتسب جبل وودانغ شهرة في أنحاء العالم كافة بوصفه مكاناً مقدساً للطاوية، واعتُبر المكان الذي يعيش فيه الخالدون. زار عدد كبير من الحجاج والطاويين من السلالات المتعاقبة جبل وودانغ، ووضعوا تقديمات البخور، ومارسوا الطقوس الطاوية. أما ووشو الوودانغ، والتي أصبحت تُعرف على أنها كونغ فو ناي جيا، فتقف على قدم المساواة مع ووشو الشاولين. وهذا هو سبب القول إن «ووشو الشاولين سلف فرق الووشو الشمالية، بينما ووشو وودانغ مثالُ الووشو الجنوبية». تقول الأسطورة إن بعض الطاويين اعتادوا السير فوق صخور عمودية بأقدام طائرة؛ وهو الأمر الذي جعل المكان موضع إعجاب عظيماً.

يعتقد أتباع الطاوية أن بناء المعابد على قمة جبل وودانغ الجميلة والعالية أمرٌ يمكّنهم من الوصول إلى السماء، حيث يتمكنون من الفرار من العالم بهدف تحقيق أسمى هدفٍ لهم، وهو السكينة واللا - حركة. ونتيجة لذلك، تحوّل جبل وودانغ إلى أرضٍ مقدسة للطاوية.

يمتلك كتاب حوليات جبل تاي هي تفسيراً آخر لكيفية اكتساب جبل وودانغ اسمه، ويروي أن وودانغ كان المكان المقدس حيث نهض شوان تيان - إمبراطور

السماء - في العالم؛ وهو الذي عبده الطاويون بكل ورع. دأب أباطرة السلالات السابقة على بناء الأديرة الطاوية، وعلى الأخص خلال حكم يونغل وجيا تشينغ. كان هناك قولٌ مأثور وشائع بين الناس العاديين: «شيِّد المدينة المحرمة في الشمال، وأديرة الوودانغ في الجنوب». أما الآن، فإن المجمّع المعماري القديم في جبل وودانغ - وهو المجمّع المعماري الفخم والرائع - أصبح في غاية الضخامة. لكن، بغضّ النظر عن المجمّع المعماري القديم، ما زال هناك ما يزيد عن 7,400 قطعة من الآثار القديمة والنادرة والتي تكثر بينها الآثار الطاوية التي ذاع صيتها في جميع أنحاء العالم. ويعني ذلك أن جبل وودانغ يُعتبر «دار كنز الآثار الحضارية الطاوية».

صورة (12-4)

الصورة 12-4 يو هوانغ جينغ (كتاب إمبراطور الجاد) - أثرٌ تاريخي في جبل وودانغ

يُعتبر يو هوانغ جينغ الجزء الأهم من الكتب الطاوية، ويتألف من ثلاثة أجزاء، لكن المؤلف وزمن إتمامه يبقيان مجهولين. يتحدث الكتاب عن أصل إمبراطور الجاد، كما ينص على ضرورة أن يقرأ الطاويون المؤمنون هذا الكتاب بجدية بالغة.



مؤسّس تشانغ سان فينغ

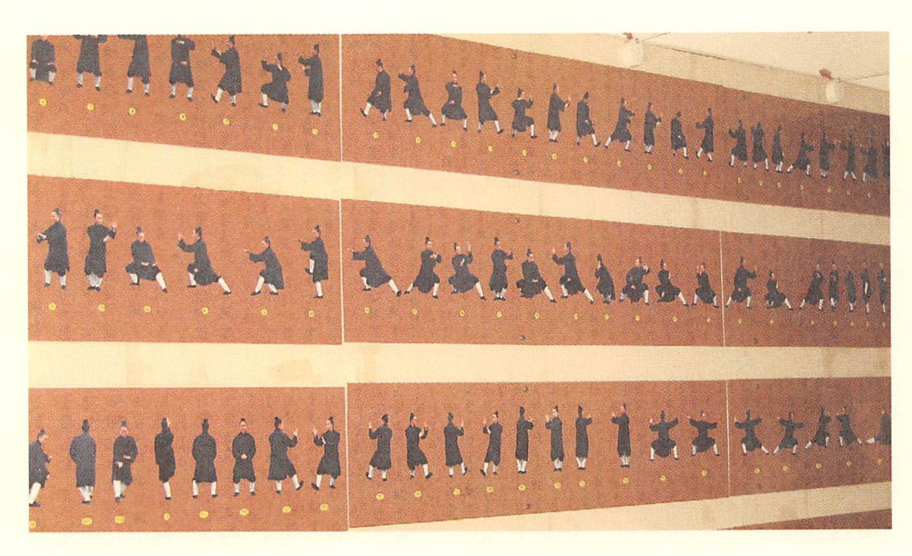
تفاخر ووشو الوودانغ - مثلها مثل ووشو الشاولين - بالتنوع الهائل في محتواها، وبالعدد الكبير من أساليب الملاكمة، والفِرق المنضوية تحت لوائها، ومن أشهرها ملاكمة الوودانغ. لكن قبل عهد سلالتَي الهان والواي، ظهر على جبل وودانغ معلمو تشي جونغ الذين كرّسوا حياتهم بأكملها للتدرب على الووشو. عاش المعلمون حياة عزلة عميقة في الجبال المليئة بالغابات لدراسة الطاوية. أما ذروة نجاح الوودانغ فكان في أواخر عهد سلالة مينغ، وأوائل عهد سلالة كينغ؛ وهو زمن ظهور الشاولين تقريباً.

يُقال أيضاً إن تشانغ سان فينغ (الصورة 4-13) الذي كان كاهناً طاوياً ومؤسس فِرقة الوودانغ، شغل قبل ذلك منصباً حكومياً، ولكنه استقال بسبب غضبه إزاء الفساد في الدوائر الرسمية، وانصرف إلى ممارسة الووشو. جال تشانغ في وقتٍ لاحق في البلاد إلى أن وصل أخيراً إلى جبل وودانغ لدراسة الطاوية. يُقال إن تشانغ كان قوي البنية، وإن أُذنيه وعينيه كانت كبيرة، كما كان ذا شاربٍ كثيف. كان يأكل كثيراً، وبإمكانه الامتناع عن الأكل لأشهرٍ عدة. قيل ذات مرة إنه مات، وما لبث أن عاد إلى الحياة مجدداً. كان الرجل في شبابه ماهراً جداً في ملاكمة الشاولين. وقد حصل تشانغ على قدرٍ من التنور الذي استقاه من الطبيعة منذ قدومه إلى جبل وودانغ، وهكذا أجرى بعض التعديلات والتغييرات مستفيداً من خبرته الجيّدة في الووشو، وأسّس ملاكمة الوودانغ التي تتمتع بتقديرٍ كبير في دوائر الووشو. (الصورة 4-14)



الصورة 4-13 رسم يمثّل تشانغ سان فينغ

أُطلق على تشانغ سان فينغ اللقب كوان يي ولون باو، أما اسمه الطاوي فكان شوان شوان زي، وكان طاوياً في أواخر عهد سلالة يوان وبداية سلالة مينغ، وقيل إنه مؤسّس ووشو وودانغ.



الصورة 4-14 دليل تمارين تاي جي كوان في قاعة لانغ ماي في جبل وودانغ

تتواجد لدينا روايتان حول اسم السلالة التي عاش تشانغ سان فينغ في عهدها. تورد إحدى الروايتين أنه عاش في عهد سلالة سونغ الشمالية. لكنّ كتاب حوليات نينغ بو يروي ما يلي: «كان تشانغ سونغ شي الذي قدِم من إقليم يين، ماهراً بفنون القتال. كرّس تشانغ سونغ شي نفسه ليكون تلميذاً (أو مريداً) لتشانغ سان فينغ الذي عاش في عهد سلالة سونغ، وكان خيميائياً في وودانغ. لكن رغم أن الإمبراطور هوي زونغ استدعاه إلى بلاطه إلا أنه رفض الدعوة. كان تشانغ سان فينغ يحلم بالإمبراطور شوان دي، وبتعلّم مهارات الووشو من شوان. أقدم تشانغ سان فينغ في اليوم التالي على قتل ما يزيد عن 100 عدو بمفرده، واشتُهر منذ ذلك الحين بعروضٍ وأعمالٍ مثيرة». أما الرواية الأخرى فتقول إن تشانغ سان فينغ عاش خلال فترة يوان - مينغ. ويمكننا العثور على كتب تاريخ رسمية، وكتب تاريخ جمعها أشخاص لا يحتلون مناصب رسمية، وسجلات محلية، وأساطير وآثارٍ ثقافية. يُضاف إلى ذلك أن المكتبة الكاملة لتشانغ سان فينغ (الصورة 4-15) احتوت على قصصه. أما الإمبراطور يونغل من سلالة يونغل فقد شيّد قصر يو تشن لعبادة تشانغ سان فينغ. يُضاف إلى ذلك أن القاعة الرئيسة في القصر تشتمل على تمثالٍ من النحاس مذهّب وطويل لتشانغ سان فينغ، وهو محفوظٌ بكل قدسية. وبسبب وفرة

السجلات التاريخية، وكذلك الدلائل الحسّية التي بدت مقنعة جداً، مالت الأجيال التالية إلى تصديق الرواية الثانية.

أظهرت الدراسات الحديثة التي أجريت في أوساط تاريخ الووشو أن تشانغ سان فينغ لا علاقة له من الناحية التاريخية بالفنون القتالية الداخلية. لكن، ما الذي دفع بأساتذة تاي جي كوان - في هذه الحالة - إلى تكريم تشانغ سان فينغ بصفته المؤسّس، وهو الذي لم يعرف شيئاً عن الووشو؟ إنه سؤال في غاية الأهمية، أليس كذلك؟ لكننا نجد أن الشعب الصيني يفضّل الاعتماد على المشاهير القدماء بهدف تمجيده. لكن الثقافة الطاوية التي أثّرت بعمق في كل جوانب الثقافة الصينية في عهد سلالتَي مينغ وتشينغ أثّرت على الووشو، سواء أحصل ذلك عملياً أم نظرياً. لكن إعجاب عدة أباطرة، ومكافآتهم، وتقديس الطاويين جعلت من تشانغ سان فينغ رمزاً روحياً. وبالنظر إلى تلك الحقائق، ليس عجيباً أن يلقى تشانغ سان فينغ التكريم والاحترام بوصفه المؤسّس الأول لووشو الوودانغ.



الصورة 4-15 المكتبة الكاملة عن تشانغ سان فينغ

كان تشانغ سان فينغ كاتباً غزير المؤلفات، وقد ترك وراءه كتباً مثل «حول الطاو العظيمة، وتحليل تاريخها العميق، وتقنيات الخيمياء الداخلية، وأشجار غير أصيلة؛ وكل هذه الكتب موجودة في الأعمال الكاملة لتشانغ سان فينغ. يُضاف إلى ذلك أنه يوجد نُصُب يذكر ثلاثة كتب بعنوان تعويذة حول الإكسير الذهبي من تأليف تشانغ سان فينغ، وهو موجود في معبد جين تاي الطاوي، والكائن في مدينة باو جي التي تقع في إقليم شان شي.



الصورة 4-16 صهر الأحجار في المدرسة الطاوية
(رسمها رن يي من عهد سلالة تشينغ)

تأسيس فرقة الوودانغ

إذا كان جبل وودانغ مركزاً لممارسة الطقوس الطاوية، فكيف تحوّل إلى مهد الووشو الصينية؟ يكمن السبب الأبرز في ذلك إلى تداخل الطاو والووشو، وتداخل سماتهما العامة. تنقسم التقنيات الطاوية إلى خمس فئات: الفنون السرية، والطب الصيني التقليدي، وتحليل وتقدير القسمة والنصيب، والفراسة، والعرافة بما في ذلك تناول الإكسير، والخيمياء الخارجية وغيرها، وتدريب تشي والإرشاد، والخيمياء الداخلية، وغيرها (الصورة 4-16). ومن بين تلك الفئات، تُعتبر الفنون السرية فناً يدرّب المتدرّب فيه نفسه ليصبح شخصية مثالية عن طريق التأمل، والانضباط الديني الذاتي، والعلاج بالحمية، وغير ذلك. وصلت الطاوية في جبل وودانغ إلى ذروتها في عهد سلالة مينغ، أي عندما بدأ الطاويون من كل أنحاء البلاد بالتوافد إلى الجبل، كما وصل أقصى عدد للطاويين الواصلين إلى ما يزيد عن 20,000 شخص. وفّر هذا العدد الكبير من أتباع الطاويين ظروفاً مناسبةً للتطور السريع الذي شهدته ملاكمة الوودانغ، وذلك لأنها أتت من كل مناحي الحياة، كما أن بعض الأتباع كانوا ماهرين في الووشو. تشدّد الطاوية والووشو كثيراً على تقنيات الحفاظ على الصحة، وهكذا اندمجا في كلٍّ عضوي؛ الأمر الذي أنتج كونغ فو الوودانغ، وهو ما يُعتبر تطوراً يحمل أهمية استثنائية.

بدأت كونغ فو الوودانغ بالانتشار بسرعة فور ظهورها. ومن ناحية أخرى، إن التقنيات الطاوية السابقة كانت سرية وعصيّة على الفهم، بينما تطورت ممارسة الووشو بوصفها مساراً سهلاً نحو ممارسة الطاوية؛ وهو أمرٌ كان صريحاً ومفتوحاً أمام جمهور أوسع. لكن الطاويين كثيراً ما واجهوا العصابات والحيوانات الشرسة أثناء تجوالهم في أنحاء البلاد وفي الجبال لتعزيز نشر الطاوية، وحتّم عليهم هذا الوضع ممارسة الووشو من أجل الدفاع عن النفس والحفاظ على الصحة. أما العامل الأهم الذي أثّر على تطور ملاكمة الوودانغ فكان البيئة الجغرافية البعيدة عن حشود الناس الذين يتصرفون بفوضوية، وكذلك الهدف من ممارسة الووشو؛ أي الدفاع عن النفس. يمتنع أتباع الوودانغ عن البدء بمهاجمة الآخرين أثناء ممارستهم اليومية للووشو. لا يقوم أتباع الطاوية بتوجيه ضرباتهم إلا بعد قيام خصومهم بالهجوم، كما يحاولون تجنب خوض معركة قاسية، وذلك من أجل تجنب مناقضة الحكمة والمهارة. أما تقنية «القميص الحديدي» (الصورة 4-17) التي تشدد على الدفاع فهي أكبر مثال على ذلك. وبالمقارنة، نجد أن ملاكمة الوودانغ تهتم أكثر بتعزيز جينغ (الجوهر) وتشي (الحيوية) وتشين (الروح)، كما أن ووشو الوودانغ تضع قيَماً أعلى على السهولة والتوازن والمرونة والقوة اللطيفة. ونتيجة ملاحظتنا لتقنيات الوودانغ هذه، يمكننا استنتاج أن هذا النوع من الملاكمة هو الألطف، إذ يُنزل الهزيمة بالعدو من دون مواجهته.



الصورة 4-17 القميص الحديدية

تُعتبر تقنية القميص الحديدي جزءاً من تشي جونغ الكونغ فو الصينية التقليدية. يُقال إن هذا النوع من تشي جونغ بإمكانه حماية المرء من أي هجوم، حتى إن السيوف والسيوف العريضة لا يمكنها هزيمته. باستطاعة المتدربين على تقنيات القميص الحديدي استخدام «الدرع الذهبي» (استخدام تشي للدفاع عن النفس) وذلك إلى حد أن المتدرب لا يغرق إذا نزل في الماء، كما أنه لا يحترق حتى الموت وسط النيران، ويبقى حياً حتى إذا توقف عن التنفس، ولا يجوع إذا لم يتناول وجبات غذائية.



أبقت فرقة الوودانغ على سرية مهاراتها، كما أبقت على شروط صارمة لقبول المتدربين الجدد. أما تقنيات الملاكمة التي اتبعتها فاشتملت على مجالات واسعة من المعرفة بما فيها تشي جونج، والأعصاب، ومسارات الشرايين، وغيرها. يُضاف إلى ذلك أن أتباع الوودانغ كانوا منضبطين وكتومين بطبيعتهم. لهذه الأسباب، يمكننا القول إن ملاكمة الوودانغ كانت تُمارس على نطاقٍ محدود في جبل وودانغ. لم تنتشر الوودانغ حتى أواخر فترة حكم سلالة مينغ، وأوائل فترة سلالة تشينغ. لكن، من المهم أن نذكر أنه في نينغ بو وتشي جيانغ ظهر أساتذة عظماء في ووشو الوودانغ؛ مثل تشانغ سونغ زي، ويي جين كوان، وشان سينان، ووانغ شينغ نان، وغيرهم. لكن بحسب الوثائق التاريخية، إن شانغ سونغ زي هو الذي نقل كونغ فو الوودانغ إلى سيشوان في أواخر سنواته. «كانت ناي جيا كوان التي نقلها سونغ زي، وناي جيا كوان وودانغ، وناي جيا كوان زي مو رائجة في إقليم سيشوان بوصفها فروعاً من فرقة الوودانغ الأصلية. أما خلال حكم كوانغ شو في أواخر فترة حكم سلالة تشين، فقد أقدم دينغ تشونغ شان - وهو أحد أحفاد كاهن جبل وودانغ - على نشر الطاوية، كما علّم ملاكمة الوودانغ في جيانغ سو وأماكن أخرى (الصورة 4-18). يُذكر أن ملاكمة الوودانغ نُقلت إلى أماكن قليلة جداً، مثل سيشوان وجيانغ سو على وجه الخصوص. لكن لحسن الحظ، وبسبب انتشار ملاكمة الوودانغ في هذه المناطق، لم تتعرض للضياع. وظهر بعد هذا الانتشار الذي حصل على نطاقٍ ضيّق في أواخر عهد سلالة مينغ وأوائل عهد سلالة تشينغ عددٌ كبير من الفرق الفرعية التي تحمل ميزات مشابهة؛ بما فيها سونغ زي، وهواي هي، وشين جيان، ويي سونغ، ولونغ مين، وجونغ جيا نان، وشوان وو. ورثت هذه الفرق ميزات ووشو وودانغ التي تشدّد على تعزيز الجينغ، وتشي وشين، وكذلك على استغلال وضعية الخصم، واستعارة قوته، وتبديد قوة ألف هجوم بقوة أربعة تايل.

يمكننا القول إنه يوجد ما لا يقل عن 60 أسلوباً من أساليب الملاكمة المشتقة من ملاكمة الوودانغ، بما في ذلك تايي ووشينغ كوان، وشون يانغ كوان، وتاي هي كوان، وشانغ كوان (ملاكمة اللكمة الطويلة)، وغيرها. تفاخر الوودانغ أيضاً بعشرات أسلحة أساليب التاولو مثل رمح ليو شينغ، وعصا شوان وو، وسيف وودانغ، وسيف يان وي العريض، وغيرها. يُضاف إلى ذلك أن تدريبات فرقة الوودانغ تشتمل على



الصورة 4-18 تلامذة الوودانغ أثناء تقديمهم عرضاً للووشو في الهواء الطلق
أمام قصر السحابة القرمزية الذي يقع في جبل وودانغ

«الفنون الستة والثلاثين للوودانغ»؛ مثل فنّ شوان وو، وفنّ ميان تشانغ، وفن هون يوان، وفن كرة تاي جي، وغيرها. أما في هذه الأيام، فإن كونغ فو وودانغ تعرض نظاماً شاملاً وكبيراً وتستمر في التطور مع مرور الوقت.

جاذبية كونغ فو وودانغ المستمرة

تُعتبر كونغ فو الوودانغ التي تستند على الطاوية، واستخلاص جوهر الحفاظ على الصحة مجموعةً مدمجة للتقنيات القتالية، وهي التي تضع تقديراً خاصاً للطبيعة ولكل ما هو طبيعي، كما تعتبر أن «الإبقاء على سكون الجسم، وإبقاء العقل في حالة طمأنينة» أعلى وضعٍ يمكن التوصل إليه. تختلف كونغ فو الوودانغ عن ملاكمة الشاولين التي تشدّد كثيراً على المواجهة والقتال، بينما تتفوق ملاكمة الوودانغ في النعومة والرشاقة، وذلك لأن كل خطوة تُظهر الاندماج العضوي،



والتحوّل الذي تفرضه الليونة، والاستدارة والدوران، والصلابة المترافقة مع النعومة. تركّز ملاكمة الوودانغ أيضاً على ميلها الطبيعي، وعلى الإرشاد أو الحركات الموجهة بحسب الظروف. إن كل هذه المبادئ ما هي إلا تجسيد للجمالية الرقيقة والضمنية للطاوية.

تجسّد كونغ فو الوودانغ شخصيةً تشبه تلك التي يتميز بها الحكماء، وذلك بقصد قبولها (الصورة 4-19). تُعلي كونغ فو الوودانغ من شأن الطبيعة شأنها في ذلك شأن الطاوية، ولذلك تُسمي حركات كثيرة بأسماء الحيوانات وأنشطتها. يُعتبر النظر من زاوية «أحيائية» وظيفة الوعي المعزّز، وهي الوظيفة التي تتبناها الووشو عندما تستفيد من قوى الطبيعة. تجسّد الووشو المفاهيم الأساسية للطاوية التي تستغل القوانين الكونية في التحكم بالأشياء. لا تعني الووشو بالوظيفة الأحيائية أكثر من حركات الكائنات الحية وسلوكياتها، وهي الحركات التي تتبناها للاستمرار والتكيّف مع البيئة. لكن، بعد ملاحظة الطبيعة عن كثب واكتشاف سلوكيات الحيوانات، تمكّن المتدربون الجادّون على الووشو من الاستفادة منها كثيراً، بل ومن تحويلها ودمجها في أنظمة الووشو.

يُقال إن تشانغ سان فينغ رأى صدفة أفعى أثناء مصارعتها مع غراب العقعق، وسرعان ما استلهم أفكاراً من ذلك العراك، ثم ابتكر إثر ذلك شانغ كوان ذات الاثنتين والسبعين خطوة. لكن الواقع هو أن تقنيات عدة لكونغ فو الوودانغ مشتقة من ملاحظة الطبيعة، وهي كلها مندمجة في ممارساتها. لكن بالمقارنة مع فِرَق الووشو الأخرى، إن كونغ فو الوودانغ لا تكتفي بتعزيز جينغ وتشي وشين، بل تساعد في المحافظة على الصحة، كما أن حسناتها تمكّن المرء من الاستمتاع بجمالها الأصيل. إن كل إيماءة وحركة تمتلك سحرها الفريد والمستمر.

أدى دمج تقنيات الووشو والطاوية إلى تعزيز ممارسة طاوية الوودانغ من جهة. ولكن من جهة أخرى، إن كونغ فو الوودانغ معروفة في أنحاء العالم كافة بسبب تقنياتها الفريدة، وسحرها الجمالي. وهذا هو السبب الذي جعل الوودانغ وووشو الشاولين اللتين تجمعان الجبال الشهيرة والأديان والكونغ فو، ترتقيان إلى مصافّ الشهرة العالمية.



الصورة 4-19 التمارين الصباحية في قصر السحابة القرمزية في وودانغ



الفنون القتالية
الووشو الصينية

الفصل الخامس

الووشو بين الناس

الووشو في التقاليد الشعبية

تبدأ التقاليد الشعبية بالتكوّن من حاجات العيش في المجتمع البشري. وهي تتكون وتتطور في سياق قومياتٍ، وعصورٍ، ومناطق معينة. وتشتمل التقاليد الشعبية على عادات الحياة وأعرافها ومعتقداتها التي يتماشى معها كل الناس. وتتواجد بهذه الطريقة عادات العمل المنتج، والحياة اليومية، والاحتفالات التقليدية وغيرها. ويُضاف إلى ذلك أن العادات الشعبية تُعتبر ضرورية في مختلف مراحل حياتنا. يمكننا أخذ الزواج كمثال. إذ يحتاج الناس إلى حفل الزفاف - أو طقوسه - للحصول على اعتراف المجتمع بأكمله ودعمه. وبهذا المعنى، يمكننا القول إن التقاليد الشعبية هي القوة الأساسية التي تنبع من الناس، وهي متوارثة بينهم، وموجودة في سلوكهم ولغاتهم ونفسياتهم. إننا منغمسون بالفعل في التقاليد الشعبية، كما أننا مستعدون لتقبّل إرشاداتها وحمايتها. تتواجد الووشو الصينية التقليدية وتتطور بين الناس العاديين. وهكذا، إن الووشو والتقاليد الشعبية مرتبطة ببعضها بشدة. يعتبر بعض الباحثين أن ممارسة الووشو واحدة من التقاليد الشعبية الأساسية، وأكثرها أهمية.

مرّت الووشو الصينية بتقلّبات وظروفٍ متعددة، والتي تراوحت ما بين أساليب القتال البدائية التي كانت تجري بين القبائل المتحالفة ضد بعضها بعضاً، مروراً بأساليب رقصات الصيد والووشو خلال عهدَي شانغ وتشو، والمصارعة والمواجهة (الصورة 5-1) ووشو الفرسان في فترتَي الربيع والخريف والدول المتحاربة، والووشو



الصورة 5-1 المصارعة في حقبة الدول المتحاربة كما تظهر في نقش على طبقٍ برونزي للزينة

تمّ الكشف عن هذا الطبق الذي يرجع إلى فترة الدول المتحاربة في المدفن رقم ك-140 الكائن في كيشينغ تشوانغ، شانغان، في إقليم شان شي، جياولي، والذي كان يُسمى «جياو دي» في فترتَي حكم سلالتَي تشين وهان، وهي كلمة تعني مصارعة. يُظهر هذا الطبق البرونزي الذي يمثّل المصارعة رجلين يرتديان سروالين، لكنهما عاريان من منطقة الخصر وحتى الأعلى، ويواجهان بعضهما بعضاً في المصارعة. ويظهر خلفهما جواد مزود بسرجٍ ولجام.

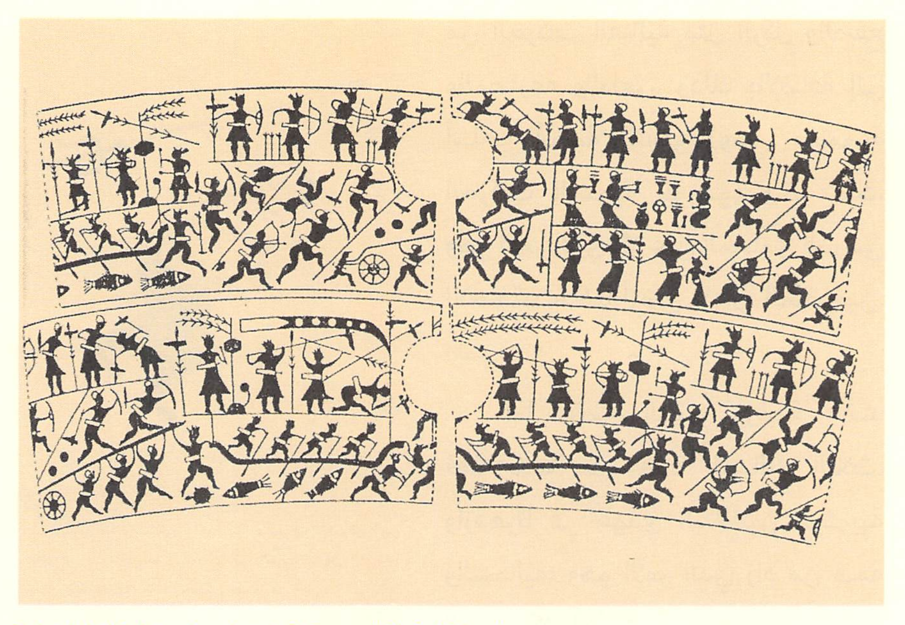
الرياضية في عهدَي تشن وهانغ وفترة الممالك الثلاث، وصولاً إلى ووشو المحافظة على الصحة في عهد سلالة جين، وإدخالها في نظام امتحانات القبول في الجيش الإمبراطوري خلال عهد سلالة تانغ. كانت الووشو شائعة بين الناس العاديين في عهدَي سلالتَي سونغ ويووان، أي كما كانت الناي جيا كوان التي ظهرت في عهدَي سلالتَي مينغ وكينغ، وهكذا دواليك. ويُظهر كل هذا أن الووشو تمتلك روابط وثيقة جداً مع التقاليد الشعبية وأوضاع الناس.

سهّل اعتراف المجتمع «بإعلاء شأن القلم، والتقليل من شأن السيف» أمر دمج الووشو في التقاليد الشعبية للصين القديمة. كانت ممارسة الووشو محظورة كلياً من السلطات الإمبراطورية في السلالات الماضية، ولكنها كانت تمارس بصورة شبه سرية في بعض الأحيان. وقد أدّى ذلك إلى تمكين الووشو الشعبية من التواجد بطريقةٍ غير مباشرة في الأشكال المتعددة من التقاليد والاحتفالات الشعبية. وهكذا، أصبحت بالنتيجة جزءاً أساسياً من التراث الشعبي الصيني.

المهرجانات الاحتفالية

تمتلك كل قومية احتفالات وأشكال أنشطة خاصة بها؛ وهي أنشطة توارثتها الأجيال وتطورت إلى مهرجانات وتقاليد شعبية. نشأت بعض الاحتفالات الصينية من حاجات الناس ومعتقداتهم. يمكننا أخذ مهرجان الربيع كمثال، وهو المهرجان الذي يتمتع بأهمية كبيرة عند الشعب الصيني. أما أهم أنشطة مهرجان الربيع فهو تقديم الأضاحي للسماء والأرض، وإلى الأسياد المقدسة والأجداد.

كان تقديم الأضاحي منذ أقدم الأزمنة احتفالاً تقليدياً لطلب البركة من الأسياد المقدسة، والأرواح، ولتجنّب سوء الحظ. تولي التقاليد الكونفوشيوسية أهمية عالية لتقديم الأضاحي. وقد أورد كتاب الطقوس ما يلي: «إن قواعد الملكية هي الأهم في حكم الشعب، أما أهم الطقوس التقليدية الخمسة فهي تقديم الأضاحي». أما أصحاب الحق في هذه الأضاحي فهم الأرباب، وأسياد الأرض، والرجال والأشباح. لكن لأن الناس البدائيين كانوا جاهلين وخائفين من الظواهر الطبيعية، كانوا يعتبرون رقص الووشو والطقوس جزءاً أساسياً من تقديماتهم، كما كانوا يقدمون الرقص القتالي للأسياد المقدسة، أو أسلاف زعماء قبائلهم. وكانت نتيجة ذلك اندماج رقص



الصورة 5-2 رقصات الحرب منقوشة على وعاء برونزي من فترة الدول المتحاربة

الووشو - بوصفه جزءاً أساسياً من الووشو - مع التقاليد الشعبية. (الصورة 5-2)

كانت العروض والمسابقات المتنوعة تُقام في الاحتفالات قديماً؛ وذلك للاحتفال بمناسبة ما، أو لإظهار الاحترام للشخصيات التاريخية، ولإضفاء الحيوية على جو الاحتفال، ولتمتيع المتفرجين. كان الناس يتجمعون في كل احتفال عام، أو احتفال ديني أمام المعبد، أو في الشارع لمشاهدة مختلف أنواع العروض؛ بما فيها الألعاب البهلوانية، وعروض الأوبرا، ورقصة التنين، ورقصة الأسد؛ وجميعها تقريباً لها علاقة بالووشو. يُذكر أن عدداً من أسلحة الووشو كانت تُستخدم كدعائم في العروض البهلوانية، كما أن عدداً من العارضين في تلك الاحتفالات كانوا أساتذة الووشو. يمكننا أخذ عروض المقلاع في المهرجانات البهلوانية كمثال، فقد اشتقت من فنون الصيد والفنون القتالية العسكرية. أما العروض التي تشبه «الرمح الثلاثي» (الصورة 5-3)، و«استخدامات سيف غوان العريض»، وغيرها فكانت كلها مهارات مأخوذة من الووشو. في حين أن القتال البهلواني الاستعراضي في الأوبرا الصينية مأخوذٌ من الووشو بدوره. يُضاف إلى ذلك أن فنون الووشو تتألف من سلسلة

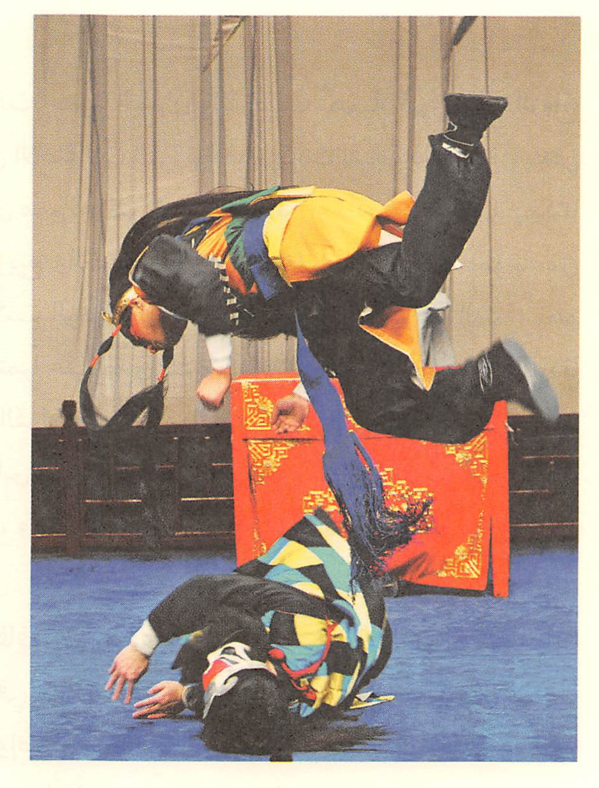
من الحركات القتالية مثل الركل والصفع والمصارعة والطعن، وذلك بالإضافة إلى أسلحة أنظمة التاولو (وهي مجموعة الحركات الرسمية للووشو) وغير ذلك، وهو الأمر الذي أثّر على المحتوى الدرامي للاحتفالات، كما أرضى أذواق المتفرجين. (الصورة 5-4)



الصورة 5-3 الرمح الثلاثي الطائر

يُعتبر الرمح الثلاثي واحداً من مجموعة العروض التي تجري في بيجينغ. أما الرمح الثلاثي المزود بطوقٍ حديدي فيُصدر عند استخدامه خشخشةً ووميضاً من الضوء الذي يشع في كل الاتجاهات. يُضاف إلى ذلك أن هذا الرمح الثلاثي بإمكانه تطويق العنق بصورةٍ آلية، وهو أمرٌ يُعتبر مذهلاً.

أما رقصة التنين ورقصة الأسد فقد بدأتا منذ فترة الممالك الثلاث، وازدهرتا في عهدَي السلالتين الجنوبية والشمالية؛ وهو الأمر الذي زاد من قيمة الووشو كثيراً. يُذكر أن «مجموعة حركات الأفعى»، و«مجموعة الملاكمة الثمانية»، و«مجموعة أحجار القرميد» متواجدة في العروض التي لا يمكن تقديمها من دون معرفة قوية بتقنيات الووشو وحركاتها. أما في دولة الصين في هذه الأيام فإن عرض الأسود تحرس الباب ما زال طقساً احتفالياً شائعاً في معظم أنحاء البلاد. وفي اليومين الثاني والثالث من أيام رأس السنة الصينية الجديدة، تقوم فِرق رقصات التنين والأسد بالتجوال من شارعٍ إلى شارع. تتوقف الفرقة أمام باب كل متجر، وتحت إشراف مدير فرقة رقصة الأسد، وتقوم بعرضٍ لرقصة الأسد التي تتضمن حركات الخضوع، والتأرجح، والقفز، والتدحرج، وغير ذلك من حركات. أما مدير فرقة رقصة الأسد فيكون عادة شاباً يمتلك مهارات الووشو. وخلال رقصة الأسد تجري مجموعة متنوعة من أساليب الاستعراضات والعروض المتغيّرة (الصورة 5-5). يُعتبر الأسد وحشاً محبوباً، ولذلك يُقال إن الاحتفالات الشعبية من هذا النوع تجلب الحظ الحسن للعائلة والصحة الجيدة في السنة الجديدة، وتضمن للشركات أعمالاً مزدهرة، وثروة كبيرة.



الصورة 5-4 المواجهة الثنائية في ووشينغ أوبرا بيجينغ

تشير كلمة ووشينغ إلى الممثلين الذكور الذين يؤدون الأدوار القتالية، ويُظهرون أشكالاً جميلة من الووشو في أوبرا بيجينغ. يمكننا تقسيم الووشينغ إلى فئتين؛ إحداهما شانغ كاو ووشينغ (ووشينغ الدروع الطويلة) والأخرى دواندا ووشينغ. تستخدم شانغ كاو ووشينغ الأسلحة ذات المقابض الطويلة؛ وهو أمرٌ مطلوب لامتلاك مهارات ووشو جيدة وسلوك الجنرالات. وفي المقابل، نجد أن المشاركين في دواندا ووشينغ يرتدون ملابس قصيرة، كما يستخدمون أسلحةً قصيرة، وهو أمرٌ ضروري يساعد على سرعة الحركات ورشاقتها.

الصورة 5-5 رقصة الأسد في صور احتفالات السنة الجديدة



الووشو والزواج والمآتم

منذ أقدم الأزمنة، علّقت جميع البلدان والقوميات أهمية كبرى على الزواج بصفته مؤسسة، وكذلك على الاحتفالات التي ترافقه. وكانت نتيجة ذلك تكوّن بعض الأعراف التي تتميّز بخصائص مميزة والتي تسمى تقاليد (أو طقوس) الزفاف. يمكننا أن نلاحظ أنه منذ حقبة الربيع والخريف والدول المتحاربة تكوَّنت مجموعة من الممارسات التي تؤلف إتيكيت الزفاف الرسمي، والذي يسمى الآداب الستة؛ وهو الأمر الذي مارس تأثيراً مستمراً على مدى ألفين أو ثلاثة آلاف عام. لكن، إذا أردنا أن نكون أكثر دقة فيمكننا القول إن «الآداب الستة» تشير إلى إجراءاتٍ ورسميات وعادات وطقوس تعارف الناس عليها مثل «طلب اليد»، و«تواريخ الميلاد»، و«هدايا الخطبة»، و«هدايا العرس»، و«هدايا حفل الزواج»، و«ترتيبات الزفاف»، و«حفل الزفاف».

كان إتيكيت حفل الزفاف في عهدَي سلالتَي تشين وهان أكثر أهمية بكثير من السعادة. كان الزواج في تلك الحقبة يتم وفق طقوسٍ معينة؛ مثل دخول المعبد لتقديس الأسلاف، وإطاعة أوامر الوالدين، وغير ذلك من الطقوس. لكن مع مرور الوقت، تحول حفل الزفاف إلى ما يشبه الاحتفال لإدهاش المدعوين. كانت الأُسر الثرية بعد انتهائها من الآداب الستة أو الآداب الأربعة المبسطة، تقوم بترتيب عروضٍ مثل رقصات التنين والأسد أمام الباب. وكانت بعض الأُسر تدعو فِرقة مسرحية أو بهلوانية لتقديم عروضاتها بهدف التسلية (الصورة 5-6). أما إذا دُعي أحد أساتذة الووشو للمشاركة في حفل الزفاف وعرض مهاراته، فإن المدعوين كانوا يشعرون بامتنانٍ أكبر، وهكذا كانت الأسرة المضيفة تكسب احتراماً أكثر.

كانت تقاليد مباريات الفنون القتالية تقضي بأن تتزوج الفتاة التي لديها مهارة في الووشو الشخصَ الذي يستطيع إلحاق الهزيمة بكل الآخرين في مباراة الفنون القتالية. وكانت مباريات الفنون القتالية تلك شائعة جداً في روايات الكونغ فو. أما أكبر مثالٍ لدينا هنا فهو لي يوان (الإمبراطور المؤسس لسلالة تانغ) وزوجته مدام دوو. ولدت زوجة لي يوان في بينغ لينغ (وهي الآن مدينة شينغ بينغ)، في شان شي. أما والدها دوو يي فكان واحداً من ثمانية مارشالات في سلالة تشو الشمالية،



الصورة 5-6 رقصة التنين

تلعب رقصة التنين دوراً هاماً في التقاليد الصينية الشعبية. لا يؤدي المشهد الرائع لرقصة التنين إلى تحفيز المتفرجين وإكسابهم الحماسة والإلهام فقط، ولكنه يجسّد الطموحات والإرادة القوية والمعتقدات الحازمة لدى الشعب الصيني.

وأمّها شيانغ يانغ؛ الشقيقة الكبرى لإمبراطور وو من سلالة تشو الشمالية. لكن بعد أن استولى يانغ جيان - إمبراطور وِن وهو من سلالة سوي - على عرش سلالة تشو الشمالية، حدث أن كانت الآنسة دوو في السن المناسبة للزواج. أجرى الوالد مباراة في الفنون القتالية لكي يجتذب أصحاب المواهب في هذه الفنون الذين يناسبون ابنته. أمر الإمبراطور بجلب طاووسين إلى البوابة، ثم طلب من أي شخص يريد الزواج من ابنته إطلاق رميتين عليهما من على بُعد 100 خطوة. وأضاف أن كل من يقدر على إصابة عينَي الطاووسين بسهمين سيكون صهره. لم يكن لي يوان ملماً بآداب المخاطبة كثيراً، لكن رمايته كانت ممتازة. كان لي يوان الشخص الوحيد من بين عشرات الطامحين، وقد تمكّن من إصابة هدفه بسهمين. وكانت نتيجة ذلك أن تزوج لي يوان الآنسة دوو، وهكذا دخل منذ ذلك الوقت المعترك السياسي.

الطقوس الجنائزية مرتبطة بالموت. وقد علّق الصينيون أهمية عظيمة على المسائل المتعلقة بالحياة والموت، وهكذا تكونت الطقوس الجنائزية المعقدة التي

استمرت منذ أقدم الأزمنة. تتواجد عدة إجراءات رسمية؛ بدءاً من تحضير الجثة وانتهاءً بموكب الجنازة. كان الناس قبل فترة تشين يعتقدون أن الروح خالدة، وكانوا يمسكون سيفاً ويطلبون من راقصي الووشو فتح طريق للروح لدخول السماء. لكن مع ازدهار الطاوية في منتصف فترة حكم سلالة هان الشرقية، ظهر عدد كبير من الطاويين الذي اشتغلوا بالسحر أو العرافة، والذين شاركوا بكل نشاط في تقديم أضاحي الناس العاديين. زعم أولئك المشعوذون أنه يمكن التحكّم بالأشباح عن طريق التعاويذ، ورسم الإشارات السرية، وكذلك رقصة السيف، وغير ذلك.

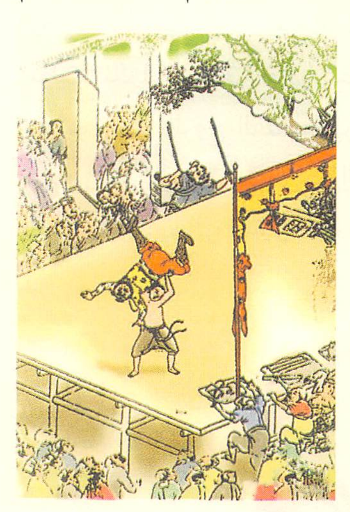
ومع تحسّن الحياة المادية، شهدت سلالة مينغ سعياً غير مسبوق نحو المال والبحث عن الملذات. وكان الشخص الرئيس المعني بالحداد يبذل كل طاقته وموارده لاستضافة الاحتفال، ويهيئ مكاناً مناسباً للعروض المسرحية. يوجد وصفٌ في كتاب مجموعة جغرافية، وهو جزء من المجموعة العظيمة للكتب القديمة والحديثة في عهد سلالة كينغ (أو تشينغ). وقد ورد في هذا المقطع: «أثناء المأتم يجب تحضير الكفن الخارجي والداخلي، والطعام، وملابس الحداد، ويجب على زوجات الأبناء العويل والنحيب، للتعبير عن الاحترام والولاء للراحل. ويقوم الموسيقيون والراقصون بتقديم العروض من أجل تسلية المدعوين المحزونين، كما يقوم الرهبان بأداء مقاطع من الكتب البوذية المقدسة، وذلك بهدف تسهيل مرور روح الراحل في رحلتها نحو السماء. يمتلئ موكب الجنازة بأشياء عديدة تتعلق بالدفن، ويجري كل ذلك وسط دهشةٍ عميقة». يمكننا الاستنتاج من هذا المقطع أن مواكب الجنازات في تلك الفترة كانت تترافق مع الأوبرا والألعاب البهلوانية، بالإضافة إلى مشاركة الكهنة الطاويين.

أما في هذه الأيام، وفي بعض المناطق الريفية حيث بقيت العادات التقليدية على ما هي عليه، إن اهتماماً خاصاً ما زال يُعطى لعظمة طقوس المآتم. ومن الجدير بالذكر أن جنازة أي شخص يتوفى عن عمرٍ يزيد عن السبعين كانت تتم على أنها «جنازة سعيدة». أما الأسرة التي تتمتع بوضعٍ مادي مريح فكانت تقيم المآدب لأيامٍ عدة. يُدعى قارعو الطبول، وممثلو الأوبرا وممثلاتها، والمشاركون في الألعاب البهلوانية في هذه المناسبة لتقديم عروضهم، وذلك بهدف تقديم الشكر إلى الأقرباء والأصدقاء، وتقديم العزاء لأقارب المتوفى.

الووشو والتقاليد الشعبية

تشير عبارة «مباراة الووشو» إلى خصمين يتواجهان على حلبة من دون سلاح. وكانت العادات القديمة تقضي بإجراء مباريات ووشو كهذه. أما مباريات الووشو التي كانت تجري في عهد سلالات سوي، وتانغ، والسلالات الخمس، فكادت تكون نظاماً بحد ذاتها. كانت القواعد العامة لهذه المباريات هي الاشتباك بغض النظر عن أحجام المتبارين أو أوزانهم، ومن دون ملابس حماية، وكان المتبارون عراة الصدور، ولا يرتدون غير سراويل قصيرة. كانت المواجهة تتم غالباً فوق حلبة معدةٍ خصيصاً. لكن العقاب على ارتكاب الأخطاء خلال تلك المباريات لم يكن شديداً على الإطلاق، كما كانت جائزة الفائز سخيةً جداً.

أما في عهد سلالة مينغ فكانت المباريات الرسمية في الملاكمة تدعى «مباريات الووشو». وكان الشخص الذي يُطلق تحدياً علنياً يتم تحديده قبل ترتيب الذين قبلوا التحدي. يُضاف إلى ذلك أن أي شخص يقبل التحدي كان يُلزم بأداء اليمين قبل صعوده إلى المنصة للبدء في المواجهة. تواجدت كذلك صيغة أخرى تسمى صراع الحلبة، والتي يُطلِق المنظّم بموجبها تحدياً مفتوحاً. يتعين على المتصارعين الصعود إلى الحلبة لقبول التحدي بحسب تسجيلهم المتسلسل، ثمّ يبقى الفائز على الحلبة، وبهذه الطريقة كان الشخص الذي يمتلك أكبر قدرٍ من المهارة في الووشو يتوّج. أما قبل إجراء المباراة فكان يتم توزيع منشور يتعلق بمباراة التحدي، كما يتم تعليق لوحتين على جانبَي الحلبة مكتوب عليهما بيتان من الشعر، مثل: «اضرب بقبضتَي النمر الشرس في جبل ناشان، واركل مثل تنين الفيضان في بحر الشمال». كان ميدان المباراة يمتلئ بمئات آلاف المتفرجين الذين يصفقون بحماسة، ويصرخون بعبارات التشجيع بصورة عفوية (الصورة 5-7). لم تكن مباريات الووشو من هذا النوع مثيرةً فقط، بل كانت مرعبة وشرسة،



الصورة 5-7 «يان تشينغ يشارك في مباراة ووشو فوق الحلبة» من كتاب الخارجون عن القانون في المستنقعات

كما كانت تستقطب الترحيب الكبير من الناس. كانت مباريات صراع الحلبة شعبية جداً في أوساط الناس العاديين أثناء حكم سلالتَي مينغ وتشينغ، أي في الوقت الذي شهدت فيه هذه الفترة تطوراً هاماً في الووشو. أما في المناسبات الكبرى مثل مهرجان الربيع، والمعارض التي تقام في المعابد، أو في التجمعات الأخرى، فإن فرقاً عديدة من الووشو وأساليب الملاكمة كانت تقيم مباريات تحدٍّ مفتوحة، وذلك بهدف التعلم من بعضها بعضاً عن طريق تبادل مهارات الووشو في ما بينها.

أعطت هذه الطرائق التعليمية دفعاً لتكوين هيئات كانت شبيهة نوعاً ما بالمنظمات المدنية، وهكذا امتلكت الووشو والمنظمات المدنية رابطاً وثيقاً. كانت المنظمات المدنية تسمى أيضاً اتحاداتٍ، وكانت عبارة عن مجموعات ينظم الناس أنفسهم تحت لوائها لتحقيق مبدأ، أو هدفٍ معيّن. لكن في عهدَي سلالتَي تشين وهان ظهرت الرماية، وبالتالي تأسست اتحادات الرماية (الصورة 5-8)، أما في عهد سلالة تانج فإن نشاطات الووشو كانت شعبية جداً. وكان الإمبراطور تاي زونغ من سلالة تانج يعلّق أهمية عظيمة على التدريب العسكري بين أفراد الطبقة الحاكمة، وهكذا اختار 100 من أمهر الرماة وأعطاهم بنفسه دروساً في الرماية. أرادت الإمبراطورة وو زيتيان استقطاب المزيد من الأشخاص الذين يريدون تعلّم الرماية، فأسّست نظام امتحانات الرماية الإمبراطوري في العام 602 بعد الميلاد. أعطت تلك المناسبات حافزاً عظيماً لتطوير الووشو، كما أعطت حافزاً للتدرب على الووشو ونشر الروح القتالية بين صفوف عموم أفراد الشعب. أما في عهد سلالة سونغ، فقد ظهرت المنظمات المخصّصة للتدرب على الووشو مثل اتحاد الرماية، واتحاد مباريات الرماية، واتحاد ينغ لوو، وغيرها... (الصورة 5-9)



الصورة 5-8 مشهد الرماية في أحد النقوش الحجرية في عهد سلالة هان

يمكننا إرجاع الرماية إلى نحو العام 50,000 قبل الميلاد. فقد اخترع الصينيون الذين يمتلكون تاريخاً عميقاً بالرماية الأقواس والسهام في وقت متأخر من العصر الحجري القديم، أي عندما لعبت الأقواس والسهام دوراً هاماً في أوقات الصيد والحرب.



الصورة 5-9 «لو بو يستعرض مهارته في معسكره»، لوحة بالألوان في الممر طويل في القصر الصيفي

لو بو يستعرض مهارته في الرماية في معسكره، وهي قصة صحيحة تاريخياً، وقد وردت في كتاب تاريخ الممالك الثلاث الذي ألفه تشين شو الذي عاش في عصر سلالة جين. استوحى ليو غوان تشونغ هذا الرسم، وهو مؤلف كتاب قصة الممالك الثلاث؛ وهذه القصة شائعة جداً على ألسنة الشعب، وتروي كيفية تمكّن لو بو - وهو جنرال كبير من عهد الممالك الثلاث - من إيقاف الحرب بفضل مهارته العالية في الرماية.

تمكنت الووشو من المساعدة على تجميع الناس، وتجنيد الاتحادات الناشطة التي يُمكن أن تشكّل تهديداً للممسكين بزمام السلطة الفعلية، كما تم تدبيج المراسيم العلنية لحظر التدرب على الووشو في عهود السلالات المتعاقبة. وكان ذلك هو السببَ في إجراء تلك الأنشطة المنظمة والمتعلقة بالووشو بصورة سرية غالباً. يُضاف إلى ذلك أن منظمات من ذلك النوع كانت تندمج أحياناً كثيرة مع أديانٍ وجمعيات سرية بين صفوف الناس العاديين، كما أن أعضاءها جاءوا من مصادر متنافرة. جمعية زهرة اللوتس البيضاء، وطائفة الأحرف الثلاثة (مذهب العقائد السماوية) وغيرها، وهي التي كانت تسمى اتحاداتٍ سرية. اشتملت مجموعات أخرى على الجماعة الخضراء، وجماعة هونغ، وجمعية الأخوة، وجمعية السيوف الصغيرة، وجمعية الأرض والسماء، وغير ذلك. كانت هناك جمعيات سرية من أنواعٍ مختلفة، وتشتمل عادة على أشخاص من الطبقات الدنيا والمستضعفين، وكانت تعقد أنشطة الووشو من خلال تحالفات الجمعيات السرية، والتبشير السري،

وكذلك جمعيات الملاكمة للووشو، وغيرها. ولكن، بعد اجتياح جيش سلالة تشينغ لممر شان هاي ظهرت عدة منظمات دينية تضم أعضاء متدينين كانوا يتزايدون كل يوم. أما المعتقدات الدينية الشعبية فغالباً ما كانت تعتمد عقائد مخيفة عن يوم القيامة، أو نهاية العالم؛ وهي العقائد التي هدفت إلى قلب سلالة تشينغ من أجل إعادة حكم سلالة مينغ. أما أبرز الجمعيات (المجموعات) الدينية فاشتملت على جمعية زهرة اللوتس البيضاء، وجمعية السيوف الكبيرة، وغيرها. وكانت هذه الجمعيات الدينية تقبل معظم أعضائها من الذين يمتلكون مهارات الووشو، والذين يتحولون إلى أديانها. يُضاف إلى ذلك أن رؤساء بعض الديانات كانوا مدرِّبين في الملاكمة الشعبية، ومدرِّبين في الووشو. كانت تانغ سايير، وهي رئيسة جمعية زهرة اللوتس البيضاء، متفوقة من دون منازع في مهارات الووشو، وكانت تتدرب على الووشو منذ طفولتها. كانت تلك الجمعيات تُبقي على تواصلها مع الجماهير من أجل تجنيد المزيد من الأتباع الدينيين بحجة تعليم الووشو، وما لبثت هذه الجمعيات أن أسّست قواتٍ مسلحة لحسابها بذريعة التدريب على الملاكمة. وقد أدّى كل ذلك إلى الترويج لشعبية الووشو وتطورها.

يمكننا القول إجمالاً إن الووشو والتقاليد الشعبية تمثل شكلاً هاماً من وجود الووشو بين عامة الشعب؛ وهو الأمر الذي أكسب الووشو قاعدة شعبية صلبة. يُحتمل أن كل شخصٍ صيني يمتلك عقدة حيال الووشو التي استفادت كثيراً من مجالات التقاليد الشعبية، وهكذا أصبحت جزءاً ضرورياً من كل أنواع الأنشطة الاجتماعية؛ الأمر الذي لا يساعد فقط على تحسين مهارات الووشو، بل يؤدي أيضاً إلى توسيع مجال استمرارية الووشو بين الناس العاديين.

فرض العدالة بواسطة مهارات الووشو

ووشيا (فرسان الفنون القتالية) هم كما يعني اسمهم الأساتذة الأبطال الذين كرّسوا حياتهم للتمسّك بفرض العدالة الاجتماعية عن طريق مهارات الووشو. لكن، لم يكن باستطاعة أي شخصٍ كان أن يصبح فارس ووشيا إذا لم يكن يعرف إلا القليل عن الووشو. ويصدق الأمر ذاته إذا كان الشخص ماهراً وذائع الصيت في تقنيات الووشو، ويعجز في الوقت ذاته عن كبح جماح الأقوياء ومساعدة الضعفاء؛ أي كما كان الحال في دول الغرب عند ظهور فرسان مثل أولئك الذين تتحدث عنهم ملاحم الملك آرثر. لم يكن الفرسان بحاجة إلى سطوةٍ قتالية فقط بقدر ما كانوا يحتاجون إلى الالتزام بقواعد الفروسية والنبل وقوانينهما؛ بما يتجاوز المصالح الشخصية. إذاً، ما هي شيا (الفروسية)؟ يوجد تعريف لها في كتاب أصول الأحرف الصينية، ومما جاء فيه: «بينغ تعني الفروسية، ويسمى الذين لا يقدّرون المال كثيراً بينغ في شان شي». كانت ثلاثة أحرف في صينية، وهي 夹 ، 挟 ، 侠 تعني الأمر ذاته في الأزمنة القديمة، أي امتلاك القدرة على الإمساك بالآخرين بقوة السلاح. وكان يان شي غو في أوائل عهد سلالة تانغ عالِماً، وقال إن حرفين من هذه الأحرف الثلاثة يعنيان مساعدة الآخرين بالقوة»، وهو أمرٌ يشبه كثيراً «قوة الحق» التي نجدها في قانون آرثر الذي ينصّ على قوة الحق. يمكننا الاستنتاج ممّا سبق أن شيا يُمكن أن تحمل معنى القدرة القتالية، وعدم الاهتمام كثيراً بالمال، والاستعداد الدائم لمساعدة الآخرين. ويورد كتاب موزي أن «تحمّل المسؤولية هو العمل لمصلحة الآخرين على حساب الشخص».

أصول الووشيا

يمكننا إرجاع أصول الووشيا في الصين إلى ما قبل فترة تشين، أي عندما كانت الروح القتالية هي السائدة. تواجد في تلك الفترة عددٌ كبير من الفرسان وحاملي السيوف الذين كانوا يجولون في أنحاء البلاد كافة، ويراقبون كيفية سير أمور الدولة، ويحاربون من أجل أسيادهم النبلاء. ولكن لأن معظم هؤلاء المحاربين أتوا من الطبقات الدنيا، استمروا في تطبيق المبادئ الأخلاقية السائدة عند الشعب



والطبقات الدنيا من المجتمع، وهكذا ألّفت مجموعة من المحاربين نواة طبقة الووشيا. لكن في فترة التحوّل من غو شي (محارب الدولة) إلى يو شي (المحارب الجوّال، أو الفارس المغامر)، عرف الوضع الاجتماعي لطبقة شيا تحولات كبيرة. أما علاقة السيّد بالتابع التي كانت سائدة بين الإمبراطور وجماعة شيا، فقد تطورت إلى علاقة تشتمل على الخيار الحر عن طريق «الإبقاء على التعارف». وظهرت أيضاً أنواعٌ جديدة من الووشيا - أي جماعات تسعى وراء نوعٍ من أنواع الروح الخالدة التي تتجاوز الزمن والفضاء - وقد كان أفراد تلك الجماعات على استعداد للتضحية بأرواحهم مقابل شعورهم بالفضل، لأنهم عثروا على سيّد يعترف بقدراتهم بدلاً من خسارة الشرف.

شهدت فترة الدول المتحاربة مجتمعاتٍ منكوبة بالاضطرابات الاجتماعية المزمنة. فقد تعرّض عددٌ كبير من الدول الإقطاعية التي ظهرت في حقبة الربيع والخريف إلى اختفاءٍ تدريجي نتيجة نيران الحروب ودخانها؛ إلى أن انتهى الأمر بالصراع الذي قام بين الدول السبع المسيطرة، وسعيها إلى الهيمنة المطلقة. أرادت الطبقة الحاكمة - بما فيها الإقطاعيون والأمراء، والدوقات، والمثقفون، وغيرهم - كسب التفوق في سياق سعيها إلى السيطرة، أو تقوية موقفها في الصراع السياسي، فبدأت بالتنافس مع بعضها في «تخزين (تجميع) المواهب». وتعني عبارة تخزين المواهب توظيف المستشارين والخبراء والمحاربين لمساعدة من يوظفهم في تقديم المشورة والاقتراحات، أو في معالجة المشاكل التي يتعرض لها رب عملهم. تُظهر السجلات التاريخية أن تلك المواهب الموظفة في حقبة الدول المتحاربة كانت تنقسم إلى ثلاث فئات: المستشارون في الأدب، والمحاربون الذي كانوا شجعاناً ولا يخافون الموت، والأشخاص الذين كان بإمكانهم الصياح مثل الديوك أو السرقة مثل الكلاب (الذين يتفوقون في حيلٍ صغيرة)». أما أشهر الذين كانوا

الصورة 5-10 رسم يمثّل «البحث عن ذوي القيمة عند أسرة يي» (رسمه وو لي من سلالة تشينغ)

كان شين لينغ يون من أشهر الذين وظّفوا أصحاب المواهب في دولة وي، وهو الذي تمكّن من جمع 3,000 رجل من أصحاب المواهب المتنوعة. عرف شين أن هو يينغ - الذي كان يعمل بواباً لدى أسرة يي التي تقطن في داليانغ، عاصمة دولة وي - كان رجلاً حكيماً. قاد شين عربة لكي يستقبل هو يينغ. ترجل هو يينغ في طريق العودة لكي يتحدث مع أحد الجزّارين ويدعى تشو هاي، وقد فعل ذلك عمداً كي يجعل شين لينغ يون ينتظر لوقت طويل. تُظهر تلك اللوحة الرجلين وهما يتحدثان، بينما بقي شين لينغ يون واقفاً ويده على اللجام، منتظراً من دون أن يتذمر أو يفرغ صبره.





يوظفون المواهب، فكانوا من دون أي شك الأمراء الأربعة في حقبة الدول المتحاربة، أي مينغ شانغ جون في دولة تشي، وبينغ يوان جون من تشاو، وشون شين جون وشين لينغ جون في دولة وي (الصورة 5-10). يمكننا إطلاق وصف أقطاب المواهب على الأمراء الذين تمكنوا من تجميع آلاف المواهب من كل الأنواع. منذ ذلك الحين، تحولت الووشيا إلى قوة اجتماعية جاذبةٍ للمواهب مستقلة، أو طبقة اجتماعية ظهرت على مسرح التاريخ، وكانت حركتها الاجتماعية تقضي بكبح جماح القوي ومساعدة الضعيف.

لكن عادة تجميع المواهب انتقلت إلى سلالة هان بعد اختفاء سلالة تشين التي لم تحكم طويلاً. أما في حقبة الدول المتحاربة، فإن الأرستقراطيين حرصوا على توظيف أصحاب المواهب المدنيين والعسكريين، وتنظيمهم بصورة متساوية تقريباً. وفي المقابل، نلاحظ أن عدد المحاربين فاق كثيراً عدد الموظفين المدنيين من أصحاب المواهب في فترة حكم سلالة هان. وكمثال عن ذلك، عمل فان كو ياي حارساً شخصياً عند الإمبراطور جاو زو ليو بانغ من سلالة هان، وكان محارباً جريئاً وقوياً. أما خلال حكم الإمبراطور تشينغ دي من سلالة هان، كان الجنرال غوان فو يستقبل العشرات من الطفيليين، أو مئة في كل يوم.

أعطت موضة تجميع المواهب في أوائل عهد سلالة هان دفعاً لتوسيع دائرة نفوذ الووشيا. بدأت طبقة الووشيا تعاني من الانقسامات في تلك الفترة. وكان بعض أولئك الفرسان يلتزمون بشخصية الفارس الجوال خلال فترة الدول المتحاربة، ويمتلكون إحساساً قوياً بالعدالة، كما كانوا على استعداد لمساعدة الضعفاء من دون طلب مكافأة. أما الووشيا الآخرون فقد بدأوا بتشكيل مجموعات، والتحالف مع المسؤولين الإقطاعيين المحليين، وكبار الشخصيات والوزراء، كما ظلّوا في مواقع معينة، وهكذا أصبحوا فرساناً محليين. أما بالنسبة إلى كتيبة الووشيا، فإن سيما تشيان أقدم في كتابه سجلات تاريخية: المواطنون الفرسان على تقسيم الفرسان الجوالين إلى فرسان من المواطنين، وفرسان القرى. واستعرض سيما تشيان فرسان المواطنين العاديين، وقال عنهم بمودة ولطف: «استحقوا شهرتهم عن جدارة، كما أن سعي الآخرين لنيل الحماية منهم أمر مبرر بالكامل». وفي المقابل، كان مستاءً من فرسان القرى، واعتبر أنهم انحدروا إلى مستوى «تسلية أنفسهم عن طريق

مضايقة الضعفاء، وإخافة آخرين»؛ وهو الأمر الذي أدى إلى تشويه سمعة الووشيا.

أما في مملكة وي، فإن سلالات جين الشمالية والغربية ظلت مراعية لتقاليد سلالة هان وممارساتها، كما مرّت فترة لعب فيها الووشيا دوراً في القتال من أجل السيطرة. أما في أواخر حكم سلالة هان، أي عندما كانت البلاد في حالةٍ من الفوضى، انتهز أتباع الإقطاعيين والبيروقراطيون الفرصة لتأسيس أنظمة انفصالية، وحاربوا ضد بعضهم بعضاً. أراد أولئك الأتباع توسيع دائرة نفوذهم، ولذلك بذلوا قصارى جهدهم لتوظيف أصحاب المواهب، وأصحاب الفنون القتالية من ذوي البراعة المذهلة على وجه الخصوص. وكانت نتيجة ذلك أن عدداً كبيراً من المواطنين الفرسان بدأوا بخدمة الأسياد سعياً وراء النفوذ. يمكننا هنا أن نأخذ كاو كاو كمثال، وهو الذي وُلد في أسرة أرستقراطية مؤلفة من المسؤولين الرسميين. كان كاو كاو منذ طفولته «شهماً، ودقيقاً في الأمور المتعلقة بالولاء للأصدقاء، كما أنه لم يكن يهتم بالمال كثيراً». وعندما كبر كاو، بدأ بدعوة رجالٍ يتمتعون بالحكمة والجرأة للبقاء إلى جانبه، كما أسّس جناحه السياسي، وقواته المسلحة الخاصة به. كان يوان شاو، ويوان شو، وسون تشيوان، وغيرهم شجعاناً محليين، أو فرساناً جوّالين، كما اعتبروا أنفسهم رموزاً للشهامة. تنافس أولئك الشجعان مع بعضهم بعضاً بهدف الاستيلاء على سلطات الدولة. ودخل أولئك الفرسان المعترك السياسي من خلال أعمالهم الخيرية وخدماتهم التي قدّموها للناس، كما نقلوا ثقافة الووشو المنتشرة بين عامة الشعب إلى الطبقات العليا من المجتمع؛ وهو الأمر الذي أدى إلى ممارسة نفوذ متزايد على تلك الطبقات التي تمسكت بالكونفوشيوسية لتكون دعامتها الأساسية. وازداد ذلك النفوذ وضوحاً في عهدَي سلالتَي سوي وتانغ.

سعي الووشيا العلمانية لخير الدولة والناس

لم تكن سلالتا سوي وتانغ ذروة الووشيا، لكن عهديهما كانا فترة تحوّلية عظيمة لطبقة الووشيا. وقد حدث ذلك عندما شهدت الووشيا تغيراتٍ جديدة، بينما ظهرت الووشيا العلمانية المتأثرة بعقيدة الطبقات العليا. أما أثناء حروب سلالتَي سوي وتانغ، فإن عدداً كبيراً من فرسان الووشيا من عامة الشعب ارتقوا إلى الطبقات العليا؛ وذلك من خلال الخدمة العسكرية الجديرة بالثناء. يُضاف إلى ذلك



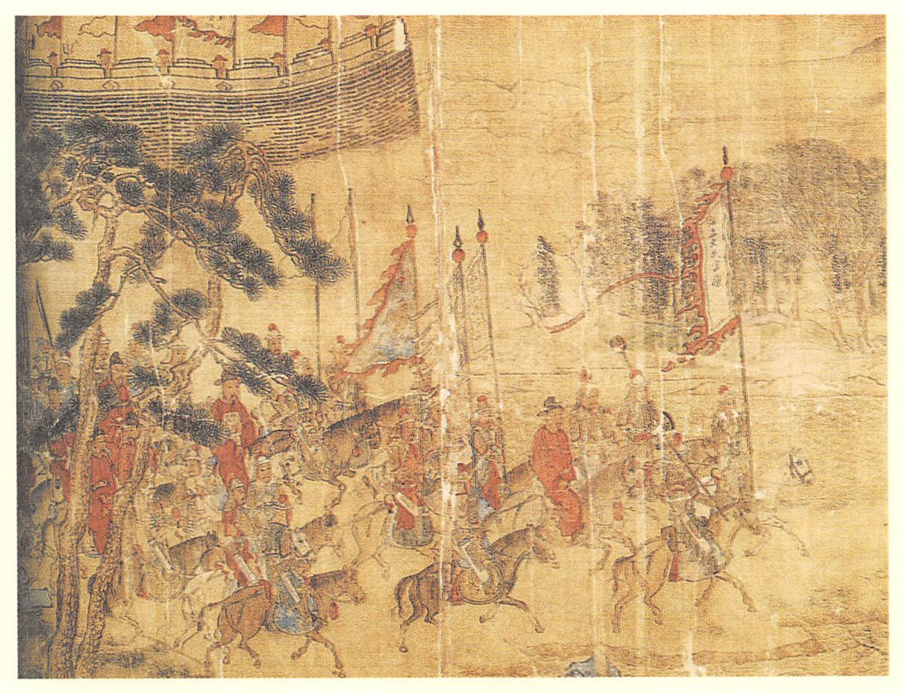
أن تأسيس نظام الامتحانات العسكرية الملكية لم يقتصر على توفير الفرص أمام ثقافة الووشيا وأقنيتها للارتقاء إلى الطبقات العليا من المجتمع، بل مكّن أفرادها من الاندماج مع تقاليد الكونفوشيوسية العلمانية؛ وهو أبرز تجسيد مباشر، وقد مثّل انطلاق الووشيا العلمانية. أما أشهر فرسان الووشو من الووشيا العلمانيين في عهد سلالة تانغ فكان لي باي، «الشاعر الخالد». كان لي باي مغرماً بالتدرّب على المبارزة بالسيف منذ طفولته، وكان يعتبر نفسه فارساً متجولاً، ويحمل سيفاً على الدوام، وقد بدأ «بزيارة كل أنصاره» بعمر الخامسة عشرة. ألّف لي باي في وقتٍ لاحق أشعاراً عدة في مدح فرسان شيا، والتعبير عن شغفه. أما أشهر قصائده في هذا المجال فكانت «قصيدة إلى مبارزٍ شهم»، وقد جاء فيها:

فرسان تشاو بأربطة قبعاتهم السميكة والخشنة، الحاملين فؤوساً خناجر
ملتمعة وسط الجليد والثلج. أما هو الذي يبرز سرج حصانه
فاعتلى جواده الحربي، ومضى به مسرعاً.
كان يهزم خصماً كل عشر خطوات، ويتقدم ألف لي
من دون أن يلتقي خصماً مساوياً له.
لم يكترث كثيراً للشهرة والمكاسب، وتقاعد بعد
خدمته الجليلة لسيّده.
لكن بينما كان في زيارة شينغ لينغ يون شهر سيفه وجلس
لشرب زجاجة شراب. أراد شينغ لينغ يونغ من وي الحصول على ما هو قيّم، فقدّم طعاماً لذيذاً
وشراباً لذيذاً للترحيب بضيفيه تشو هاي وهو يين.
قطع الفارسان وعداً رسمياً أثناء احتساء الشراب، والذي كان أثقل من
الجبال الخمسة الشهيرة. احتقنت عيونهما وآذانهما
وهكذا تمكّنا بقوة إرادتيهما وروحيهما
من إزاحة السماء.
تمكّن شينغ من حماية دولة تشاو بمطارقه الذهبية، وهكذا اهتزت هان دان بأكملها
لقي الفارسان الشجاعان والشهيران الإعجاب في كل أنحاء داليانغ.
ستبقى روحاهما الشجاعتان إلى الأبد. كيف يمكنني
الاقتناع بألا أكون غير تلميذ كونفوشيوسي في حياتي؟

ترسم هذه القصيدة - على الرغم من قِصرها - صورةً حيوية للفرسان الجوالين الووشيا الذين كانوا بارعين في الووشو، والذين لم يكترثوا للمال كثيراً، والذين تحمسوا للقضايا العامة. لكن، بغضّ النظر عن لي باي، ظهر في تلك الحقبة عدة شعراء قاموا بمدح فرسان شيا. على سبيل المثال، ورد في مقطع شعري من «قصيدة إلى لونغ تو» التي كتبها وانغ وي: «تسلّق شابٌ، والذي كان فارساً جوّالاً وشهماً برج المراقبة في شانغ آن، وشاهد كوكب الزهرة في الليل». يُضاف إلى ذلك أنه خلال حكم سلالة تانغ ظهرت أشعارٌ عن الووشيا بأسلوب حراسة الحدود. لم يقتصر تأثير ظهور الشعر بالأسلوب الحدودي على كشف الواقع الاقتصادي للووشيا خلال حكم تانغ - وهم الذين اعتادوا على حراسة المناطق الحدودية خدمةً للبلاد - ولكن ذلك الشِعر كان نتاجاً لدمج روح شيا (مناصرة الحق والشهامة الفروسية) والإخلاص لبلاد الكونفوشيوسية. لكن ما إن بدأت بهذه الطريقة روح شيا التي تتميّز بتقدير قيمة الولاء للوطن على حساب حياة المرء في سبيل الدفاع عن الحدود ومنفعة الناس، حتى اندمجت مع المصلحة القومية، وهكذا أصبحت تلك الروح موضع تقديرٍ كبير. كان ذلك أكثر وضوحاً في تراث الووشيا بعد انقضاء عهد سونغ. أما سياسة الدولة التي كانت تقضي «بتقدير القلم وكبح السيف»، والتي كانت مطبّقةً خلال عهد سلالة سون، فقد سدّدت ضربة قوية لروح شيا عند الطبقات العليا في دول وي، وجين، وسوي، وتانغ. ونتيجة لذلك، بدأت ثقافة الووشو بالهبوط والتلاشي في أوساط الطبقة العليا، وما لبثت أن توجّهت نحو الشريحة الدنيا من الشعب.

أدّى رفض أخلاقيات الووشو خلال حكم سلالة سونغ إلى إعطاء حافز لظهور مجموعات الووشو الشعبية، فبدأت جماعات الووشو الشعبية التطوعية - والتي تبنّت روح شيا بوصفها مبادئ أخلاقية وقواعد سلوك - بالظهور الواحدة بعد الأخرى، وتطورت إلى أوساط الفنون القتالية (وعلى الأخص هذا المصطلح العام في أوساط الووشو، والذي يُستخدم كثيراً بين الناس). كان وضع الووشيا في سلالة سونغ مختلفاً جداً عن شيا (الفارس) الفرد الذي يتجول بحرية، وهو الذي يقدّر التواجد مع رفاقٍ يقسمون يمين الولاء، وينخرط بالعمل في أنشطةٍ جماعية، وكان عادة يعتبر أن واجبه يفرض عليه تطبيق العدالة بالنيابة عن السماء، واستبدال نظامٍ جديد بنظامٍ قديم. لكن أنشطتهم وأهدافهم تجاوزت روح شيا التقليدية، كما رفعوا





الصورة 5-11 لوحة تمثّل القتال ضد القراصنة اليابانيين (بريشة تشيو ينغ من سلالة مينغ)

القتال ضد القراصنة اليابانيين، لوحة تمثّل المشهد التاريخي للجنود والمدنيين على طول منطقة شاطئ تشجيانغ، والذين اتحدوا كجسمٍ واحد ضد القراصنة في السنة الرابعة والثلاثين من حكم لياجينغ من سلالة مينغ (1555). هذه اللوحة محفوظة في المتحف الوطني في الصين.

أنفسهم روحياً من «الاعتراض الصارخ ضد الظلم» - وهي السياسة التي اعتمدوها في البداية - إلى «مقاومة العدوان الخارجي». أما التجسيد الأمثل للقتال ضد القراصنة اليابانيين فكان خلال حكم سلالة مينغ، وحركة يي هي توان (المعروفة في الغرب باسم ثورة البوكسر) (الصورة 5-11). ارتقت روح شيا في الصين من مشاعر العرفان أو الاستياء الفردية أو الجماعية إلى تعزيز المصلحة القومية الشاملة. وكان ذلك هو السبب في انتشار الصور التي تمثّل الشهامة والاستقامة الأخلاقية بين الناس؛ وهي الصور التي كانت موضع تقدير وثناء من الشعب. تحوّلت روح شيا تدريجياً إلى جزء ضروري من الثقافة الصينية.

روح الووشيا

اعتُبرت روح الووشيا منذ أقدم الأزمنة جوهر ثقافة (تقاليد) الووشيا. وأعطى

سيما شيان حجة قاطعة تتعلق بروح الووشيا في كتابه الذي أسماه سجلات تاريخية: سيَر حياة الفرسان الجوّالين الصينيين: «ممارسة الفضيلة إلى أن تنتشر شهرتهم في كل مكان، وتلهج كل الشفاه بالثناء عليهم»، و«أولئك المواطنون الشجعان كانوا صادقين بصورة مدهشة، ومدقّقين ومتواضعين في حياتهم الخاصة، وكانوا عادة يخرقون القوانين التي كانت سائدة في أيامهم، كما كانوا يستحقون شهرتهم. كما أن سعي الآخرين للحصول على حمايتهم كان مبرراً جداً»، «هم يفون بوعودهم، ويلتزمون بكل تعهداتهم، ويهرعون إلى نجدة أولئك اليائسين بغضّ النظر عن سلامتهم الشخصية»؛ «كما أنهم متلهفون، ولا يخشون شيئاً، وغَيْرى لإنقاذ أولئك الذين يكونون في خطرٍ داهم»، «لا يتفاخرون مطلقاً بقدراتهم، أو يبالغون في إظهار لطفهم. إنهم يحاولون تجنّب أولئك الذين ساعدوهم».

لكن، لكي نكون أكثر دقة نقول إن روح الووشيا، أو أخلاقيات الفروسية يمكن تلخيصها كما يلي:

أولاً، وقبل كل شيء، يجب أن يكون المرء وفياً ويعامل الآخرين بلطف، ولا بد من تقدير النزاهة الأخلاقية والإخلاص على حساب حياة المرء.

يُضاف إلى ذلك أنه بإمكاننا وصف شخصيات أوائل الووشيا وقيَمهم الأخلاقية في الصين بجملةٍ واحدة: يكون السادة الأفاضل على استعداد للموت في سبيل أولئك الذين يقدّرون قيمتهم. ظهرت هذه الروحية من الرغبة المستمرة في إيفاء الشخص حقه مقابل لطفٍ قدّمه أو قدّمته في السابق؛ وهو الأمر الذي يُترجم على الشكل التالي: «إذا حصلنا على القدر القليل من المساعدة عندما نحتاج إليها، فسوف يتوجب علينا مضاعفة المكافأة عندما نحصل على الفرصة المناسبة». أما أشهر حَمَلة السيوف الشجعان في تلك الحقبة فكانوا يو رانغ من دولة جين، وتشوان تشو (الصورة 5-12) وياو لي من دولة وو، وناي تشينغ من دولة تشي، وجينغ كي من دولة واي؛ وهم الذين عاشوا بين الناس العاديين، ولم يسعوا وراء الثروة والمراكز، بل تمسكوا بالنزاهة الأخلاقية. امتلك الفرسان قوىً هائلة ومهارات الووشو، وكانوا على استعداد لتقديم أي تضحية مقابل ما تلقوه من الدَّين من الذين قدّروا قيمتهم.





الصورة 5-12 «تشوان تشو يغتال الملك لياو» نقش حجري من أيام سلالة هان

اعتبر وانغ - وهو أحد أمراء دولة وو في العام 515 قبل الميلاد - أن لياو ملك وو كان على وشك غزو دولة تشو. فوجّه الأمير دعوة إلى الملك لياو لحضور مأدبة، وذلك لكي يتمكن من إرسال أحد القتلة لاغتيال الملك الذي يحيط نفسه بحراسة مشددة. بعد ذلك، عمد تشوان تشو إلى تخبئة سكين في جوف سمكة مشوية كي يتمكن من اغتيال الملك أثناء تقديم أطباق الطعام. وفي النهاية، تمكّن الأمير تشوان من الاستيلاء على السلطة وأصبح ملك وو.

ثانياً، يجب تجنّب عدم الوفاء بوعدٍ يقطعه الفارس للآخرين.

«إنهم يفون بكل وعودهم، ويحترمون كل التزاماتهم، ويسرعون إلى نجدة كل من يتعرض لمحنة». كان ذلك أكثر شرحٍ للإخلاص والولاء اللذين يميّزان روحية ووشيا دقةً. وقد علّق سيما تشيان على فرسان ووشيا في مجتمع تلك الفترة، وذلك في كتابه سجلات تاريخية: سيَر حياة الفرسان الجوالين الصينيين. وجاء تعليقه على الشكل التالي: «عندما يكرّس المواطنون العاديون أنفسهم لقضية عادلة، ويكونون على استعداد للترحال مسافة ألف لي، وللموت في سبيل هذه القضية، من دون الاكتراث بما يقوله الناس، فإن عملهم هذا مكافأة لهم، وهكذا لا تذهب حياتهم سدى». ومضى بعد ذلك للتشديد على أنهم «يفعلون كل ما يعدون به، ويحترمون كلمتهم». يمكننا أن نلاحظ من تعليقات سيما تشيان أن الصدق، أو «احترام المرء كلماته أو وعوده» لم يعد ركيزة الووشيا الأساسية التي تشمل النظر إلى العالم والقيَم الإنسانية، ولكنه أصبح من العناصر الجوهرية للمبادئ الأخلاقية التي اعتمدتها طبقة الووشيا.

ثالثاً، كن متلهفاً، ولا تخشَ شيئاً في مساعدة أولئك الذين يتعرضون لخطر شديد.

يعود تاريخ قانون السلوك الذي ينص على «إقامة العدالة على حساب حياة المرء» إلى فرسان الووشيا الذين عاشوا خلال عهد سلالة هان. ويورد كتاب سجلات تاريخية: سيَر حياة الفرسان الجوالين الصينيين قصة عن تشو جيا، وهو أحد أشهر فرسان الووشيا في أوائل عهد سلالة هان. كان تشو جيا ذائع الصيت في شمال شرق الصين، وذلك بسبب جهوزيته الدائمة لمساعدة الآخرين، كما أنقذ عدة أشخاص من حالة الفوضى التي سبّبتها الحروب، وكان ما يزيد عن مئة منهم من أصولٍ مرموقة. وبالرغم من ذلك، لم يتوقع تشو جيا مكافأة على أعماله ولطفه، ولا تفاخر بها، ووصل به الأمر إلى حدّ أنه كان متردداً في رؤية الذين استفادوا من مساعدته، وكثيراً ما كان يساعد الذين يتعرضون لخطرٍ شديد، ويساعد الذين يكونون بحاجة ماسة لمساعدته، أما هو فقد عاش حياةً بسيطة وعادية. أثّرت روحيته التي فرضت عليه التضحية الشخصية في سبيل الخير العام كثيراً على عددٍ كبيرٍ من فرسان الووشيا. أما تيان تشونغ الذي كان أحد فرسان الووشيا في تشو، فقد كان يعتقد أنه أقل قيمة من تشو في الفضائل، ولذلك عامله بالاحترام ذاته الذي عامل به والده. يُضاف إلى ذلك أن فضائل تشو جيا - والتي تتمثّل في «الإخلاص الكامل للآخرين من دون أي تفكيرٍ في الذات»، و«إغاثة الفقراء» - وجدت تجسيداً لها في فرسان الووشيا الذين ظهروا في الأجيال التالية.

رابعاً، القضاء على الأشرار، ورفع المظالم عن الضعفاء.

كان الشعار «القضاء على الأشرار والتدخل لصالح المظلومين» قاعدة السلوك والمبدأ الرئيس الذي اعتمدته روحية الووشيا (مناصرة الحق والفروسية). ويمكننا العثور على شروحات في هذا السياق في الرواية الشهيرة الخارجون على القانون في المستنقع. وقد حارب وو سونغ بشراسة بالغة ضد جيانغ مين شين، وقتله مع الشخص الذي كان يدعمه، تشانغ الذي كان المدير العام للقوات المسلحة، وذلك لمساعدة صديقه على استعادة الحانة. أما لو زي تشي شين، فقد أراد حماية والده وابنته اللذين كانا يعتاشان من الغناء في الحفلات في الشوارع من المظالم التي كانا يتعرضان لها، ولذلك قام بتصفية بوتشر تشينغ الذي كان مستبداً في تلك المنطقة. كانت كل هذه القصص تجسيداً لروحية فرسان الووشيا في سعيهم للتخلص من الأشرار وإزالة المظالم.



الصورة 5-13 طلاب أكاديمية ضباط الشرطة في عهد جمهورية الصين وهم يتدربون على الووشو

خامساً، تكريس التضحية بالدم، والقلب المخلص لخير البلاد والناس.

أدت النزاهة الأخلاقية المترافقة مع روحية دخول عالم الكونفوشيوسية الأخلاقي دفعاً لأعلى وضعٍ من أوضاع روحية الووشيا؛ أي روحية الفروسية الممزوجة بالشهامة في خدمة البلاد والناس. وباستطاعة المرء كذلك ممارسة الووشو لحماية منزله. لكن إذا تعرضت القبيلة أو البلاد لأزمات فإن حافز الدفاع عن النفس يرتقي إلى روحية قومية تسعى إلى حماية كرامة الأمة ومصالحها. ونتيجة لذلك، عزّز فرسان الووشيا تقاليدهم التي تقضي بحب البلاد والناس، والتمسك بمبدأ الفضيلة، كما قاموا بدمج الفكر الكونفوشيوسي الذي يفرض «الاهتمام بمصير الأمة»، وروحية الفروسية التقليدية التي تقضي «بإقامة العدالة الاجتماعية بواسطة مهارات الووشو»، و«ترفيع روحية الووشو التقليدية الضيّقة إلى مستوى قضية القتال من أجل خير البلاد والشعب. (الصورة 5-13)

يمكننا تلخيص جوهر روحية فرسان الووشيا بهذين الوصفين: الإخلاص والتمسك بالحق، اللذين كانا جوهر التقاليد الشعبية الصينية على وجه التحديد. لكن بالمقارنة مع البطولة الفردية السائدة في الغرب، إن روحية الووشيا الصينية

تشدّد أكثر على التضحية بالنفس من أجل الآخرين، وهي التي ترفع المصلحة الجماعية إلى مصاف الاهتمامات الأولى، وتُظهر مزايا قومية مميزة من التعقل، والصدق والنزاهة، والسعي وراء الاعتدال واللطف، والتوازن، والتناغم بين الحب الذي لا لبس فيه والكراهية. أما الأساس الذي تستند عليه روحية الووشيا فهو الكونفوشيوسية والطاوية اللتان تناقلتهما الأجيال عبر مئات السنين. تشبه هذه الروحية نصباً شُيّد عميقاً في قلب كل شخصٍ صيني تلقى تربية وتنشئة وتهذيباً في ظل التقاليد الصينية. دعونا نتأقلم بكل انتباه مع التوق الروحي البطولي والحزين للووشيا لغسل أدران الصدأ الروحي الذي يعصف بالبلاد بين وقتٍ وآخر.

| قصص خرافية بين الحقيقة والخيال

كان الشعب الصيني مغرماً جداً بالووشيا، وهو أمرٌ أثّر كثيراً على التقاليد الثقافية للصين. لم يملّ الشعب الصيني قط من إطلاق العنان لرغباته في الروايات والأفلام والتمثيليات التلفزيونية المتعلقة بالووشيا، وذلك نتيجة القيود العديدة التي يواجهونها في مراحل حياتهم، بالإضافة إلى فشلهم في تحقيق تطلعاتهم في ما يتعلق بالحرية. يرى الشعب الصيني أن عالم الووشيا، لا يشتمل فقط على السيوف والسيوف العريضة التي تبثّ ومضات من النور، ولكنه يشتمل أيضاً على توقٍ شديد للعدالة والحرية والإنصاف، والسعي لتحقيق الشخصية الكاملة، والحب الرومانسي، والمجتمع المثالي. ويعني كل ذلك أن عالم الووشيا أقرب ما يكون إلى قصةٍ خرافية حيّة للكبار.

القصص الخرافية للكبار

يمكننا أن نطلق وصف أعجوبة التاريخ الأدبي الصيني على قصص الووشيا الخرافية، وذلك بوصفها صيغة أدبية تحمل المزايا الصينية. أما الفكرتان الرئيستان دائمتا الحضور فتضمّنتا الإعجاب بمهارات الووشو المذهلة التي يتمتع بها الووشيا، وروحية الووشيا التي تتضمن الجرأة الكافية للتصدي للمظالم بشخصيةٍ حازمة، والتي انغرست عميقاً في قلوب جميع الصينيين. دُعي البروفيسور هوا لو جينغ في شهر آب من العام 1979 لحضور مؤتمر نظرية العدد التحليلي العالمي الذي



عُقد في بيرمنغهام، وهناك التقى لي يو شينغ بطريق الصدفة. اكتشف الرجلان أنهما متجانسان روحاً وطبعاً لدى تبادلهما للأحاديث. وفي ذلك الوقت، كان هوا ليو جينغ قد انتهى لتوّه من قراءة رواية عن الووشيا بعنوان قصة غرام في بحرٍ من السُحُب وقوس الجاد، والتي كتبها ليانغ يو شينغ. اعتبر هوا أن هذه القصة مثيرة للإعجاب، ولذلك أطلق على روايات الووشيا وصف «قصص خرافية للكبار»، وهو الوصف الذي أصبح لاحقاً الوصف الأوسع انتشاراً عن الووشيا.



الصورة 14-5 ثلاثة من حاملي السيوف الشجعان (بريشة رن بي من سلالة تشينغ)

ثلاثة من الفرسان حاملي السيوف الشجعان تروي قصة ثلاثة فرسان من حاملي السيوف الذين عاشوا في أواخر عهد سلالة سوي، وأوائل عهد سلالة تانغ، وهم السيّاف ذو اللحية المجعدة، ولي جينغ، والفتاة الحمراء السريعة. كان لي جينغ عسكرياً وسيماً، وقوياً، وطموحاً. أما الفتاة الحمراء السريعة فائقة الجمال فكانت تعشق لي جينغ، إلى حدّ أنها كانت تتبعه في تجواله في أنحاء البلاد. في حين أن السياف ذا اللحية المجعدة كان يجول بحريةٍ في كل الأمكنة. أما عندما يلتقي الفرسان الثلاثة فيصبحون كالأشقاء الذين أقسموا يمين الولاء لبعضهم بعضاً.





الصورة 5-15 البطلتان هونغ زيان، وناي ين نيانغ (لوحة بريشة رِن شواي ينغ)

اشتُهرت البطلة هونغ زيان - وهي فتاة من الفرسان - في العزف على روان زيان - الآلة الوترية - كما اشتهرت في الفنون القتالية، وكانت واسعة الاطلاع في مجال الكتب القديمة والتاريخ. أما ناي ين نيانغ فكانت محاربة تتمتع بمهارات ووشو رائعة. هونغ زيان وناي ين نيانغ امرأتان أسطوريتان من الووشيا، وقد اكتسبتا شهرةً واسعة بين مواطناتهما.



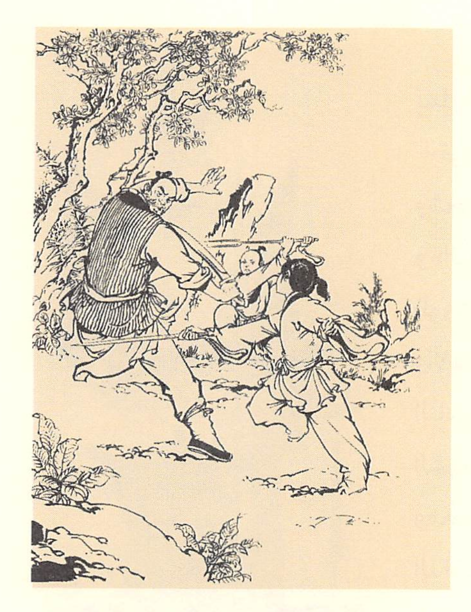
شهد التاريخ الصيني عدداً كبيراً من روايات الووشيا التي كُتبت لتمجيد روحية الووشيا وتعظيمها. ويُعتبر كتاب حوليات وو - يوي الربيع والخريف كتاب تاريخ غير رسمي كتبه تشاو يي، ويروي قصة فتاة من مملكة يوي بوصفها قاتلة. أما كتاب حول التوازن الذي كتبه وانغ تشونغ فيروي أسطورة جينغ كي الذي قتل إمبراطور تشين. لكن أول رواية صينية كلاسيكية ظهرت خلال حكم سلالتَي جين ووي عن الووشيا كانت بعنوان ولي عهد مملكة يان. كانت سلالة تانغ ذروة ازدهار روايات ووشيا، وكان أبرز شخصيات تلك الروايات تشيو ران كي (سيرة حياة المحارب الملتحي) (الصورة 5-14)، وعبيد كون لون، والبطلة ناي ين نيانغ، والبطلة هونغ تشيان. (الصورة 5-15)

أما خلال عهد سلالة سونغ الشمالية، وبالرغم من تمكّن روايات قصص الووشو القصيرة في الأدب الصيني التقليدي من كسب زخمٍ لا بأس به، إلا أنها تراجعت كثيراً بسبب الروايات التي ظهرت في زمن سلالة تانغ، سواء أكانت من ناحية سعة الرؤية، أو المهارة الأدبية. لكن بالرغم من أن سلالة كينغ شهدت روايات ووشيا مثل الانطلاق من مسكن القش للمراقبة القريبة الذي كتبه جي يون، وقصص شائعة قديمة وجديدة الذي كتبه يوي جون، وغير ذلك من الكتب، إلا أن الشعبية الآخذة بالتناقص لروايات الووشيا الخرافية في الأدب الكلاسيكي الصيني استمرت في الهبوط.

لكن في الأربعينيات من القرن الماضي، ومع وصول رواية الووشيا إلى ذروتها، بدأ روائيو الووشيا العظماء وأعمالهم بالظهور الواحد تلو الآخر، مثل بينغ جيانغ بوزياو شنغ، ووِن جونغ تشي، وجو مينغ داو، وباي يو، وتشو تشن مو، وهوان تشو لو تشو، والكثيرين غيرهم، وهم الذين ألّفوا عشرات الروايات التي تضم ملايين الكلمات. أما في الخمسينيات من القرن الماضي، شهدت الصين موجة خلاقة متزايدة مع روايات الووشيا الخرافية، وذلك مع ظهور الكتاب والسيف من تأليف جين يونغ، والتنين يقاتل النمر من تأليف ليانغ يو شينغ.

أقدمت روايات الووشيا هذه بأسلوبها الجديد على التخلي عن التعابير المستهلكة التي اعتمدتها الروايات التي ظهرت في البداية، كما قدّمت تقنيات

تعبيرٍ جديدة عن المهارات التقليدية، ومنطقاً حديثاً. وقد استفادت هذه الروايات المعتمدة على أسلوبٍ جديدٍ من المزايا الجيدة للروايات الحديثة في إدماج الووشيا، والأعمال التاريخية والرومانسية، وذلك من أجل رفع روايات الووشيا الخرافية إلى مستوى جديد. يمكننا هنا أخذ أعمال جين يونغ كمثال. إذ تتصف أعمال جين يونغ التي تستند إلى التاريخ والسياسة والاقتصاد والدِّين والتراث بمنظورٍ فريد، وحبكة معقدة، ووصفٍ جميلٍ ودقيق، واهتماماتٍ إنسانية، وإدخال التراث الصيني التقليدي إليها، مثل عزف الموسيقى، ولعبة الشطرنج، وفن الخط، والرسم، وعلم الفلك وحسابات الروزنامة، ومعتقد الين واليانغ، والعناصر الخمسة، وأسطورة سحر الاختفاء، والكونفوشيوسية، والطاوية، والبوذية، وغيرها... ومن هنا اكتسبت اسم «مدرسة الفنون المتنوعة ورومانسية الفروسية». ويعود الفضل في كل ذلك إلى معرفة جين يونغ الواسعة بالأدب والتاريخ، وإلى مخيّلته الواسعة والمتفوقة التي سمحت لقلمه بإظهار شخصيات الووشيا وكأنها نجومٌ متألقة بقصص غرامياتها المثيرة إلى أبعد الحدود، حيث تأسر قرّاءها وتسحرهم، وهي بذلك تثير في القارئ توقاً وخيالاً لا حدّ لهما (الصورة 5-16). يمكننا القول إنه أينما تواجد أشخاص صينيون فسوف يتواجد قرّاء ومشجعون لروايات جين يونغ. ومن الجدير بالذكر أن الحبكات المحكمة، والتحركات السريعة، ومشاعر الشهامة لدى البطل والبطلة، وحرصهما على إقامة العدل من دون النظر إلى سلامتهما الشخصية، ومن دون التفكير في التفاصيل مهما كانت صغيرة، تجسّد سعة الأفق وعمق التراث الصيني؛ وهو الأمر الذي يترك القارئ مندهشاً جداً من الحبكات المحكمة، حيث لا يستطيع الابتعاد عن الكتاب.



الصورة 5-16 إحدى الشخصيات التي ظهرت في إحدى روايات جين يونغ عن فرسان الووشيا (بريشة جيانغ يونغ شينغ)



في الواقع، تُعتبر روايات الووشيا - بما أنها تجسيد للتراث الصيني التقليدي - نوعاً ما امتداداً لإرادة الأشخاص العاديين وشخصياتهم. أما القصص عن الأطفال الصغار، و«الرجل الصغير» التي ترد في روايات الووشيا الخيالية فهي تجسيد للقيَم، والأمزجة، والاهتمامات، والمثاليات، وطرائق التفكير عند الناس العاديين؛ مثل الشجاعة المترافقة مع الشهامة، والتطوير المستمر للذات، والولاء، ومحبة الأبناء، ووفاء ديون الامتنان، وإثراء الذات، والتثقيف الداخلي للنفس، والعمل الخارجي وغير ذلك. وعلى الرغم من بساطة روايات الووشيا الخرافية، إلا أنها تُعتبر لوحة عريضة وأنيقة لواقع الحياة، كما أنها تخلق مشهداً تراثياً مذهلاً.



الصورة 5-17 لقطة من فيلم جبل دينغ جون من إنتاج تان شين بي

يستند فيلم جبل دينغ جون إلى الفصلين 70 و71 من رواية قصص الممالك الثلاث، والتي تتحدث عن الحرب بين دولة واي ودولة شو.

نجوم الكونغ فو السينمائيون

انتقل أبطال الووشيا وبطلاتها مع تطور الزمن من مخيلة المتحمسين لها إلى نجوم أحياء وحقيقيين للووشو، كما ظهروا على الشاشات عن طريق الوسائل السمعية البصرية الأكثر شعبية، أي السينما والتلفزيون، ومارسوا تأثيراً عظيماً على المجتمع. أما أول فيلمٍ صيني عن الووشو فكان جبل دينغ جون (الصورة 5-17)، والذي أنتجته استديوهات فينغ تاي في العام 1905. كان موضوع الفيلم هو الفنون القتالية. ومنذ ذلك الحين، امتلكت أفلام الووشيا تاريخاً استمر لما يزيد عن 100 سنة.

تحولت أفلام الووشيا ومسلسلاتها التلفزيونية - بفضل غناها المتنوع - إلى حافزٍ روحي وأساسٍ لتلك الأفلام. وتتغلغل روحية الووشيا في الأفلام التي كان بروس لي وجاكي شان وجيت لي أبطالها، وهم الأبطال الذين لعبوا أدوارهم بقواهم



الصورة 5-18 لقطة من أحد أفلام الكونغ فو الأولى في هونغ كونغ

العضلية، وسعوا إلى الدفاع عن الضعيف ضد الظلم، ورفع الشرور عن الناس، ومعرفة ما يحبّونه وما يكرهونه، وتجنّب كل أنواع الشر. كانت الأدوار من هذا النوع هي الأدوار التي تاق إليها الناس بالضبط. وقد استوعب الناس بعمق قوة هذه الأدوار؛ الأمر الذي مكّنهم من التحرّك بحرية وسرعة في العالم الافتراضي للأضواء والظلال، ومن التعبير عن سخطهم من الحياة الواقعية، والتعبير عن رغبتهم الكامنة في القتال من أجل الخير والحق في الحياة. أما مهارات الووشو الرائعة والطاقة القتالية السريعة والشرسة التي يتقنها نجوم الكونغ فو فقد تحولت في عقول المشاهدين، وبطريقة ساحرة، إلى مشاركة مذهلة مع النجوم تمكّنهم من القتال مع الأبطال والبطلات ضد المجموعات الشريرة التي تسيء استغلال قواها لقهر الضعفاء. يشعر المتفرجون بطاقةٍ كبيرة - جسدية وعقلية - نتيجة الحبكة السريعة؛ وهذا ما يمكننا أن نطلق عليه: أفلام الكونغ فو الرائعة. (الصورة 5-18)

لعب أبطال أفلام الكونغ فو الصينيون - من دون تعمّد - دور المروّجين لتراث الووشو الصينية. لكن أفلام الكونغ فو تجاوزت حتى الآن صناعة الأفلام ذاتها، وتحولت إلى جسرٍ للأجانب يعبرون من خلاله إلى معرفة أولية جيدة بالتراث

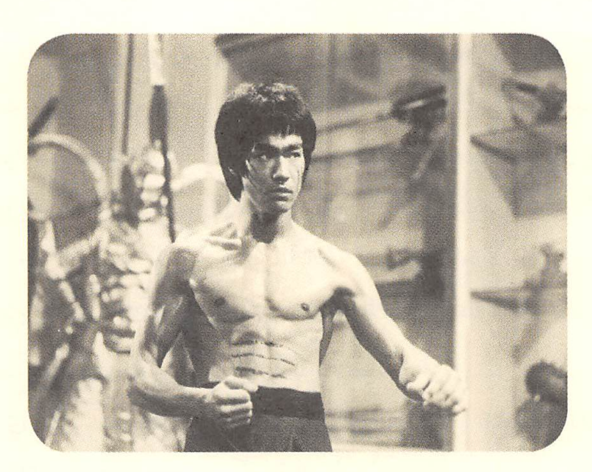
الصورة 5-19 بروس لي، أحد نجوم أفلام الكونغ فو

كان بروس لي (1940-1973)، واسمه الأصلي لي تشن فان، أميركياً من أصلٍ صيني، ووُلد في فوشان، غوانغ دونغ. لم يكن بروس لي نجماً شهيراً في أفلام الكونغ فو وأستاذاً من أساتذة الووشو فقط، بل كان أيضاً فيلسوفاً من فلاسفة الووشو. كان بروس لي مؤسّس جيت كونغ دو، ورائداً من رواد إصلاح الووشو، كما مارس تأثيراً هائلاً في العالم.

الصيني. لكن، بالرغم من أن هذه المقولة قد تكون منحازة بعض الشيء، إلا أن هذه الأفلام أصبحت أقوى الوسائل لمعرفة شيء ما عن التراث الصيني عن طريق روحية الووشو التي تبثّها هذه الأفلام. وبهذا المعنى، يمكننا القول إن الكونغ فو أصبحت ضرورية لسكان العالم إذا أرادوا فهم التراث الصيني. لكن أثناء الاستمتاع بعالم الكونغ فو الصينية الرائع شعر الناس في كل أنحاء العالم باهتمامٍ كبير بالتراث الصيني القوي والعميق، والذي حظي بالاحترام على مرّ الزمن.

لكن، بمناسبة الحديث عن نجوم الكونغ فو، إن أول بطلٍ يخطر على البال هو بروس لي الذي كان أسطورة بالرغم من حياته القصيرة (الصورة 5-19). وصل بروس لي إلى درجة التفوق خلال حياته، كما ترك تأثيراً عميقاً في العالم بعد وفاته، لكن إنجازاته كانت فريدة. أما إذا أردنا إلقاء نظرة على أبرز التعليقات على هذا النجم المميّز للكونغ فو فيكفي أن نعرف أن الحزام الأسود - وهي مجلة مرجعية دولية - أدرجته في قائمة نجوم الفنون القتالية للعامين 1972 و1973 على التوالي، وذلك بفضل إنجازاته الباهرة في الووشو وصناعة السينما. تلقى بروس لي تكريماً من الأميركيين بوصفه «ملك الكونغ فو»، كما كرّمه التايلانديون بوصفه «الأفضل في القتال»، وكرّمه صنّاع الأفلام السينمائية بوصفه «ملك أفلام الكونغ فو». تمكّن بروس لي - بقيامه بدور البطولة في أربعة أفلام عن الكونغ فو، وهي: بيغ بوس، قبضة الغضب، الدخول إلى التنين، وفيلم لعبة الموت (الصورة 5-20) الذي لم يتمكن من إنهائه- من جمع ما يزيد عن 200 مليون معجبٍ بأفلامه من مختلف أنحاء العالم. يُضاف إلى ذلك أن الكرة الأرضية بأسرها ذُهلت بفنونه القتالية السحرية؛ وهو الأمر الذي أطلق اهتماماً متزايداً بالكونغ فو الصينية. وقد ظهرت منذ ذلك الحين كلمة جديدة - كونغ فو


الصورة 5-20 لقطة من فيلم لعبة الموت من بطولة بروس لي



الصورة 5-21 لقطة من أحد أفلام بروس لي

- في عددٍ من قواميس اللغات الأجنبية. يُضاف إلى ذلك أن بروس لي كان مؤسّس لعبة جيت كون دو. تلقى بروس تكريماً من عددٍ من برامج الفنون القتالية التي تعتمد الأساليب الجديدة، مثل يو. أف. سي، وأم. أم. آي وغيرها، وهي التي منحته لقب أستاذ كبير.

لكن، كيف تمكّن بروس لي من إحراز نجاحٍ كبيرٍ كهذا؟ كان أهمّ عامل من عوامل ذلك النجاح واقع تجسيده مزيجاً مثالياً من الووشو، والأفلام، والفلسفة. شكّلت الووشو روحيّته المميزة، وهي ما سعى إليه طيلة حياته، وكانت صناعة الأفلام مهنته، كما استقى فلسفته من الووشو. يمكننا القول بهذا المعنى إن فن الكونغ فو الذي اعتمده قد تطوّر إلى فنٍّ فلسفي. تمكّن بروس لي من الاسترشاد بالفلسفة؛ وذلك من وجهة نظر الكونغ فو، كما تمكّن من الجمع بين الشرق والغرب وفرق الووشو الأخرى. وقد وصل بروس لي في حياته إلى ذروة تطوير الووشو. اعتبر بروس لي أن الووشو غاية أبحاثه من الناحية الفلسفية، ولذلك طالع عدداً كبيراً من الكتب في هذا الحقل، وهكذا ظهر نظامٌ فلسفي متناسق في أعماله. تأسّست «فلسفة بروس لي» بوصفها مادة تدريسية في بعض المدارس الأميركية، كما أن الأقدار شاءت أن يُحضر لي هاي كوان، والد بروس، ابنه إلى السينما عندما كان بروس يبلغ من العمر ثلاثة أشهر. يُضاف إلى ذلك أنه لعب أدواراً في نحو

عشرين فيلماً عندما كان في أعمارٍ تراوحت بين السادسة وحتى الثامنة عشرة. يمكننا القول في هذه الحالة إن بروس لي نشأ في عالم الأفلام السينمائية. لكن، لا حاجة بنا إلى القول إنه يمتلك موهبة طبيعية وقوية في التمثيل. اعتقد بروس لي أن الأفلام هي أفضل أنواع الفنون التي تعبّر عن مشاعر المرء وأفكاره، ولذلك كرّس حياته للتعبير عن فلسفته - وذلك بوصفه «سوبرمان» المقاتل الذي ينتمي إلى فئة الووشيا - وعن مفهوم البطل المثالي في الحياة. (الصورة 5-21)

لكن بالرغم من أن بروس لي لم يعش أكثر من 33 سنة، إلا أنه حقّق قيمته الشخصية إلى أقصى حدٍّ ممكن. أما الشخصية التي جسّدها على الشاشة فقد استمد معظمها من التراث الشعبي؛ أي البطل المتحمس ورقيق القلب الذي يمتلك الجرأة الكافية لتحدي كل محاولة يقوم بها الآخرون لفرض اضطهاد شديد القساوة. ملأت أعمال بروس لي البطولية قلوب المشاهدين في كل أنحاء العالم بالإعجاب الشديد. ولكن، بالرغم من توجيهه ضربة شديدة للغزاة اليابانيين في أفلامه، إلا أنه تلقى تكريماً في أنحاء العالم كافة، وفي اليابان أيضاً، وذلك بوصفه «حكيم الووشو». امتد التأثير الذي تركه بروس لي إلى ما يتعدى حدود البلاد؛ وهو تجسيد للروح التي تأبى الاستسلام وسط نضالٍ لا ينتهي ضد الشر، والتأكيد الإيجابي لتطلعات الإنسانية وقِيَمها.

ظهر جاكي شان وسط الأضواء في أواخر سبعينيات القرن الماضي، بعد بروس لي. لكن بالرغم من أن مهارة جاكي شان في تقنيات القتال لا تصل إلى مستوى



الصورة 5-22 لقطة من فيلم يي ون من بطولة تشن زيدان

تشن زيدان (دوني ين) مخرج شهير، ونجم سينمائي وتلفزيوني في هونغ كونغ، كما شارك في تمثيل عدد من الأفلام الغربية وإنتاجها. يُعتبر تشن زيدان ممثلَ ووشو صينياً شهيراً، بالإضافة إلى جاكي شان، وجيت لي.





الصورة 5-23 لقطة من فيلم هوانغ فاي هونغ من بطولة جيت لي

لي ليان جاي (جيت لي) هو الممثل السينمائي الشهير، ونجم الكونغ فو والفنون القتالية، والمحب لأعمال الخير، والشهير عالمياً. أحدث فيلم معبد شاو لين الذي قام ببطولته في العام 1982 ضجة في جميع أنحاء العالم. يُضاف إلى ذلك أن مسلسل هوانغ فاي هونغ أطلق موجة من أفلام الووشيا الجديدة، وما زال أبطال فيلم هوانغ فاي هونغ من أمثال فانغ شي يو، وتشانغ سان فينغ، وهيو يوان جيا، وغيرهم يعيشون في ذاكرة الناس حتى اليوم.

مهارات بروس لي فيها، إلا أنها مكّنته من إضفاء عناصر مرحة وإنسانية تتناسب مع احتياجات الزمن. كان جاكي شان صريحاً وجدياً ومجتهداً جداً في صناعة الأفلام، إلى درجة أنه بالكاد استخدم أيّ ممثلٍ بديل له في أفلامه العديدة، ومشاهد القتال المدهشة التي مثّلها. أما أشهر أفلامه فكان قعقعة في برونكس الذي ظهر في العام 1994، وهو فيلم حصد نجاحاً عظيماً، وأسهم في جعله واحداً من أبرز نجوم السينما الصينيين، والذي سجّلت أفلامه مداخيلَ مذهلة في دور السينما في أميركا. أسهم جاكي شان كثيراً في تمكين الأفلام الصينية من الوصول إلى العالمية، كما أصبح نجم الكونغ فو المعروف عالمياً.

لكن التطور المستمر لأفلام الكونغ فو ساهم في مضاعفة تأثيرها في أوساط السينما العالمية، وهكذا ظهر عدد آخر من نجوم الكونغ فو مثل جيت لي، وتشن زيدان (الصورة 5-22)، ووو جينغ، وتشاو وين تشو، وغيرهم... يتباهى نجوم السينما

- وبعد تلقيهم تدريبات منهجية وصارمة في ووشو تاولو - بتمتعهم بأساسٍ صلب للتمثيل، وعرضهم حركات طبيعية واستعراضية ورشيقة وجريئة.

يمكننا هنا أخذ جيت لي كمثال، وهو الذي فاز بخمس بطولاتٍ للووشو في الألعاب القومية للصين. كان أول ظهورٍ له في مطلع ثمانينيات القرن الماضي، وذلك في فيلم معبد شاولين، وهو الفيلم الذي أحدث ضجة كبيرة في البلاد وخارجها. أثار هذا الفيلم الناجح حماسةً كبيرة في جميع أرجاء العالم، ورغبة في تعلّم الكونغ فو الصينية. يُضاف إلى كل ذلك أن سلسلة أفلام هوانغ فاي هونغ (الصورة 5-23)، وفانغ شي يو التي بدأ إنتاجها في التسعينيات من القرن الماضي، حققت نجاحاً كبيراً في تعبيرها العميق عن وهج التراث الصيني التقليدي والمتألق على مدى الأجيال. تمكّن جيت لي من شق طريقه إلى هوليوود في أواخر التسعينيات من القرن الماضي، كما تمكّن من إثارة إعجاب العالم بعروض الووشو المدهشة التي قدّمها؛ وهو الأمر الذي مكّن العالم بأسره من تذوّق روعة فنون الووشو الشرقية ورشاقتها.

يمكننا باختصار القول إن الأفلام السينمائية الرائعة لنجوم الكونغ فو لم تقتصر على إظهار عمق الووشو الصينية وغموضها أمام العالم فقط، بل تعدى الأمر ذلك للترويج المستمر للووشو إلى حدٍّ ما. لكن بالرغم من ذلك، يمكننا القول إن الأفلام ليست إلا فناً وخدعاً بصرية، غير أن مهارات الووشو التي تظهر في عالم الأفلام السينمائية الافتراضي تختلف تماماً عن الكونغ فو في العالم الحقيقي. يضاف إلى ذلك أنه مع تطوير التكنولوجيا الحديثة، تم استخدام المزيد والمزيد من المؤثرات الخاصة في الأفلام والبرامج التلفزيونية، غير أن هذه المؤثرات السينمائية الخاصة لا يمكنها مضاهاة الإثارة التي تمتلكها الكونغ فو الحقيقية؛ وهذا سر السحر الخالد للكونغ فو الأصيلة.



المراجع:

[1] Li Yindong. A General Survey of Wushu[M]. Beijing: Beijing Sport University Press, 2006.

[2] Tang Lan. Origin and Development of Chinese Bronze Ware[J]. Palace Museum Journal, 1979.

[3] Xu Changqing. Shaolin Temple and Chinese Culture[M]. Henan: Zhongzhou Chinese Classics Publishing House, 1993.

[4] Friedrich Engels. Der Ursprung der Familie, des Privateigentums und des Staats[M]. Beijing: People's Publishing House, 1972.

[5] Wang Zhaochun. Speed Reading of Ancient Chinese Books on Military Science[M]. Beijing: Lantian Press, 2004.

[6] Yang Li. Yang Li Explicating The Book of Changes[M]. Beijing: Beijing Science & Technology Press, 2008.

[7] Zhou Shan. The Book of Changes' Role in Traditional Culture[J]. Quarterly Journal of Shanghai Academy of Social Sciences, 1990.

[8] He Ning. Variorum of Huainanzi[M]. Beijing: Zhonghua Book Company, 1998.

[9] Yu Yue. Comments on the Philosophers[M]. Shanghai: Shanghai Bookstore Publishing House, 1988.

[10] Yang Bojun. Annotations of The Zuo Commentary[M]. Beijing: Zhonghua Book Company, 1981.

[11] Wang Hongpeng et al. Number One Scholars of Martial Arts in Ancient China[M]. Beijing: People's Liberation Army Press, 2004.

[12] Sima Qian. Historical Records[M]. Beijing: Zhonghua Book Company, 1959.

[13] Li Yanshou. History of the Northern Dynasty[M]. Beijing: Zhonghua Book Company, 1974.

[14] Zhang Zhijiang. Martial Arts and Sports[J].Teaching and Learning, 1937.

[15] Zheng Hangsheng, et al. From a New Angle: An Introduction to Sociology[M]. Beijing: China Renmin University Press, 2000.

[16] Jiang Yihua. Academic Essay Collections of Hu Shi—Philosophy and Culture[M]. Beijing: Zhonghua Book Company, 2001.

[17] Research Academy of Wushu of the General Administration of Sport of China. History of Chinese Martial Arts[M]. Beijing: People's Sports Publishing House of China, 2003.

[18] Zhou Xirui. The Origins of the Boxer Uprising[M]. Zhang Junyi & Wang Dong, Trans. Jiangsu: Jiangsu People's Publishing Ltd, 2005.

[19] Sun Longji. Deep Structure of Chinese Culture[M]. Guangxi: Guangxi Normal University Press (Group), 2004.

[20] Chen Xujing. On Western and Eastern Culture[M]. Beijing: China Renmin University Press, 2004.

[21] Sun Benwen. Principles of Sociology[M]. Shanghai: The Commercial Press, 1935.

[22] Zhang Dainian. An Introduction to Chinese Culture[M]. Beijing: Beijing Normal University

Publishing Group, 1998.

[23] Xu Shen. Origin of Chinese Characters[M]. Beijing: Zhonghua Book Company, 2004.

[24] Liang Qichao. Collected Works of Liang Qichao[M]. Shanghai: Zhonghua Book Company, 1932.

[25] Chen Shan. History of Chinese Chivalrous Martial Artists[M]. Shanghai: Shanghai Joint Publishing Company, 1995.

[26] Chen Gongzhe. Fifty Years of Chin Woo Athletic Association[M]. Liaoning: Chunfeng Wenyi Press, 2001.

[27] Liao Shuming. Eastern and Western Culture and Philosophy[M]. Beijing: The Commercial Press, 1999.

[28] Wang Zongyue. Training Manuals of Taijiquan: Thirteen Taolus[M]. Beijing: People's Sports Publishing House of China, 2001.

[29] Mao Zedong. A Study of Physical Culture[J]. New Youth. April 1, 1971.

[30] Matsuda Ryuchi. A Brief History of Chinese Kung Fu[M]. Sichuan: Sichuan Publishing House of Science & Technology, 1984.

[31] Chen Feng. Miserable Destiny of Warriors[M]. Shaanxi: Shaanxi People's Education Press, 2000.

[32] Zhang Kongzhao. Authentic Manual of Shaolin Boxing[M]. Beijing: Beijing Normal University Publishing Group, 1989.

[33] Wang Lianbin. General History of Chinese Martial Virtue[M]. Beijing: People's Liberation Army Press, 1998.

[34] Bian Renjie. An Introduction to Chinese Kung Fu[M]. Nanjing: Zhengzhong Publishing House, 1936.

[35] Wu Shu. Collected Works of Wushu Training[M]. Beijing: Beijing Normal University Publishing Group, 1989.

[36] Ma Guoxing. Annotations of Ancient Boxing Techniques[M]. Shaanxi: Shaanxi Science and Technology Publishing House, 2001.

[37] Chen Tiesheng. Unique Skills of Shaolin Boxing[M]. Beijing: Cathay Bookshop, 1984.

[38] Shen Shou. Essays on Taijiquan[M]. Beijing: People's Sports Publishing House of China, 1997.

[39] Wen Yiduo. Complete Works of Wen Yiduo[M]. Beijing: SDX Joint Publishing Company, 1982.

[40] Lin Yutang. My Country and My People[M]. Beijing: Academia Press, 2001.

[41] Lu Xun. A Brief History o Chinese Fiction[M]. Beijing: People's Literature Publishing House, 1973.

[42] Hu Shi. Hu Shi's Explanations on Confucianism[M]. Shaanxi: Shaanxi Normal University Publishing House, 2005.

[43] Dong Yuezhong. Chivalry Culture[M]. Beijing: China Economic Publishing House, 1995.

[44] Joseph Needham. Science and Civilization in China[M]. Beijing: Science Press, 1990.